هذه الرواية هديّة من



نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن توفّر لك هديتنا المجّانية قراءة ممتعة.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أغاثا كريستي

الجَرائمُ الأَبْجَدِيّة

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٣٦

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: جهاد الكردي

تحرير: رمزي رامز حسّون



هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٣٦ بعنوان

The ABC Murders

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الأولى
٢٠٢٠

الفصل الأول

الرسالة

كان ذلك في شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٣٥ عندما عدت إلى وطني من مزرعتي في أمريكا الجنوبية عازماً على الإقامة فيه لمدة ستة أشهر تقريباً. لقد كان وقتاً عصيباً قضيناه هناك في الخارج، فقد عانينا -كما عانى الجميع- من الكساد الاقتصادي الذي اجتاح العالم.

وكانت لي في إنكلترا مصالح متعددة رأيت أنها تستوجب حضوري لمعالجتها بنفسي، فسافرت وبقيَت زوجتي في أمريكا الجنوبية لرعاية المزرعة. ولا حاجة إلى تأكيد أن أحد أعمالي الأولى التي فكرت فيها عندما وصلت إلى إنكلترا كان زيارة صديقي القديم هيركيول بوارو.

وجدته يقيم في نوع جديد من الشقق المفروشة في لندن، وقد اتهمته (واعترف هو بما اتهمته به) بأنه اختار ذلك المبنى بالذات بسبب شكله الهندسي فقط. قال: نعم يا صديقي، إنه ذو تناسق رائع، ألا تجده كذلك؟

قلت إن الزوايا الحادة التي تغلب على المكان لا تبدو جميلة

في نظري، وتساءلت -مشيراً إلى نكتة قديمة- إنْ كانوا في ذلك البناء الحديث قد استطاعوا أن يجعلوا الدجاج يضع بيضاً مكعباً!

ضحك بوارو من كل قلبه وقال: آه، هل تتذكر ذلك؟ للأسف لا، فالعلم لم يطوّع الدجاج لكي يستجيب للأذواق الحديثة بعد، وهو ما زال يَبيض بيضاً متنوعاً بأحجام وألوان مختلفة.

فحصت صديقي القديم بعين المحبة، وكان رائعاً وكأنه لم يكبر يوماً واحداً منذ آخر مرة رأيته فيها. قلت: إنك تبدو في حالة جيدة يا بوارو، كأنك لم تهرم قط. والحقيقة لو كان الأمر ممكناً لقلت إن الشيب في شعرك الآن أقل منه عندما رأيتك آخر مرة.

ابتسم بوارو وقال: ولماذا لا يكون هذا الأمر ممكناً؟ إنه صحيح تماماً يا عزيزي.

- أتقصد أن شعرك يتحول من الرمادي إلى الأسود بدلاً من التحول من الأسود إلى الرمادي؟

- بالضبط.

- ولكن هذا مستحيل من الناحية العلمية.

- لا؛ أبداً.

- إنه فعلاً غريب جداً، يبدو أنه مخالف للطبيعة.

- أنت صاحب عقل رائع بريء كما عهدتك يا هيستنغز، لم تغير فيك السنون هذه الطبيعة. إنك تلاحظ الأمر وتتخيل حلاً له وسبباً واحداً تضعه في ذهنك بصورة حتمية.

نظرت إليه بشيء من الحيرة. ودون أن يتكلم ذهب إلى غرفة نومه ثم رجع وفي يده زجاجة قدمها لي، فتناولتها منه وأنا لا أدرك المغزى في تلك اللحظة. وكانت عليها الكلمات التالية: «ريفيفيت، لإعادة اللون الطبيعي إلى الشعر. تتوفر في خمسة ألوان: الرمادي والكستنائي والخرّوبي الذهبي والبنّي والأسود».

صحت: بوارو، لقد صبغت شعرك!

- آه، فقد فهمتَ أخيراً؟

- إذن فهذا هو السبب الذي جعل شعرك يبدو أشد سواداً مما كان عليه عندما شاهدتك آخر مرة؟

- بالضبط.

قلت وأنا أصحو من الصدمة: يا إلهي! أخشى أنني عندما أزور إنكلترا الزيارةَ القادمة سأجدك تضع شارباً مزيفاً. أم تراك تفعل ذلك الآن؟

جفل بوارو، فقد كان شاربه نقطتَه الحسّاسة وكان يفتخر به لدرجة المغالاة. وقعت كلماتي منه موقعاً أثار رعبه فهتف قائلاً: لا، لا يا صديقي. أدعو الله أن يكون ذلك اليوم بعيداً. شارب مزيف؟! أمر مرعب!

شدّ شاربه بقوة ليؤكد لي أنه حقيقي، فقلت: حسناً، إنه ما يزال كثاً نَضِراً.

- أليس كذلك؟ لم أرَ قطّ مثل شاربي في لندن كلها.

حدّثت نفسي: "لا بد أنه عالج شاربه أيضاً بشكل جيد"! لكني ما كنت لأجهر بهذه الكلمات -حرصاً على مشاعر صديقي- مهما يكن السبب، وبدلاً منها سألته إن كان ما يزال يمارس مهنته بين وقت وآخر. قلت: أعرف أنك تقاعدت فعلياً قبل سنوات؟

- صحيح؛ لقد تقاعدت وانصرفت إلى زراعة الكوسا، ثم لم تلبث جريمة قتل أن وقعت فأرسلت الكوسا في نزهة وانطلقت إلى العمل. أعرف جيداً ما الذي ستقوله؛ إنني مثل المغنية المشهورة التي تعتزم تقديم حفلها الوداعي واعتزال الفن، ولكن ذلك الحفل الوداعي ما يزال يكرر نفسه مرة بعد مرة!

ضحكت، ومضى قائلاً: في الحقيقة فإن الأمر على هذه الصورة، ففي كل مرة أقول: إنها النهاية. ثم يظهر شيء آخر! أعترف بأنني لا أهتم بالتقاعد إطلاقاً يا صديقي، فإذا لم تتمرن خلايا مخّي الرمادية فسوف يصيبها الصدأ.

قلت: هذا ما أراه؛ يبدو أنك تمرّنها باعتدال.

- بالضبط، فأنا ألتقط وأختار؛ هيركيول بوارو يهتم هذه الأيام بصفوة الجرائم فقط.

- وهل يوجد كثير من الصفوة؟

- لا بأس، وبالكاد نجوت منذ وقت غير بعيد.

- من الفشل؟

بدا بوارو مصدوماً وهو يقول: لا، لا! إنما كنت، أنا هيركيول بوارو، كنت على وشك الهلاك!

صفرت بدهشة وسألته: قاتل مغامر؟

قال بوارو: ليس مغامراً جداً بقدر ما هو طائش. نعم، هو كذلك، طائش. ولكن دعنا نتحدث عنك الآن. أنت تعرف أنني أعتبرك مصدر حظي يا هيستنغر.

سألته: حقاً؟ كيف؟

لم يُجِبْ بوارو على سؤالي مباشرة، بل استطرد في الحديث قائلاً: بمجرد أن سمعت أنك قادم قلت لنفسي: سيحدث شيء ما، وكعهدنا في الأيام الماضية سنصطاد معاً من جديد. ولكن إن كنا سنفعل ذلك فيجدر أن لا تكون مشكلة عادية، بل لا بد أن يكون شيئاً ذا قيمة... شيئاً جميلاً لذيذاً رائعاً.

قال الكلمات الأخرة وهو يلوّح بيده، فقلت: لو أن أحداً سمعك وأنت تتحدث بهذا الشكل لظن أنك تطلب عشاء من مطعم ريتز!

- بينما لا يستطيع المرء أن يتحكم بالجريمة كما يفعل بطلب الطعام؟ صحيح جداً. آه، نعم، ولكني أعتقد بالحظ، أو بالقدَر بتعبير أدقّ. إنه قدَرك أن تقف بجانبي وتمنعني من ارتكاب الخطأ الذي لا يُغتفَر.

- وما هو الخطأ الذي لا يُغتفر بنظرك؟

- عدم ملاحظة الأشياء الواضحة.

قلّبت كلماته في رأسي دون أن أفهم المغزى منها، ثم قلت مبتسماً: حسناً، وهل ظهرت الجريمة الكبرى هذه التي تنتظرها؟

- لم تظهر بعد. أو على الأقل، إنها...

توقف وقطب جبينه وامتدّت يده تلقائياً لتعدّل منضدة صغيرة كنت قد دفعتها دون قصد، ثم قال متأنياً: لست متأكداً.

كانت في نبرة صوته رنّة غريبة جعلتني أنظر إليه بدهشة، وكان ما يزال مقطباً. وفجأة عبَر الغرفة بعد أن أومأ برأسه إيماءة قصيرة حاسمة واتجه إلى دُرْج قرب النافذة ففتحه. ولا أحتاج إلى القول إن محتوياته كانت كلها مرتبة منسّقة في أماكنها، لذلك كان قادراً على وضع يده على الورقة التي يريدها بسرعة.

ثم رجع إليّ ببطء وبيده رسالة، فأعاد قراءتها كاملة بصمت ثم قدمها لي وقال: أخبرني يا صديقي، ماذا تفهم من هذه؟

أخذتها منه باهتمام. كانت مطبوعة بالآلة الكاتبة على ورقة ملاحظات بيضاء اللون، وفيها:

السيد هيركيول بوارو،

أنت معجب بنفسك وتظن أنك قادر على حل الألغاز التي تصعب على رجال شرطتنا البريطانية المساكين المغفلين، أليس كذلك؟

فَلْنَرَ أيها السيد الذكي بوارو كم أنت ذكي، فربما استعصى عليك حل هذه المعضلة. انتبه: أندوفر، في الحادي والعشرين من هذا الشهر.

المخلص «أ ب ج»

نظرت إلى المغلف وكان العنوان مطبوعاً عليه طباعة أيضاً.

عندما فرغت من قراءته وبعدما فحصت ختم البريد سألني بوارو: حسناً، ما رأيك؟

رفعت كتفيّ حائراً وأنا أعيده إليه وقلت: أظن أنه رجل مجنون.

- هل هذا كل ما تقوله؟

- حسناً، ألا يبدو لك أنه رجل مجنون فعلاً؟

- نعم يا صديقي، يبدو أنه كذلك.

كانت لهجته جادة جداً، ونظرت إليه بفضول قائلاً: كأنك تحمل الأمر على محمل الجِدّ يا بوارو؟

- الرجل مجنون يا صديقي، ويجب أخذه بجِدّ لأن الرجل المجنون خطير جداً.

- نعم، بالطبع هذا صحيح، لم أفكر بهذه النقطة. ولكن ربما كان شخصاً أحمق يريد المزاح أو ثملاً بالغ في الشراب. هل تظن أن في الرسالة ما هو أخطرمن ذلك؟

هز بوارو رأسه بارتياب ولم يتكلم، فسألته: وماذا فعلت بشأنها؟

- وماذا يمكن للمرء أن يفعل؟ عرضتها على جاب وكان رأيه مشابهاً لرأيك، قال إنهم يتلقون هذه الأشياء كل يوم في إدارة سكتلنديارد. أنا أيضا نلت نصيبي.

- ولكنك تتعامل مع هذه الرسالة بالذات باهتمام كبير؟

ردّ بوارو بتأنّ: لأن فيها أمراً غريباً يا هيستنغز، وهو أمر لا أحبه.

أثّرت فيّ لهجته فسألته: ماذا ترى فيها؟

هز رأسه وأخذ الرسالة فأعادها إلى الدرج، وسألته: إذا كنت تراها خطيرة لهذه الدرجة ألا تستطيع عمل شيء بشأنها؟

- أنت رجل العمل كالعادة! ولكن ما الذي يمكن عمله؟ لقد عرضتُ الرسالة على الشرطة المحلية، ولكنهم أيضاً لم يأخذوها بجِدّ. ليست عليها بصمات أصابع ولا توجد علامات تدل على كاتبها.

- في الحقيقة توجد غريزتك فقط.

- ليست الغريزة يا هيستنغز، الغريزة كلمة سيّئة في هذا المقام. إنها معرفتي، خبرتي. هذا هو الذي يخبرني أن في هذه الرسالة أمراً سيئاً ليس على ما يرام.

عندما خذلته الكلمات أومأ برأسه، ثم هز رأسه مرة أخرى قائلاً: ربما أكون قد صنعت جبلاً من كومة رمل صغيرة! على أي حال لا شيء يمكننا عمله سوى الانتظار.

- الحادي والعشرون من الشهر هو يوم الجمعة، فلو أن أندوفر شهدت يومها عملية سطو كبيرة...

- آه، أيَّ راحة ستمنحني مثل هذه العملية لو حصلت!

حدّقت إليه مستغرباً. راحة؟ بدت الكلمة غريبة جداً من

حيث استخدامها، فقلت معترضاً: ربما كانت السرقة عملاً مثيراً ولكنها لا يمكن أن تكون مريحة.

هز بوارو رأسه بقوة قائلاً: أنت مخطئ يا صديقي. يبدو أنك لم تفهم قصدي؛ إن السرقة ستكون راحة لأنها ستطرد من ذهني الخوف من الأمر الآخر.

- من ماذا؟

قال هيركيول بوارو: من القتل!

* * *

الفصل الثاني

(ليس من رواية الكابتن هيستنغز)

نهض السيد ألكسانْدَر بونابارْت جاسْت من مقعده ودار ببصره القصير في أنحاء غرفة النوم الرديئة. كان ظهره متصلباً من كثرة الجلوس في وضع مُنْحَنٍ، ولكنه بدا طويلاً تماماً عندما شَدّ قامته جيداً. كان انحناء ظهره وقِصَر نظره يعطيان انطباعاً خادعاً.

قام ومشى إلى الباب الذي عُلِّق عليه معطفٌ أبلاه الاستعمالُ الطويل، فأخرج من جيبه قائمة أسماء طُبعت بالآلة الكاتبة، ثم عاد إلى الطاولة التي كان يجلس أمامها فتناول دليل القطارات الأبجدية وراح ينظر فيه، ثم عاد يتأمل، ووضع بقلمه إشارة صغيرة أمام واحد من أسماء المحطات التي ظهرت على رأس القائمة.

كان ذلك اليوم هو الخميس ٢٠ حزيران (يونيو).

* * *

الفصل الثالث

أندوفر

تأثرتُ بهواجس بوارو بشأن الرسالة المجهولة التي استلمها، ولكنْ عليّ الاعتراف بأنني كنت قد نسيت أمرها تماماً عندما جاء يوم ٢١ من الشهر فعلياً، وكان الذي ذكّرني بها هو زيارة رئيس مفتش سكتلنديارد لصديقي. كنا على علاقة جيدة بالمفتش جاب منذ عدد من السنين، وقد رحّب بي ترحيباً حاراً.

هتف قائلاً: حسناً، ها هو الكابتن هيستنغز وقد عاد من قفار ذلك العالم الذي لا أعرف ماذا تسمونه! أراك هنا مع السيد بوارو تماماً مثل الأيام القديمة؟ إنك تبدو في صحة جيدة أيضاً، إلا أن شعر رأسك خَفّ قليلاً، أليس كذلك؟ حسناً، هذا هو مصيرنا جميعاً؛ الأمر نفسه يحصل لي أيضاً.

جفلت قليلاً، فقد ظننت أن الطريقة التي مشطت بها شعري ستخفي خفّة الشعر الذي أشار إليه جاب فلا يكون ملحوظاً تماماً. على أن جاب لم يكن ذا ذوق حساس، فابتسمت له ووافقته على أن أياً منا لم يصغر سنّه.

قال جاب: باستثناء السيد بوارو الذي سيكون إعلاناً جيداً لمستحضَر الشعر! يصبح الوجه أجمل من قبل وينال بريقاً من

الشهرة أيضاً في عمره المتأخر. إنه مشغول البال بالقضايا المشهورة الجديدة: ألغاز الطائرات ووَفَيات المجتمع الراقي، يدور هنا وهناك وفي كل مكان... لم يكن قط بمثل الشهرة التي حصل عليها بعد التقاعد!

قال بوارو بابتسامة: لقد أخبرت هيستنغز أنني كمغنية الأوبرا التي تعود إلى الظهور بعد كل اعتزال.

قال جاب وهو يضحك من أعماقه: لن أستغرب إذا انتهيتَ بتحري وفاتك شخصياً! إنها فكرة جيدة؛ يجب وضعها في كتاب.

قال بوارو وهو يغمزني: سيكون على هيستنغز أن يصنع ذلك.

ضحك جاب وقال: سيكون الأمر نكتة هائلة!

لم أفهم لماذا أثارت تلك الفكرة ضَحِكه. وعلى أي حال فقد اعتقدت أنها نكتة سمجة، فبوارو رجل عجوز مسكين يشيخ، والنكات عن اقتراب موته لا تبدو لطيفة. ولعل تعابير وجهي كشفت عن مشاعري، فقد غيّر جاب الموضوع قائلاً: هل سمعت عن رسالة السيد بوارو المجهولة؟

قال صديقي: لقد عرضتُها على هيستنغز بالأمس.

صحت: بالطبع! لقد غابت عن ذاكرتي تماماً. دعني أتذكر، ماذا كان التاريخ الذي جاء فيها؟

قال جاب: الحادي والعشرون، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى زيارتكم. أمس كان يوم الحادي والعشرين، ومن باب الفضول فقط اتصلت بأندوفر الليلة الماضية. يبدو أن الأمر كان خدعة

فحسب، فلم تقع أي حادثة ذات شأن، فقط واجهة متجر مكسورة كسرها أطفال كانوا يلقون حجارة، واثنان من السكارى المخالفين للنظام. وهكذا ولأول مرة أخطأ صديقنا البلجيكي في تقديره.

قال بوارو: أعترف بأنني استرحت.

قال جاب متردداً: لقد خفتَ منها تماماً، أليس كذلك؟ إننا نتلقى عشرات الرسائل من أمثالها كل يوم؛ أشخاص عَجَزة ليس لديهم ما يفعلونه يجلسون في بيوتهم ويكتبونها. إنهم لا يقصدون أي ضرر، فقط من قبيل الإثارة.

قال بوارو: يبدو أنني كنت أحمق عندما أخذت المسألة بذلك الاهتمام الكبير. لقد دسست أنفي في حظيرة الحصان.

قال جاب: إنك تخلط بين الحصان والدبّور.

- عفواً؟

مجرد خلط بين مَثَلين. حسناً، سأذهب الآن، فعليّ مهمة ينبغي تنفيذها في الشارع المجاور، استلام جواهر مسروقة. وقد فكرت أن أمر بك وأنا في طريقي لكي أريحك من ذلك الموضوع، فلا ينبغي أن نترك خلاياك الرمادية تعمل بلا فائدة.

ثم تركَنا ومضى، فقال بوارو: إنه لا يتغير كثيراً، هذا الطيب جاب، أليس كذلك؟

قلت بحقد: إنه يبدو أكبر سناً وشعر رأسه يشيب بسرعة.

سعل بوارو وقال: إن حلّاقي عبقري؛ عنده أداة صغيرة إذا

وضعها المرء على رأسه ومشط بها شعره... إنها ليست باروكة وإنما هي...

صحت بانفعال: لا علاقة لي بالابتكارات البغيضة التي يقدمها حلاقك السخيف. ما الخطأ في شعر رأسي؟

- لا شيء، لا شيء أبداً.

- لا يبدو وكأنني سأصبح أصلع؟

- بالطبع لا تبدو كذلك يا عزيزي هيستنغز.

- إنه فصل الصيف الحار هناك، من الطبيعي أن يسبّب تساقط الشعر قليلاً. في المرة القادمة سآخذ معي مستحضراً جيداً للشعر.

- رائع.

- وعلى أي حال ما شأن جاب برأسي؟ إنه مزعج ولا معنى لسخريته، ولعله من نوع الرجال الذين يضحكون عندما يُسحب كرسي من تحت رَجُل على وشك الجلوس عليه.

أعترف بأنني حساس بشأن تساقط شعري، وبعدما استعدت هدوء أعصابي قلت: حسناً، أنا آسف لأن موضوع الرسالة المجهولة انتهى إلى لا شيء.

- يبدو أنني أخطأت في تقديري بشأن تلك الرسالة. لقد كبرت وصرت شكّاكاً مثل كلب الحراسة الأعمى الذي ينبح حينما لا يكون في المكان أحد.

قلت ضاحكاً: إذا كنت سأتعاون معك فعليك أن تبحث عن

جريمة أخرى.

- هل تذكر ملاحظتك التي قلتَها أمس؟ إذا استطعت أن تطلب جريمة كما يطلب المرء عشاء فماذا ستختار؟

وافقته على سخريته وقلت: فنراجع قائمة الطعام أولاً. سطو؟ تزييف؟ لا، لا أظن، هذا «نباتيّ جداً». ينبغي أن تكون جريمة قتل، جريمة قتل دموية. ومن سيكون الضحية، رجلاً أم امرأة؟ أعتقد أنه رجل، شخص عظيم الشأن، مليونير أمريكي أو رئيس وزراء أو صاحب صحيفة. مسرح الجريمة؟ حسناً، ماذا عن مكتبة قديمة؟ لا شيء مثلها يلائم جو الجريمة. أما السلاح؟ حسناً، يمكن أن يكون خنجراً أو أداة من حجر منحوت في صورة معينة...

تنهد بوارو، فأضفت على الفور: أو السم بالطبع، ولكن هذه الطريقة مبتذَلة جداً. يمكن أن تكون طلقة مسدس تُحدث صدى في الليل. ثم لا بد من فتاة أو اثنتين...

همس صديقي: ذات شعر خَرّوبي ضارب إلى الحُمْرة.

- نفس نكتتك القديمة! وبالطبع لا بد من آخَرين يُشتبَه بهم، امرأة عجوز من النوع الخطير الشرير، وصديق أو عدو للرجل القتيل، ورجل طيب صاحب سلوك مخادع، وبعض الخدم أو الحراس المطرودين أو أشياء من هذا القبيل، ومفتش أحمق مثل جاب... حسناً، هذا كل شيء تقريباً. أحسب أنك لا تتفق معي في ذلك كله؟

نظر بوارو إليّ بأسف وقال: لقد قدّمتَ خلاصة جيدة للروايات البوليسية المتداوَلة.

- حسناً، ماذا كنت ستطلب أنت؟

أغلق بوارو عينيه واتكأ على مقعده قائلاً بصوت خافت: جريمة سهلة جداً، جريمة بلا تعقيدات في جو أليف هادئ فاتر جداً وخاص جداً. مثلاً: أربعة أشخاص يجلسون للعب البريدج، ورجل غريب يجلس في مقعد بجانب النار. في نهاية الأمسية وُجد الرجل الذي جلس بجانب النار مقتولاً. أحد الأربعة يقطع لعبه ويقتله والثلاثة الآخرون لم يلاحظوا شيئاً. أيٌّ من الأربعة هو القاتل؟

قلت: لا أرى أي إثارة في هذه الجريمة!

ألقى بوارو عليّ نظرة توبيخ وقال: نعم، لأنها ليست فيها خناجر لولبية تثير الفضول، لا ابتزاز، لا زمرّد سُرق من عين تمثال، لا سموم غريبة خفية... إنك تحب الإثارة يا هيستنغز، ولعلك لا تحب جريمة واحدة فقط بل سلسلة من جرائم القتل.

قلت: أعترف بأن الجريمة الثانية في الرواية غالباً ما تثير البهجة، فلو وقعت جريمة القتل في الفصل الأول وكان عليك متابعة التفاصيل اللاحقة إلى الصفحة الأخيرة فإن هذا السياق سيبعث على الملل.

في تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف، فنهض بوارو ورفع السماعة، قال: نعم، هيركيول بوارو يتكلم.

أنصت لدقيقتين وتغيّر وجهه. كان الحديث من طرفه مختصَراً متقطعاً: لكن، نعم... بالطبع... نعم، سنَحضر... بالتأكيد... يمكن أن يكون كما تقول... نعم، سأحضرها... إلى اللقاء.

ثم وضع السماعة وعاد إلى مقعده قائلاً: كان جاب هو الذي يتكلم يا هيستنغز.

- نعم؟

لقد عاد لتوّه إلى مكتبه، وكانت بانتظاره برقية من أندوفر.

هتفت بذهول: أندوفر؟!

قال بوارو بهدوء: امرأة عجوز اسمها آشِرْ تملك كشكاً صغيراً لبيع التبغ والصحف، عُثر عليها مقتولة.

شعرت بانقباض مُخيف. لقد ضَعُف اهتمامي الذي أثارته الرسالة، وكنت قد توقعت في البداية أمراً مختلفاً تماماً، شيئاً غير مألوف! أما قتل امرأة عجوز تبيع التبغ في كشك صغير؟ لقد بدا عملاً خسيساً ولا يثير الاهتمام.

استمر بوارو بصوته الهادئ المتمهّل: يعتقد شرطة أندوفر أن باستطاعتهم الوصول إلى الرجل الذي ارتكب الجريمة، فالظاهر أن المرأة كانت على علاقة سيّئة بزوجها الذي كان يُفْرط في الشراب ثم يزعجها في الكشك، وقد هددها بالقتل أكثر من مرة. مع ذلك فإنهم هناك يريدون الاطلاع على الرسالة المجهولة التي تلقيتُها، وقد أخبرت جاب أننا سنذهب إلى أندوفر في الحال.

ارتفعت معنوياتي قليلاً، فعلى الرغم من أنها بدت جريمة خسيسة إلا أنها جريمة على أي حال، وقد مضى وقت طويل منذ آخر اتصال لي بالجريمة والمجرمين.

لم أُصغِ باهتمام إلى الكلمات التالية التي قالها بوارو في

تلك اللحظة، إلا أنني تذكرتها بشكل واضح فيما بعد. قال: هذه هي البداية!

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع

السيدة آشر

في أندوفر استقبلَنا المفتش غْلِنْ بابتسامة جميلة، وكان رجلاً طويلاً أشقر الشعر. ومن أجل الاختصار أعتقد أنه من الأفضل لي أن أعطي ملخصاً للحقائق المجردة للقضية.

اكتشف الجريمةَ الشرطيُّ دوفر في الساعة الواحدة من صباح يوم الثاني والعشرين. كان في نوبته وحاول فتح باب الكشك فوجده غيرَ مقفَل بالمفتاح، فدخل معتقداً أن المكان خال من الناس، وعندما وجّه مصباحه اليدوي إلى منضدة البيع رأى جثة المرأة العجوز جاثمة هناك. وعندما وصل طبيب الشرطة إلى المكان اكتشف أن المرأة قد ضُربت على عقب رأسها ضربة قوية، ربما وهي تنحني لتناول شيء ما عن الرف المنخفض تحت المنضدة، وأن الوفاة وقعت قبل اكتشافها بسبع ساعات إلى تسع.

أوضح المفتش: ثم استطعنا أن نحدد ساعة وقوع الجريمة بصورة أقرب، فقد عثرنا على رجل اشترى من القتيلة بعض التبغ في الساعة الخامسة والنصف، ثم جاء رجل آخر فوجد الكشك خالياً كما ظن، وذلك في الساعة السادسة وخمس دقائق تقريباً، وهذا يجعل وقت الجريمة بين الساعة الخامسة والنصف والسادسة

وخمس دقائق. حتى الآن لم أصل لأي شهادة عن مشاهدة زوجها في مكان قريب، ولكن ما زال الوقت مبكراً على ذلك بالطبع. لقد شوهد في حانة «التيجان الثلاثة» في الساعة التاسعة وهو في حالة سكر شديد، ولا بد أن نضع يدنا عليه قريباً.

سأله بوارو: يبدو أنه شخص غير محبوب يا حضرة المفتش، أليس كذلك؟

- بل إنه رجل كريه.

- هل كان يعيش مع زوجته؟

- لا، لقد انفصلا قبل بضع سنين. وهو ألماني الجنسية، وكان نادلاً في وقت مضى، ثم أدمن على الشراب وصار عاطلاً عن العمل، فعملت زوجته في الخدمة في المنازل لبعض الوقت، وكان آخر عمل لها طاهية ومدبرة لمنزل سيدة عجوز، الآنسة روز. كانت تعطي زوجها الكثير من دخلها لكي يعيش منه، ولكنه كان ينفق المال على الشراب ويعود إليها لتعطيه المزيد. هذا هو السبب الذي جعلها تقبل بالوظيفة مع الآنسة روز في بيتها الريفي، فهو على بعد ثلاثة أميال خارج أندوفر في مكان ما في الريف بحيث لا يستطع الوصول إليها هناك. وعندما توفيت الآنسة روز تركت للسيدة آشر تركة صغيرة فاستفادت منها لإنشاء كشك يبيع التبغ والصحف، وهو كشك صغير جداً. وقد اعتاد آشر على المجيء إلى المكان بين وقت وآخر وشتمها ومضايقتها، وكانت هي تعطيه القليل حتى تتخلص منه، ربما كانت تعطيه خمسة عشر شلناً كل أسبوع.

سأل بوارو: هل لهما أولاد؟

- لا، لها فقط ابنة أخت تعمل في بيت قرب أوفرتون، وهي شابة عصامية تماماً.

- وأنت تقول إن هذا الرجل آشر اعتاد على تهديد زوجته؟

- صحيح. كان يغدو مخيفاً عندما يشرب، يلعن ويقسم أنه سيحطم رأسها. لقد عاشت السيدة آشر أوقاتاً عصيبة.

- كم كان عمرها؟

- قريباً من الستين، وكانت امرأة محترَمة ومجتهدة في عملها.

قال بوارو بهدوء: هل هذا هو رأيك يا حضرة المفتش، أن ذلك الرجل آشر هو الذي ارتكب الجريمة؟

سعل المفتش وقال بحذر: من المبكر تقرير ذلك يا سيد بوارو، ولكني أحب سماع إفادة فرانز آشر نفسه لأعرف كيف أمضى مساء الأمس. إذا استطاع أن يقدم إفادة مقنعة عن نفسه فالأمر حسن، وإذا لم يستطع...

قطع كلامَه بطريقة موحية، فسأله بوارو: هل فُقد أي شيء من الكشك؟

- لا شيء. لم يُمَسّ المال الموجود في الدرج ولا علامات على سطو.

- هل تظن أن آشر ذهب إلى الكشك في حالة سكر وبدأ يسبّ زوجته ثم قتلها أخيراً؟

- هذا يبدو أكثرَ الحلول احتمالاً، ولكنْ عليّ أن ألقي نظرة على الرسالة الغريبة التي تلقيتها يا سيدي، فقد كنت أتساءل إن كان ممكناً أن يكون آشر نفسه هو الذي كتبها.

سلّمه بوارو الرسالة وقرأها المفتش مقطباً جبينه، وأخيرا قال: لا تدل على أنه آشر. أشك في أن آشر يستخدم عبارة من نوع «شرطتنا البريطانية»، إلا إذا حاول أن يبدو ذكياً، وأنا أشك أنه يملك هذا القدر من الذكاء. ثم إن الرجل مريض جداً ويده ترتجف كثيراً، فلا يستطيع طباعة رسالة بمثل هذه الأناقة، كما أنها ورقة من نوعية جيدة أيضاً.

- من الغريب أن الرسالة ذكرت تاريخ الحادي والعشرين من الشهر، ولكن يمكن أن يكون ذلك مصادفة بالطبع.

- هذا محتمَل، نعم.

- ولكني لا أرجّح هذا النوع من المصادفات يا سيد بوارو، بل يبدو أنه عمل مدروس نوعاً ما.

ظلّ صامتاً برهة قصيرة وجبينه مقطب، ثم قال: «أ ب ج»... من يكون هذا الشيطان؟ سنرى إن كان بوسع ماري دْراوَرْ أن تقدم لنا أية مساعدة، أعني ابنة أخت السيدة المتوفاة.

- هل تعرف أي شيء عن ماضي السيدة آشر؟

- نعم، أصلها من هامبشاير، وذهبت إلى لندن لتعمل بخدمة المنازل عندما كانت فتاة، وهناك التقت بآشر وتزوجته. لا بد أن الأمور كانت صعبة عليهما أثناء الحرب، ثم تركته إلى الأبد عام

١٩٢٢، وكانوا في لندن حينها. وقد عادت إلى أندوفر لتهرب منه، ولكنه عرف بمكانها وتبعها صار يزعجها من أجل المال.

دخل شرطي فسأله المفتش: نعم يا برغز؟ ما الأمر؟

- إنه الرجل آشر يا سيدي، لقد أحضرناه معنا.

- جيد، أحضره إليّ هنا. أين كان؟

كان مختبئاً في شاحنة على جانب سكة القطار.

- هكذا إذن؟ حسناً، أحضره بسرعة.

كان فرانز آشر رجلاً تعساً وقحاً، وراح ينتحب ويتذلل تارة ويتوعد تارة أخرى. تحركت عيناه الدامعتان من وجه لآخر من وجوه الحضور وسأل بخوف: ماذا تريد مني؟ لم أفعل شيئاً. إنها فضيحة وعارٌ أن تُحضروني هنا! لا، لا، أنت لن تؤذي رجلاً عجوزاً مسكيناً، لن تقسو عليه... الكل يقسون على العجوز المسكين فرانز! مسكين العجوز فرانز!

بدأ السيد آشر بالنحيب، فقال المفتش: هذا يكفي يا آشر. تمالك نفسك، أنا لم أتهمك بشيء حتى الآن. ثم إنك غير مجبَر على تقديم إفادة إلا إذا أردت ذلك. لكن إذا لم تكن مهتماً بحادثة قتل زوجتك...

قاطعه آشر وقد ارتفع صوته ليصير صراخاً: أنا لم أقتلها، لم أقتلها! هذا كله كذب! أنتم خنازير إنكليز ملاعين. كلكم ضدي... أنا لم أقتلها أبداً، أبداً.

- لكنك هددتها دائماً يا آشر.

- لا، أنت لا تفهم. كان ذلك مجرد مزاح، مزحة لطيفة بيني وبين أليس. لقد كانت تفهم ذلك.

- يا له من مزاح سخيف! هل تحب أن تخبرنا أين كنت مساء أمس يا آشر؟

- نعم، نعم، سأخبرك بكل شيء. أنا لم أقترب من أليس. كنت مع أصدقائي، وهم أصدقاء طيبون... كنا معاً في حانة «النجوم السبعة» وبعدها ذهبنا إلى حانة «الكلب الأحمر».

ثم أسرع في حديثه وتلعثم فتداخلت كلماته بعضها مع بعض: دِكْ ويلوز كان معي، والعجوز كيردي جورج، وبلات... وآخرون. قلت لك إنني لم أقترب أبداً من أليس، إنني أقول الحقيقة.

ارتفع صوته، فأومأ المفتش برأسه لمرؤوسه وقال: خذه بعيداً، أوقفه بتهمة الاشتباه.

بعد أن اقتيدَ الرجل العجوز المرتجف الكريه بعيداً قال المفتش: لا أعرف ماذا أفكر، لولا هذه الرسالة لقلت إنه هو الذي فعلها.

- ماذا عن الرجال الذين ذكرهم؟

- حشد سيّئ، ولن يتردد أي منهم في اليمين الكاذبة. لا أكاد أشك أنه كان معهم معظم المساء، ولو أن أحداً شهد بمشاهدته قريباً من كشك القتيلة بين الخامسة والنصف والسادسة لتغير الأمر تماماً.

- هز بوارو رأسه متفكراً ثم سأل: هل أنت متأكد أن أي شيء لم يُفقَد من الكشك؟

رفع المفتش كتفَيه ببعض التساؤل وقال: هذا يعتمد. يمكن أن تكون علبة تبغ قد اختفت مثلاً، لكن أحداً لا يرتكب جريمة قتل من أجل شيء كهذا.

سأله بوارو: ولا شيء... كيف أقولها؟ أي شيء وُضع في الكشك؟ شيء غريب، شيء متعارض مع محتويات الكشك التقليدية؟

قال المفتش: وجدنافي الكشك نسخة من دليل القطارات.

- دليل القطارات؟

- نعم، كان مفتوحاً ومقلوباً إلى الأسفل. عثرنا عليه في ركن الكشك، وكأن شخصاً كان يبحث عن مواعيد القطارات التي تغادر أندوفر، إمّا المرأة العجوز نفسها أو أحد الزبائن.

- هل تبيع هذا النوع من الأشياء عادة؟

هزّ المفتش رأسه بالنفي وقال: كانت تبيع جداول القطارات الرخيصة، أما هذا فكان دليلاً كبيراً، من النوع الذي تبيعه مكتبة سميث والمكتبات الكبيرة الأخرى.

برَقَت عينا بوارو ومال إلى الأمام وهو يقول: تقول دليل القطارات؟ هل هو «دليل برادشو» لمواعيد القطارات أم دليل الحروف الأبجدية «أ ب ج»؟

قال المفتش: يا إلهي! إنه دليل الحروف الأبجدية!

* * *

الفصل الخامس

ماري دْراوَرْ

أستطيع أن أؤرخ بداية اهتمامي الحقيقي بالقضية بالمرة الأولى التي ذُكر فيها دليل «أ ب ج» للقطارات، ولم أكن قد اهتممت بها بحماسة شديدة حتى تلك اللحظة. كانت جريمة القتل الخسيسة التي ارتكبت بحق امرأة عجوز في كشك في شارع خلفي من نوع الجرائم التي تتحدث عنها الصحف دائماً ولم تكن تثير انتباه أحد، وقد قررت في نفسي أن الرسالة المجهولة التي ذكرت تاريخ اليوم نفسه ليست سوى مصادفة بحتة، وشعرت -بنوع من الثقة- أن السيدة آشر كانت ضحية زوجها الوحش الثمل.

ولكن الوضع تغير بعدما ذُكر دليل القطارات المشهور باسم الحروف الأبجدية «أ ب ج» (لأنه يحتوي على أسماء محطات القطارات كلها مُدرَجةً بالترتيب الهجائي لأسمائها). قد أحدث ذكر الدليل ارتعاشة من الإثارة في داخلي، فقطعاً وبالتأكيد لا يمكن أن يكون هذا الأمر مصادفة ثانية. لقد اتخذت الجريمة الخسيسة مظهراً جديداً. مَن هو الشخص الغامض الذي قتل السيدة آشر وترك الدليل الأبجدي للقطارات وراءه؟

عندما غادرنا مركز الشرطة اتجهنا إلى المشرحة لمشاهدة

جثة المرأة القتيلة. انتابني شعور غريب عندما نظرت إلى وجه المرأة العجوز المتجعد وشعرها الرمادي الخفيف المشدود بقوة إلى الوراء عند الصدغين. بدت مسالمة جداً وبعيدة عن العنف بصورة لا تصدَّق.

قال المفتش: لم تعرف أبداً مَن الذي صرعها. هذا ما يقوله الدكتور كير، وأنا مسرور بذلك. مسكينة هذه العجوز، لقد كان امرأة محترمة.

قال بوارو: لا بد أنها كانت جميلة ذات يوم.

همست بصورة ميّالة إلى الشك: فعلاً؟

- نعم؛ انظر إلى الفك والأنف وشكل الرأس.

تنهّد وهو يغطي وجهها، ثم غادرنا المشرحة وذهبنا لمقابلة مختصرة مع طبيب الشرطة. كان الدكتور كير رجلاً قديراً في أواسط العمر ويتكلم بنشاط وتصميم، قال: لم نعثر على السلاح، ويستحيل الجزم به. ربما كان عصا غليظة أو هراوة أو شيئاً بشكل كيس رمل... أي واحد من هذه الأشياء يناسب الإصابة.

سأله بوارو: هل كان القاتل بحاجة لقوة كبيرة لكي يضرب مثل هذه الضربة؟

رماه الطبيب بنظرة حادة وقال: لعلك تقصد: هل يستطيع عجوز يرتجف في السبعين من عمره أن يفعلها؟ نعم، هذا ممكن تماماً. بافتراض وجود ثقل كاف في رأس السلاح فإن الشخص الضعيف يستطيع أن يحقق النتيجة المرغوبة.

- إذن فيمكن أن يكون القاتل رجلاً ويمكن أن يكون امرأة؟

أذهل هذا الاحتمالُ الطبيبَ إلى حد ما، فقال: امرأة؟! حسناً، أعترف بأنني لم يخطر ببالي أبداً أن لأي امرأة صلة بهذا النوع من الجريمة، ولكنه ممكن بالطبع، ممكن تماماً. من الناحية السيكولوجية فقط لا أقول إن هذه جريمة امرأة.

وافقه بوارو بشدّة: تماماً، تماماً، من حيث المظهر يبدو هذا الاحتمال بعيداً جداً، ولكن على المرء أخذ جميع الاحتمالات بعين الاعتبار. حسناً، كيف كان الجسد ممدداً؟

أعطانا الطبيب وصفاً دقيقا لوضع الضحية، وقد افترض أنها كانت تقف مولية ظهرها لمهاجمها عندما تلقت الضربة، فسقطت متكومة خلف منضدة البيع بعيداً عن نظر أي داخل إلى الكشك.

* * *

في الختام شكرنا الدكتور كير وغادرنا، وقال بوارو: هل تدرك أننا حصلنا على نقطة أخرى لصالح براءة آشر يا هيستنغز؟ لو كان يشتم زوجته ويهددها لقابلته وجهاً لوجه عند منضدة البيع بدلاً من أن تدير له ظهرها، أما في الحالة التي وصفها الطبيب فيبدو أنها كانت تحاول الوصول إلى رف التبغ لإحضار شيء منه للزبون.

ارتجفت رجفة بسيطة وقلت: إنه عمل شنيع جداً.

هز بوارو رأسه بهدوء وهمس قائلاً: امرأة مسكينة.

ثم نظر إلى ساعته وقال: أعتقد أن أوفرتون ليست بعيدة عن

هذا المكان. هل يمكننا أن نسرع إلى هناك لنقابل ابنة أخت القتيلة؟

- بالتأكيد ستذهب أولاً إلى الكشك الذي وقعت فيه الجريمة؟

- أفضّل أن أصنع ذلك لاحقاً؛ لديّ سبب لتأجيل الزيارة.

لم يشرح أكثر من ذلك، وبعد دقائق معدودة كنا في طريقنا إلى أوفرتون. كان العنوان الذي أخذناه من المفتش لبيت كبير على بعد ميل تقريباً من القرية باتجاه لندن، وقرعنا الجرس فردّت علينا فتاة جميلة ذات شعر أسود، وكانت عيناها محمَرّتين من البكاء.

قال بوارو بلطف: أعتقد أنك الآنسة ماري دراور خادمة الاستقبال في هذا البيت؟

- نعم يا سيدي، هذا صحيح؛ أنا ماري يا سيدي.

- إذن ربما أستطيع أن أتحدث معك لبضع دقائق ما لم تعارض سيدتك. أريد أن أسألك عن خالتك السيدة آشر.

- السيدة في الخارج يا سيدي، وهي لن تمانع، أنا متأكدة. تفضل بالدخول.

فتحت بابَ غرفة صغيرة فدخلنا إليها، ونظر بوارو وهو يجلس على المقعد بجانب النافذة إلى وجه الفتاة.

- لقد سمعتِ عن وفاة خالتك بالطبع؟

أومأت الفتاة برأسها علامة الإيجاب وانهمرت الدموع من عينيها مرة أخرى. قالت: هذا الصباح يا سيدي، جاء الشرطة إلى هنا. آه، إنه عمل فظيع! مسكينة خالتي. كانت تعيش حياة قاسية

والآن هذا... إنه عمل شنيع جداً.

- ألم يطلب منك الشرطة العودة إلى أندوفر؟

- قالوا إن عليّ الذهاب إلى جلسة التحقيق التي ستُعقَد يوم الإثنين يا سيدي، ولكن ليس لي مكان أذهب إليه هناك، ولا أتصور أنني سأطيق زيارة الكشك بعد الذي حصل. وماذا عن سيدة البيت هنا؟ لا أريد أن أزعجها بغيابي.

قال بوارو بلطف: لقد كنت تحبين خالتك يا ماري، أليس كذلك؟

- في الحقيقة كنت أحبها كثيراً يا سيدي، فقد كانت دائماً طيبة جداً معي. أقمت معها في لندن عندما كان عمري أحد عشر عاماً بعد وفاة أمي، ثم بدأتُ الخدمة في المنازل عندما بلغت السادسة عشرة فصرت أزورها في أيام إجازتي. لقد لاقت الكثير من المتاعب مع ذلك الرجل الألماني. كانت تسميه «شيطاني العجوز»، ولم يتركها تعيش في سلام في أي مكان. إنه حيوان عجوز متسول عالة لا خير فيه.

- ألم تفكر خالتك بتحرير نفسها من هذا الاضطهاد بالوسائل القانونية؟

تكلمت الفتاة ببساطة ولكن بحسم، قالت: حسناً، لقد كان زوجَها يا سيدي، إنها لا تستطيع أن تهرب من ذلك.

- أخبريني يا ماري: لقد هددها، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، كانت الأشياء التي يقولها شنيعة. كان

يقول إنه سيذبحها، وكان يسبها ويلعنها أيضاً، باللغتين الألمانية والإنكليزية! ومع ذلك كانت خالتي تقول إنه كان أنيقاً وجميلاً عندما تزوجته. من المفزع يا سيدي أن تفكر بالذي يصل إليه الناس.

- نعم، هذه حقيقة. وهكذا فالذي أظنه هو أن خبر موتها لم يفاجئك كثيراً بعدما اعتدت على سماع تلك التهديدات؟

- ولكني فوجئت يا سيدي. لم أفكر قط ولو لحظة واحدة أنه كان يعني ما يقول. اعتقدت أن تهديده كان مجرد كلام بغيض ليس أكثر، ولم ألاحظ أن خالتي خافت منه. لقد رأيته عندما هاجَمته وهو ينسلّ هارباً كأنه كلب يجرّ ذيله بين رجليه. يمكنك أن تقول إنه كان يخاف منها.

- ولكنها كانت تعطيه النقود؟

- حسناً، لقد كان زوجَها يا سيدي.

- نعم، هذا ما قلتِه من قبل.

سكت برهة ثم قال: رغم ما قلناه سابقاً افترضي أنه لم يقتلها.

- لم يقتلها؟

جفلت فقال: هذا ما قلته. افترضي أن شخصاً آخر قتلها، فهل تملكين أي فكرة عمّن يمكن أن يكون هذا الشخص الآخر؟

حدقت إليه بدهشة وقالت: ليست عندي أي فكرة يا سيدي. رغم أن هذا الافتراض لا يبدو محتمَلاً، أليس كذلك؟

- ألا تعرفين أي شخص آخر تخاف منه خالتك؟

هزت ماري رأسها نافية وقالت: لم تكن خالتي تخشى الناس. كان لها لسان حاد وكانت ترد على أي شخص يحاول أن يؤذيها.

- هل سمعتِها أبداً وهي تذكر أن شخصاً ما يحقد عليها؟

- لا يا سيدي.

- هل تلقت رسائل مجهولة؟

- أي نوع من الرسائل تقصد يا سيدي؟

- رسائل بلا توقيع، أو أنها موقعة فقط بأحرف هجائية؟

راقبها بدقّة، ولكن كان من الواضح أنها لا تعرف شيئاً عن ذلك، وقد هزّت رأسها متعجبة.

- هل لخالتك أي أقارب آخرين سواك؟

- ليس الآن يا سيدي. كانت واحدة من عشرة إخوة عاش ثلاثة منهم فقط حتى كبروا، ثم قُتل خالي توم في الحرب، وهاجر خالي هاري إلى أمريكا الجنوبية ولم يسمع عنه أحد منذ ذلك الوقت، وبالطبع والدتي توفيت، لذلك لا يوجد إلا أنا فقط.

- هل لخالتك أي مدَّخرات؟ أي أموال ادّخرتها للمستقبل؟

- عندها القليل في بنك الادخار يا سيدي، ربما فقط ما يكفي لدفنها بصورة مناسبة. هذا ما كانت تقوله دائماً، وسوى ذلك لم يكن عندها أكثر من دخلها لتعيش منه، هي وشيطانها العجوز.

أومأ بوارو برأسه وقال كأنه يكلم نفسه: إن المرء يعيش في الظلام في الوقت الحالي... لو أن الأمور تصبح أكثر وضوحاً!

ثم نهض قائلاً: إذا أردتك في أي وقت فسأكتب إليك هنا يا ماري.

- قد أستقيل من العمل هنا قريباً يا سيدي، فأنا لا أحب الريف. لقد أقمت هنا لأنني تصورت أن هذا يريح خالتي كوني قريبة منها، أما الآن....

انهمرت الدموع من عينيها مرة أخرى وأكملت: الآن لا يوجد سبب لبقائي، لذلك سأعود إلى لندن، فهناك يكون الجو أكثر راحة بالنسبة لفتاة.

- أرجو أن تعطيني عنوانك عندما تنتقلين، ها هي بطاقتي.

قدمها لها، فنظرت إليها وهي عابسة ثم سألت باستغراب: إذن لا علاقة لك بالشرطة يا سيدي؟

- أنا من رجال التحريات الخاصة.

وقفت تنظر إليه بصمت لبضع لحظات، ثم قالت أخيراً: هل في الحادثة أي أمر غريب يا سيدي؟

- نعم يا ابنتي، فيها شيء غريب. ربما تستطيعين مساعدتي فيما بعد.

- سأفعل أي شيء يا سيدي، فإن قتل خالتي عمل شرير.

قالت عبارتها تلك بطريقة غريبة ولكنها أثارت المشاعر بعمق، وبعد ذلك بثوان قليلة كنّا في طريق العودة إلى أندوفر.

* * *

الفصل السادس

مسرح الجريمة

كان الشارع الذي وقعت فيه المأساة متفرعاً من شارع رئيسي، وكان دكان السيدة آشر في وسطه على الناحية اليمنى. عندما عرجنا إلى الشارع نظر بوارو إلى ساعته، وأدركت عندها لماذا أخّر زيارته لمسرح الجريمة إلى ذلك الوقت. كانت الساعة الخامسة والنصف فقط، وكان يرغب في استعادة أجواء الأمس قدر الإمكان.

لكن إذا كان ذلك هو هدفه فقد فشل، فالطريق لم يحمل في هذا الوقت أكثر من شَبَه ضئيل جداً مع مظهره الذي كان عليه مساء الأمس بالتأكيد، فقد كان هناك عدد قليل من الأكشاك الصغيرة متناثرةً بين بيوت الطبقة الفقيرة. وقدّرتُ أن من الطبيعي أن يمر بعض الناس ذهاباً وإياباً مع أطفال يلعبون على الأرصفة وفي الطريق، لكن الذي رأيناه أمامنا في تلك اللحظة كان تجمهراً ضخماً من الناس واقفين وهم يحدّقون باتجاه ما، وأدركنا بسرعة أن ما كانوا ينظرون إليه باهتمام شديد هو المكان الذي قُتلت فيه المرأة العجوز.

عندما اقتربنا أكثر رأينا شرطياً يافعاً واقفاً أمام كشك صغير قذر أُغلقت نوافذه، وكان يناشد الجمهور بطريقة باردة لكي يبتعدوا

عن المكان ثم يُبعدهم عنه قدر الإمكان بمساعدة زميل له، وكلما دُفعوا عن المكان تنهّدوا على نحو متذمر وانصرفوا إلى أعمالهم المعتادة، وفي الحال تقريباً كان يأتي غيرهم ويقفون ليلقوا نظرة على المكان الذي وقعت فيه الجريمة.

وقف بوارو بعيداً قليلاً عن الحشد الكبير. وقفنا في مكان يمكن منه ملاحظة موقع الجريمة بوضوح كاف، وكرر بوارو العبارة بصوت خافت: أ = آشر. مَن الذي سيكون...

توقف ثم قال: هيا، دعنا ندخل يا هيستنغز.

كنت مستعداً تماماً، فسرنا في طريقنا من خلال الحشد واقتربنا من الشرطي الشاب، وأخرج بوارو بطاقته فقدمها للشرطي الذي أومأ برأسه وفتح لنا الباب لكي ندخل.

دخلنا إلى الدكان الصغير تحت أنظار المتفرجين المدهوشين. وكان الظلام يعمّ الدكان في الداخل بسبب إغلاق النوافذ، فبحث الشرطي عن مفتاح المصباح الكهربائي وأضاءه، ولكن المصباح كان ضعيفاً فبقي المكان معتماً إلى حد ما.

نظرت حولي. كان المكان قذراً صغيراً وكانت بعض المجلات الرخيصة متناثرة فيه وقد غطاها الغبار، وخلف منضدة البيع صف من الرفوف غطّته علب التبغ، وكان عليه أيضاً وعاءان صغيران فيهما حلوى بنكهة النعنع وسكر النبات. كشك صغير عادي يوجد الآلاف من أمثاله في البلاد.

شرح لنا الشرطي تفاصيل الجريمة بنبرته البطيئة، قال: كانت هناك متكوّمة على الأرض. يقول الطبيب إنها لم تعرف ما الذي

ضربها، ولا بد أنها كانت تحاول الوصول إلى أحد الرفوف.

- أكان في يدها أي شيء؟

- لا يا سيدي، ولكن كانت على الأرض بجانبها علبة تبغ من نوع بلاير.

أومأ بوارو برأسه فيما راحت عيناه الدقيقتان تتنقلان في أنحاء المكان الصغير، يراقب ويلاحظ. ثم سأل: وأين كان دليل القطارات؟

أشار الشرطي إلى مكان في الزاوية وقال: هنا يا سيدي. كان مقلوباً ومفتوحاً على الصفحة التي فيها اسم محطة أندوفر. يبدو وكأنه كان يبحث عن القطارات الذاهبة إلى لندن، ولو كان كذلك فمن الممكن ألّا يكون الرجل من أندوفر على الإطلاق. ولكن يُحتمَل أيضاً أن الدليل يخص شخصاً آخر وليست له علاقة بجريمة القتل، شخصاً نسيه هنا فحسب.

سألته: وماذا عن بصمات الأصابع؟

هز الرجل رأسه بالنفي وقال: المكان كله فُحص بصورة دقيقة يا سيدي، ولم يكن فيه أي منها.

سأل بوارو: ولا حتى على منضدة البيع نفسها؟

- يوجد كثير منها يا سيدي، ولكنها متداخلة ومختلطة معاً.

- وهل بينها أي بصمات للسيد آشر؟

- ما زال الوقت مبكراً للبت بهذا الأمر يا سيدي.

أومأ بوارو برأسه موافقاً، ثم سأل إن كانت المرأة القتيلة تعيش في الجانب الآخر من الدكان.

- نعم يا سيدي. اذهب من خلال ذلك الباب في المؤخرة يا سيدي، واعذرني لأنني لا أستطيع الذهاب معك لأن عليّ أن أبقى...

عبر بوارو الباب وتبعته. كانت خلف الكشك الصغير ردهة صغيرة جداً ومعها مُطَيبخ صغير. كان المكان مرتباً ونظيفاً، ولكنه موحش ومؤثث تأثيثاً بسيطاً جداً، وعلى رف الموقد بعض الصور الفوتوغرافية. ذهبت ونظرت إليها، وانضم بوارو إليّ. كانت ثلاثاً، إحداها صورة متواضعة للفتاة التي قابلناها قبل قليل، ماري دراور، ومن الواضح أنها كانت ترتدي أفضل ملابسها وتبدو خَجِلة وتعلو وجهَها ابتسامة جامدة. الثانية كانت صورة من النوع الغالي، نسخة فنّية طبق الأصل لامرأة مسنّة ذات شعر أبيض، وكانت تلتفّ حول عنقها باقة غالية من الفرو، وخمنّت أن تكون تلك صورة الآنسة روز التي تركت للسيدة آشر التركة الصغيرة التي أنشأت بها الدكان. الصورة الثالثة كانت قديمة جداً وقد صارت باهتة صفراء، وكانت تمثل رجلاً شاباً وامرأة شابة بملابس ذات طراز قديم نوعاً ما، يقفان وقد تأبط كل منهما ذراع صاحبه، وقد وضع الرجل زهرة في عروة سترته، وكانت ملامح أعياد الماضي واضحة في الصورة.

قال بوارو: من المحتمل أنها صورة زفاف. انظر يا هيستنغز، ألم أخبرك أنها كانت امرأة جميلة؟

كان محقاً، فعلى الرغم من قَصّة شعرها القديمة وملابسها

الغريبة إلا أن أناقة الفتاة كما تبدو في الصورة كانت واضحة مع وجهها المفعم بالحيوية. ونظرت بتمعّن إلى الشخص الآخر. كان من المستحيل تقريباً التعرف على آشر القذر وهو بمثل هذه الأناقة والشباب مع ملامح الرجل العسكري.

رجعت بذاكرتي إلى الرجل العجوز الثمل صاحب النظرة الخبيثة وإلى وجه القتيلة الكادح، وارتجفت قليلاً بسبب قسوة الزمن!

وكان في الردهة درَج ضيق يوصل إلى غرفتين علويتين، إحداهما كانت فارغة غير مؤثثة، والأخرى كان من الواضح أنها غرفة نوم القتيلة. وبعد أن فتشها الشرطة تُركت كما هي. كانت على السرير بطانيتان قديمتان ممزقتان، وملابس داخلية بالية في درج بجانبه، وفي درج آخر دليل للطبخ، وكانت فيه رواية رخيصة عنوانها «الواحة الخضراء» وزوج من الجوارب الجديدة (تثير الشفقة بسبب بريقها) وزوج من القطع الفخارية الصينية، إحداها مزينة بتمثال مكسور والثانية بتمثال كلب مرقط. ورأينا في الغرفة أيضاً معطفاً أسود واقياً من المطر وسترة صوفية معلقة على علاّقة ملابس. لقد كانت هذه هي كل ممتلكات الراحلة أليس آشر في هذا العالم!

إذا كانت لها أي أوراق شخصية فلا بد أن الشرطة أخذوها. وهمس بوارو: مسكينة هذه المرأة! هيّا يا هيستنغز، لا شيء لنا هنا.

* * *

عندما صرنا في الشارع مرة أخرى تردد قليلاً ثم قطع الطريق.

مقابل دكان السيدة آشر بالضبط تقريباً كان دكان لبيع الخَضراوات، من النوع الذي يعرض معظم بضاعته في الخارج. أعطاني بوارو تعليمات معينة بصوت خافت ثم دخل هو إلى الدكان، وبعد الانتظار برهة قصيرة تبعته إلى الداخل. كان في تلك اللحظة يساوم البائعة على شراء الخس، أما أنا فقد اشتريت بعض الفراولة.

كان بوارو يتحدث بحيوية إلى المرأة البدينة التي كانت تبيعه: لقد وقعت جريمة القتل في الدكان الذي يقابلك تماماً، أليس كذلك؟ يا لها من جريمة! يا له من حدث مثير حدث أمامك!

بدا واضحاً أن المرأة البدينة سئمت من الحديث عن جريمة القتل، ولا بد أنها عاشت يوماً طويلاً بسببها. قالت: لو أن الفضوليين هؤلاء ينصرفون! أريد أن أعرف: ماذا يوجد هناك لكي ينظروا إليه؟

- لا بد أن الوضع كان مختلفاً جداً الليلة الماضية. من المحتمل أنك لاحظت القاتل وهو يدخل الدكان. رجل طويل أشقر له لحية، أليس كذلك؟ روسي كما سمعت.

رفعت المرأة بصرها وقالت بحدّة: ما هذا؟ هل تقول إن الذي فعلها روسي؟

- لقد فهمت أن الشرطة اعتقلوه.

كانت المرأة مذهولة ومهذارة، قالت: هل كنت تعرف ذلك؟

- نعم، واعتقدت أنك ربما لاحظتِه في الليلة الماضية؟

- حسناً، لم تكن عندي فرصة كبيرة لكي ألاحظ، هذه هي

الحقيقة. إن وقت المساء هو وقت العمل عندنا ودائماً يمر كثير من الناس وهم عائدون إلى بيوتهم بعد انتهاء أعمالهم. رجل طويل أشقر له لحية؟ لا، لا أستطيع القول إنني رأيت أي واحد بهذا الوصف في أي مكان قريب.

تدخلت حسب التعليمات التي أعطيت لي وقلت لبوارو: عفواً يا سيدي، أعتقد أنك سمعت معلومات غير صحيحة، أنا سمعت أنه كان رجلاً قصيراً أسود.

دارت مناقشة مشوقة شاركت فيها المرأة البدينة وزوجها النحيل وصبي يبيع في الدكان ذو صوت أجش. لقد لاحظوا على الأقل أربعة رجال سود قصار القامة، وقد رأى الصبي صاحب الصوت الأجش رجلاً طويلاً أشقر، ولكنه كان بلا لحية (اعترفَ بذلك متأسفاً).

أخيراً اشترينا أغراضنا وغادرنا الدكان دون أن نصحح كذبنا، وسألت بوارو وأنا أوبخه إلى حد ما: وماذا كان المغزى من كل هذا يا بوارو؟

- أردت أن أقدّر فرصة ملاحظة رجل غريب وهو يدخل إلى الدكان المقابل.

- ألم يكن بإمكانك طرح السؤال ببساطة دون كل ذلك الكذب؟

- لا يمكن يا صديقي. لو أنني سألت ببساطة -كما تقول- فلن أحصل على إجابة على أسئلتي على الإطلاق. أنت نفسك إنكليزي، ومع ذلك يبدو أنك لا تقدّر نوعية رد الفعل الإنكليزي على سؤال

مباشر؛ إن النتيجة الطبيعية ستكون الشك والحذر والتحفظ. لو أنني سألت هؤلاء الناس عن معلومات فإنهم سيغلقون أفواههم كما ينغلق المحار، ولكن عن طريق تقديم إفادة غريبة ومنافية للعقل نوعاً ما وعن طريق معارضتك لها فإن الألسنة ستنطلق في الحال. ونحن نعرف أيضاً أن ذلك الوقت بعينه كان وقت عمل، وهذا يعني أن كل واحد كان مشغولاً بعمله وأن عدداً كبيراً من الناس يمشون على الأرصفة. لقد اختار مجرمنا وقته بصورة جيدة يا هيستنغز.

توقف ثم أضاف بنبرة عميقة من التأنيب: أليست لديك أي درجة من التقدير يا هيستنغز؟ لقد طلبت منك أن تشتري أي شيء فاخترت الفراولة! وها قد بدأت تخرق الكيس الورقي وتعرّض بدلتك الجيدة للخطر.

أدركت ببعض الفزع أن هذا هو ما يحصل في الحقيقة، وبسرعة أهديت الفراولة لولد صغير استقبلها بنوع من الارتياب والذهول، ثم أضاف بوارو الخس إلى الفراولة، وهكذا زادت حيرة الطفل أكثر وأكثر.

استمر في محاضرته: في دكان خُضَر رخيص لا تشترِ الفراولة، فهي إذا لم تكن طازجة ستتحول بسرعة إلى عصير. يمكنك شراء الموز والتفاح، حتى الملفوف، نعم، أما الفراولة...

أوضحت له بلهجة اعتذار: كان ذلك أولَ شيء فكرت فيه.

توقف فجأة على الممر الجانبي، وكان البيت والدكان على يمين دكان السيدة آشر خاليَين، وقد ظهرت في النوافذ لوحة كتبت عليها عبارة «للإيجار»، وعلى الجانب الآخر بيت غطت نوافذَه

ستائرُ قطنية قذرة نوعاً ما. إلى هذا البيت ذهب بوارو، ولم يكن بالباب جرس فضرب مطرقة الباب عدة ضربات أنيقة حادة.

بعد بعض التأخير فتح البابَ طفل وسخ جداً مع أنف يحتاج إلى عناية. قال بوارو: مساء الخير. هل أمك في الداخل؟

قال الطفل: نعم؟

حدّق بنا بكراهية وارتياب شديدين، فكرر بوارو: أمك.

أخذ وقتاً من الزمن حتى استوعب ما سمعه، ثم التفت وصاح باتجاه الدرج: "مامي، أنت مطلوبة". ثم تراجع إلى مكان منعزل في الداخل المعتم، فأطلّت من فوق الدرابزين امرأة ذاتُ وجه صارم وبدأت بالنزول وهي تقول: لا فائدة من إضاعة وقتك...

ولكن بوارو قاطعها، رفع قبعته عن رأسه وانحنى لها بصورة رائعة قائلاً: مساء الخير يا مدام. أنا صحفي في جريدة «فليكر» المسائية، وأتمنى أن تقبلي مكافأة مقدارها خمسة جنيهات لتساعدينا في كتابة مقالة عن جارتك الراحلة السيدة آشر.

تجمدت الكلمات الغاضبة على شفتيها، ثم أكملت نزولها عن الدرج وهي تعدّل شعرها وتسوّي تنورتها وقالت: ادخلا من فضلكما إلى اليسار هنا. ألا تجلس يا سيدي؟

كانت الغرفة الضيقة ممتلئة تماماً بطقم أرائك تقليدي من العصر الجيمسي، ولكننا نجحنا في عصر أنفسنا ودخلنا فجلسنا على أريكة ذات مسند صلب.

قالت المرأة: أرجو المعذرة منكما لأنني تكلمت معكما

بحدّة. أنا آسفة جداً، ولكنكما لا تصدقان الإزعاج الذي كان عليّ أن أتحمله... أشخاص يأتون ليبيعوا أشياء مختلفة، مكانس كهربائية وجوارب وحقائب وأمثال هذه الحماقات... وكلهم يتكلمون كلاماً مقبولاً مهذباً في الظاهر، ويعرفون اسمك أيضاً. نعم يا سيدة فاولر، ماذا تريدين يا سيدة فاولر...

التقط بوارو الاسم بذكاء وقال: حسناً يا سيدة فاولر، أرجو أن تساعدينا في مهمتنا.

رفرفت الجنيهات الخمسة أمام عيني السيدة فاولر بصورة مغرية فقالت: لا أعرف، أنا متأكدة... حسناً، لقد عرفت السيدة آشر بالطبع، ولكن فيما يتعلق بكتابة أي شيء...

طمأنها بوارو بسرعة وأوضح لها أنها ليست مطالبة ببذل أي جهد، فهو سيحصل منها على الحقائق ثم سيكتب المقالة بنفسه. وهكذا غرقت السيدة فاولر في استذكار الماضي وتذكر القيل والقال والإشاعات وهي على درجة عالية من الحماسة.

كانت السيدة آشر تُؤْثر العزلة والانفراد ولم تكن ممّن يمكن للمرء أن يصفهم بالودّ والانفتاح، ولكن هذا كان شأنها. كانت المسكينة قد تعرضت للكثير من المتاعب وكان الجميع يعرفون ذلك عنها، وكان يُفترض -لو أخذت العدالة مجراها- أن يكون فرانز آشر خلف القضبان منذ سنين طويلة. وهذا لا يعني أن السيدة آشر كانت تخشاه، فهي يمكن أن تصبح في غاية العنف عندما تُستَفز وترد الصاع صاعين فوراً، ولكن هكذا تجري الأمور أحياناً، فترى الفريسة تسعى إلى ما فيه حتفها! ولقد حذرتها السيدة فاولر

وقالت لها مراراً وتكراراً: إن هذا الرجل سيدمرك ذات يوم، تذكري كلماتي هذه! وقد فعلها أخيراً، أليس كذلك؟

في فترة توقف قصيرة نجح بوارو في طرح سؤال: هل تسلمت السيدة آشر أية رسائل غريبة، رسائل بلا توقيع واضح، مجرد توقيع رمزي كبعض الحروف الهجائية؟

ردت السيدة فاولر على السؤال آسفة بالنفي، قالت: أعرف أي رسائل تقصدها، يسمونها رسائل مُغْفَلة وتكون غالباً مليئة بالكلمات التي يحمرّ منها الوجه خجلاً لو قيلت بصوت مرتفع! حسناً، لا أعرف إذا كان فرانز آشر قد كتب لها مثل هذه الرسائل، ولو أنه فعل فإن السيدة آشر لم تبلغني. ما هذا؟ هل هو دليل القطارات؟ لا، لم أرَ مثل هذا الشيء هنا، وأنا متأكدة أنه لو أُرسل واحد منه إلى السيدة آشر لسمعت بالأمر.

ثم مضت قائلة: أقول لك إنني أصبت بالذهول عندما سمعت بهذا الأمر. لقد كانت ابنتي إيدي هي التي جاءتني وقالت: ماما، عند جيراننا الكثير من رجال الشرطة! وقد أصابني ذلك بصدمة حقيقية بالفعل، وعندما سمعت عن الأمر قلت: حسناً، هذا يُثبت أنها ما كان ينبغي أن تبقى في البيت بمفردها. كان ينبغي لابنة أختها تلك أن تكون معها، فالرجل المخمور يمكن أن يتصرف كذئب مفترس. هذا ما قلته وقتها، وبرأيي فإن الحيوان المفترس ليس أكثر ولا أقل مما هو عليه زوجها الشيطان العجوز. لقد حذرتها مرات عديدة، والآن تحقق كلامي. قلت لها: إنه سيقتلك. وها قد قتلها!

ختمت كلامها بلهاث عميق، فقال بوارو: أعتقد أن أحداً لم

يشاهد هذا الرجل آشر يدخل الدكان، أليس كذلك؟

تكلمت السيدة فولر بازدراء، قالت: من الطبيعي أنه لم يظهر نفسه.

كيف دخل السيد آشر إلى الكشك دون أن يظهر نفسه؟ هذا ما لم تتلطف علينا السيدة فاولر بشرحه. وافقت على عدم وجود طريق خلفي يؤدي إلى البيت وأن السيد آشر كان معروفاً جيداً لأهل المنطقة، ثم قالت: لكنه لم يَمشِ نحوها أمام الناس وأبقى نفسه مختبئاً تماماً.

مدّد بوارو الحديث وقتاً أطول قليلاً، وعندما تأكد أن السيدة فاولر أخبرتنا بكل ما كانت تعرفه (ليس مرة واحدة فقط بل مرات عديدة) عندها أنهى المقابلة بعد أن دفع المبلغ الموعود.

* * *

عندما خرجنا إلى الشارع مرة أخرى تجرأت على القول: إنها لا تستحق الجنيهات الخمسة يا بوارو.

- حتى الآن، نعم.

- هل تعتقد أنها تعرف أكثر من الذي أخبرتنا به؟

- يا صديقي، نحن في وضع غريب لا نعرف فيه ما هي الأسئلة التي يجب أن نسألها. إننا كالأطفال الصغار الذين يلعبون لعبة البحث في الظلام، نمد أيدينا ونتلمس طريقنا. لقد أخبرَتنا السيدة فاولر بكل شيء تعتقد أنها تعرفه، وقد أضافت حدسها بصورة مفرطة، ومع ذلك فإن إفادتها قد تكون مفيدة في المستقبل.

لقد استثمرتُ خمسة جنيهات من أجل المستقبل.

لم أفهم تلك النقطة تماماً، وفي تلك اللحظة وصلنا إلى لقائنا مع المفتش غلن.

* * *

الفصل السابع

السيد بارتردج والسيد ريدل

كان المفتش غلن عابساً بعدما قضى فترة بعد الظهر وهو يحاول الحصول على قائمة كاملة بالأشخاص الذين شوهدوا يدخلون دكان التبغ.

سأله بوارو: ولا أحد يشاهد أي أحد؟

- آه، بلى؛ ثلاثة رجال طوال لهم ملامح ماكرة، وأربعة رجال قصار بشوارب سوداء، اثنان منهم لهما لحية، وثلاثة رجال بدينون غرباء... إذا كنت سأصدق الشهود فإن هؤلاء الناس كلهم لهم ملامح شريرة! تُرى ألم يشاهد أحدٌ عصابةً من الرجال المقنَّعين ومعهم مسدساتهم في القرب من المكان؟!

ابتسم بوارو متعاطفاً وسأله: هل ادّعى أحد أنه شاهد الرجل آشر؟

- لا، وهذه نقطة أخرى في صالحه. لقد أخبرت رئيس الشرطة لتوي بأنني أعتقد أن هذا العمل من اختصاص شرطة سكتلنديارد. لا أعتقد أنها جريمة محلية.

قال بوارو بهدوء: أتفق معك.

قال المفتش: إنه عمل بغيض يا سيد بوارو، عمل بغيض لا أحبه.

* * *

كان أمامنا لقاءان آخران قبل العودة إلى لندن. الأول كان مع السيد جيمس بارترِدْج، وهو آخر شخص شاهد السيدة آشر على قيد الحياة، فقد دخل إلى الكشك واشترى منه شيئاً في الخامسة والنصف.

كان السيد بارتردج ضئيل الجسم يضع نظارة أنفية على عينيه ويعمل كاتباً في مصرف، وبدا متحفظاً دقيقاً في عبارته إلى أبعد حد، وكان يعيش في بيت صغير نظيف أنيق كأناقته. قال وهو ينظر إلى البطاقة التي سلمها صديقي له: السيد بوارو من طرف المفتش غلن؟ ما الذي يمكن أن أفعله من أجلك يا سيد بوارو؟

- لقد عرفت أنك كنت آخر شخص شاهد السيدة آشر على قيد الحياة يا سيد بارتردج.

شبّك السيد بارتردج أطراف أصابعه معاً ونظر إلى بوارو وكأنه شيك مشكوك في رصيده وقال: هذه نقطة قابلة للنقاش يا سيد بوارو، فلا بد أن كثيرين اشتروا من السيدة آشر بعدي.

- إذا كان الأمر كذلك فإنهم لم يدلوا بأقوالهم.

سعل السيد بارتردج قائلاً: بعض الناس ليس عندهم إحساس بالواجب العام يا سيد بوارو.

نظر إلينا من خلال نظارته كأنه بوم، فقال بوارو بصوت

خافت: هذا صحيح. حسناً، لقد فهمت أنك ذهبت إلى الشرطة بمحض اختيارك؟

- لقد فعلت ذلك بالتأكيد، بمجرد أن سمعت بالحادث المأساوي أدركت أن إفادتي قد تساعد، فذهبت لتقديمها.

قال بوارو بوقار: إنها روح المسؤولية الصحيحة، وقد تكون لطيفاً معي وتعيد عليّ سرد قصتك.

- كنت عائداً إلى هذا البيت في الساعة الخامسة والنصف بالضبط...

- عفواً، كيف عرفت الوقت بمثل هذه الدقة؟

بدا السيد بارتردج منزعجاً قليلاً لأنه قوطع، وقال: دقّت ساعة الكنيسة فنظرت إلى ساعتي ولاحظت أنها متأخرة دقيقة واحدة، كان ذلك قبل أن أدخل إلى كشك السيدة آشر مباشرة.

- هل كنت معتاداً على الشراء منها؟

- دائماً، فقد كانت في طريقي إلى البيت.

- هل كنت تعرف السيدة آشر معرفة جيدة، أيّ شيء عن حياتها الماضية مثلاً؟

- لا شيء، لم أتحدث معها قط إلا عن مشترياتي وبعض الملاحظات العرَضية مثل حالة الطقس.

- هل كنت تعرف أن لها زوجاً ثملاً كان معتاداً على تهديدها بالقتل؟

- لا، لم أعرف أي شيء عنها.

- لكنك كنت تعرفها بالشكل، فهل استغربت أي شيء في مظهرها بدا لك غيرَ عادي مساء أمس؟ هل كانت مضطربة أو متضايقة بأي طريقة؟

فكر السيد بارتردج ثم قال: حسب ما لاحظت كانت طبيعية تماماً.

نهض بوارو قائلاً: شكراً لك لإجابتك على هذه الأسئلة سيد بارتردج.

ثم تردد قليلاً وهو يهمّ بالانصراف وقال: هل تحتفظ في بيتك بدليل القطارات الهجائية «أ ب ج»؟ أريد البحث عن موعد قطاري العائد إلى لندن.

قال السيد باتريدج: ها هو على الرف خلفك تماماً.

شاهدت على الرف الذي أشار إليه دليل القطارات الهجائية ودليل برادشو أيضاً ومعهما الكتاب السنوي للبورصة ودليل كيلي وموسوعة الشخصيات الشهيرة. تناول بوارو الدليل وتظاهر أنه يبحث عن قطار، ثم شكر السيد بارتردج وغادرنا المكان.

* * *

كان لقاؤنا الثاني مع السيد ألبرت ريدل، وهو شخص مختلف عن الأول تماماً. كان يعمل في إصلاح خطوط السكة الحديدية، وقد ترافق لقاؤنا به مع قعقعة الأطباق والصحون التي كانت زوجته تضعها على المائدة، وبدا لي أنها امرأة عصبية، بالإضافة إلى نباح

كلب السيد ريدل والعداء الظاهر من السيد ريدل نفسه.

كان رجلاً عملاقاً أخرق بوجه عريض وعيون صغيرة شكاكة، وكان يأكل فطيرة لحم ويشرب الشاي الثقيل، وقد نظر إلينا بغضب من فوق حافة كوبه قائلاً: لقد قلت كل ما عندي، وعلى كل حال فما علاقتي أنا بالحادثة؟ لقد قدمت إفادتي كاملة للشرطة القذرة والآن عليّ إعادتها لاثنين من الأجانب؟

نظر بوارو إليّ نظرة سريعة مبتسمة ثم قال: في الحقيقة أنا أتعاطف معك تماماً يا سيد ريدل، ولكن ماذا تفعل؟ إنها جريمة قتل وعلى المرء أن يكون حريصاً جداً جداً.

قالت المرأة بعصبية: من الأفضل أن تخبر الرجل بالذي يريده يا بيرت.

جأر العملاق قائلاً: أنت أغلقي فمك القذر!

- أظن أنك لم تذهب إلى الشرطة بمحض إرادتك؟

مرّر بوارو تلك الملاحظة ببراعة، فقال الرجل: ولماذا أفعل؟ إنها لم تكن من شأني.

قال بوارو دون اكتراث: إنها مسألة رأي. لقد وقعت جريمة قتل والشرطة تريد أن تعرف من كان في الدكان. أنا شخصياً أعتقد أنها كنت ستبدو... كيف أقولها؟ كانت ستبدو طبيعية أكثر لو أنك جئت بنفسك.

- لديّ عمل أعمله. أم تظن أنه كان عليّ الذهاب إليهم في وقتي الخاص؟

- ولكن الذي حصل هو أن اسمك قُدِّم للشرطة باعتبارك آخر مَن شوهد وهو يدخل كشك السيدة آشر، وكان عليهم أن يأتوا إليك. هل كانوا راضين عن إفادتك؟

سأل بيرت بوحشية: ولماذا لا يرضون؟

رفع بوارو كتفيه استهجاناً فقط، فقال الرجل: ما الذي تريد الوصول إليه يا سيد؟ لا أحد يملك أي شيء ضدي. كل الناس يعرفون مَن الذي قتل العجوز، إنه زوجها.

- ولكنه لم يكن في الشارع ذلك المساء وأنت كنت فيه.

- أنت تحاول إلصاقها بي، أليس كذلك؟ حسناً، لن تنجح. ما هو السبب الذي يدعوني لفعل مثل هذا الشيء؟ أتعتقد أنني أردت سرقة علبة من تبغها اللعين؟ هل تعتقد بأنني مجنون مهووس بالقتل كما يقولون؟ هل تعتقد بأنني...

نهض من مقعده وهو يهدد، فتكلمت زوجته بحماقة: بيرت، لا تقل مثل هذه الأشياء فإنهم سيظنون...

قال بوارو: اهدأ يا سيد بيرت. كل ما أريده منك هو إفادتك عن زيارتك للدكان، ولو رفضت أن تخبرني فسوف يبدو موقفك غريباً بعض الشيء.

غطس السيد ريدل في مقعده مرة أخرى قائلاً: من قال إنني رفضت أي شيء؟ أنا لا أبالي.

- هل كانت الساعة السادسة عندما دخلت الدكان؟

- نعم، أو دقائق قليلة بعدها. أردت علبة تبغ غولد فليك فدفعت الباب...

- إذن فقد كان الباب مغلقاً؟

- هذا صحيح. ظننت أن الدكان مُقفل ولكنه لم يكن كذلك. دخلت ولم يكن في الداخل أحد، فضربت بيدي على المنضدة وانتظرت قليلاً فلم يأتِ أحد، فخرجت من المكان. هذا كل شيء.

- ألم تلاحظ الجثة خلف المنضدة؟

- لم يكن بوسعك أن تشاهدها ما لم تبحث عنها.

- هل رأيت دليل القطارت مُلقَى في المكان؟

- نعم، كان هناك مقلوباً، وقد خطر في بالي أن المرأة العجوز ربما سافرت فجأة بالقطار ونسيت أن تقفل باب دكانها بالمفتاح.

- ربما قلّبتَ أوراق الدليل أو حركتَه فوق المنضدة؟

- لم ألمس ذلك الشيء، فعلت فقط ما أخبرتك به.

- ألم تشاهد أي أحد يغادر الكشك قبل أن تدخل أنت إليه.

- لم أرَ شيئاً. لماذا اخترتموني...

نهض بوارو قائلاً: حتى الآن لم يفكر أحد باختيارك. وداعاً يا سيد.

ترك الرجل بفم مفتوح وخرج إلى الشارع، وهناك نظر إلى

ساعته وقال: بسرعة يا صديقي! قد ننجح في اللحاق بقطار السابعة ودقيقتين، هيّا نسرع.

* * *

الفصل الثامن

الرسالة الثانية

سألته بلفهة: حسناً؟

كنا جالسَين في عربة الدرجة الأولى بالقطار السريع الذي تحرك لتوّه من أندوفر، وقال بوارو: الذي ارتكب الجريمة رجل متوسط الطول شعره أحمر وفي عينه اليسرى حول، وهو يعرج قليلاً بقدمه اليمنى وتحت كتفه شامة.

صحت بذهول: بوارو؟!

بقيت مذهولاً لبعض الوقت ثم انتبهت للبريق الذي رأيته في عينَي صديقي فقلت بتأنيب: بوارو!

- يا صديقي، ماذا أفعل؟ أنت تطلب مني الرأي على طريقة شيرلوك هولمز! وأنا في الحقيقة لا أعرف شكل القاتل ولا أين يعيش ولا كيف يمكن أن نصل إليه.

همست: لو أنه فقط ترك أثراً أو دليلاً ما!

- نعم، الأثر! إن الذي يجذبك دائماً هو الأثر، وهو للأسف لم يدخن ويترك الرماد على الأرض ولا انتعل حذاء ذا مسامير من النوع الذي يثير الفضول... إنه ليس بمثل هذا الكرم يا صديقي.

ولكن لدينا على الأقل دليل القطارات، وهو مفتاح جيد في يدنا.

- فهل تظن أنه تركه عن طريق الخطأ؟

- بالطبع لا؛ لقد تركه عن قصد، البصمات تخبرنا بذلك.

- ولكن لم تكن عليه أي بصمات.

- هذا ما أقصده. كيف كان مساء الأمس؟ ليلة حزيرانية دافئة، فهل يخرج رجل ليتمشى وهو يضع في يديه قفازات في مثل هذا المساء؟ لو فعل فسوف يلفت الانتباه إليه بالتأكيد. لذلك وحيث إن الدليل لا بصمات أصابع عليه فلا بد أنها أزيلت بعناية. البريء يترك بصمات أما المذنب فلا يتركها عادة، لذلك أقول إن قاتلنا ترك الدليل هناك عن قصد، وهو مفتاحنا الوحيد لحل اللغز حالياً. شخص ما اشترى ذلك الدليل وحمله وتركه هناك، هنا يوجد أملنا.

- هل تعتقد أننا سنعرف شيئاً من هذا الطريق؟

- بصراحة أنا لست متفائلاً يا هيستنغز، لست متفائلاً على نحو خاص، فمن الواضح أن هذا الرجل المجهول يتباهى بقدراته، ومن غير المحتمَل أن يترك أثراً يمكن تعقّبه بسهولة.

- إذن فإن الدليل لن يساعدنا على الإطلاق؟

- ليس بالمعنى الذي تقصد.

- وهل تفكر بأي معنى آخر؟

لم يُجب بوارو في الحال، ثم قال ببطء: الإجابة هي «نعم».

هنا يواجهنا شخص غير معروف، إنه في الظلام ويسعى لكي يبقى فيه، ولكنه لا يستطيع الامتناع عن إلقاء بعض الضوء على نفسه. نحن لا نعرف شيئاً عنه من ناحية، ومن ناحية أخرى نعرف الكثير. شخص يطبع بطريقة واضحة جيدة، ويشتري ورقاً من نوعية جيدة، وهو يحتاج كثيراً للتعبير عن شخصيته. إنني أراه كطفل عانى من التجاهل والحرمان، وأراه يكبر وفي داخله إحساس بالنقص والدونيّة فيصارع الشعور بالظلم. أرى أن ذلك الحافز الداخلي يدفعه إلى فرض نفسه، إلى تركيز الانتباه على نفسه وهو يكبر أكثر فأكثر، وتأتي الحوادث والظروف لتسحق هذا النزوع مُراكمةً بذلك مزيداً من المهانة والإذلال على عاتقه، وفي هذا الأتون الداخلي يمتد عود الثقاب...

عارضته قائلاً: هذا كله مجرد حدس، إنه لا يعطيك أي مساعدة عملية.

- أنت تفضل العثور على عود ثقاب محترق أو رماد التبغ أو الأحذية ذات المسامير! لماذا لا تسأل نفسك سؤالاً عملياً: لماذا دليل القطارات الأبجدي؟ لماذا السيدة آشر؟ لماذا أندوفر؟

قلت متأملاً: يبدو أن ماضي المرأة بسيط تماماً. المقابلتان مع هذين الرجلين كانت مخيبة للآمال، فهما لم يخبرانا بأي شيء سوى ما كنّا نعرفه من قبل.

- أعترف بأنني لم أتوقع منهما الكثير، ولكننا لا نستطيع تجاهل مرشَّحين محتمَلين لارتكاب جريمة القتل.

- بالتأكيد أنت لا تعتقد...

- يوجد على الأقل احتمال بأن القاتل يعيش في أندوفر أو بالقرب منها. هذه إجابة ممكنة على سؤالنا: لماذا أندوفر؟ حسناً، كان هنا رجلان معروفان بأنهما كانا في الدكان في ذلك الوقت المحدد من اليوم، وأي واحد منهما قد يكون القاتل، فلا شيء حتى الآن يوضح أن واحداً منهما ليس هو القاتل.

قلت معترفاً: ربما يكون هو ريدل، ذلك الوحش الضخم.

- أنا أميل إلى تبرئة ريدل. لقد كان عصبياً ويتوعد، ومن الواضح أنه خائف.

- وهذا يوضّح...

- إن طبيعته تخالف تماماً طبيعة كاتب الرسالة، فالرجل الذي نبحث عنه له صفات الغرور والثقة بالنفس.

- هل هو شخص يحاول لفت الأنظار إليه؟

- هذا محتمَل، ولكن بعض الناس يُخْفون تحت عصبيتهم وبعدهم عن الأضواء قدراً كبيراً من الغرور والرضا عن الذات.

- أي أنك تشك في السيد بارتردج؟

- إنه أكثر احتمالاً، لا يستطيع المرء أن يقول أكثر من ذلك. إنه يعمل كما يعمل كاتب الرسالة، يذهب إلى الشرطة على الفور ويدفع نفسه إلى المقدمة مستمتعاً بعمله.

- هل تعتقد...

- لا يا هيستنغز؛ أنا أعتقد شخصياً أن القاتل جاء من خارج أندوفر. وعلى الرغم من أنني أعبّر عنه بصيغة المذكر طَوال الوقت

فيجب أن نُبقي في أذهاننا احتمال أن يكون الفاعل امرأة.

- بالتأكيد.

- أنا أوافق على أن أسلوب الهجوم هو أسلوب رجل، ولكن الرسائل المجهولة تكتبها نساء أكثر من الرجال. يجب أن نضع ذلك في أذهاننا.

سكتُّ لبضع دقائق ثم سألته: ماذا سنفعل الآن؟

قال بوارو وهو يبتسم في وجهي: أيها النشيط هيستنغز!

- حسناً، ولكن ماذا سنفعل؟

- لا شيء.

ظهرت خيبة أملي بوضوح وأنا أردد: لا شيء؟!

- هل أنا ساحر أو مشعوذ؟ ماذا تريدني أن أفعل؟

بعدما قلّبت المسألة في رأسي لم أصل لأي إجابة، ومع ذلك شعرت بضرورة عمل شيء ما، أي شيء، فلا ينبغي أن نسمح للفرصة بأن تفلت من أيدينا.

قلت: لنبدأ من دليل القطارات وورقة الملاحظات والظرف.

- من الطبيعي أن كل ما يمكن عمله في هذا الاتجاه قد عُمل، فالشرطة يملكون الإمكانات والوسائل، ولو كان في الأمر أي شيء يمكن اكتشافه في هذا السياق فسوف يكتشفونه.

* * *

في الأيام التالية وجدت بوارو غيرَ راغب في مناقشة القضية بصورة تدعو إلى الاستغراب، وعندما حاولت إعادة فتح الموضوع أشار بيده لطرحه جانباً. شعرت في قرارة نفسي أنني فهمت سبب ذلك السلوك، فقد تسبب مقتل السيدة آشر في شعور بوارو بالهزيمة. لقد تحدّاه «القاتل الأبجدي» وانتصر عليه! وقد كان صديقي الذي أَلِفَ النجاح الدائم حسّاساً تجاه فشله بالقدر الذي لم يستطع معه حتى تحمّل مناقشة الموضوع. ربما كانت هذه علامة على ضيق أفق هذا الرجل العظيم، ولكنْ حتى أكثرُنا واقعيةً قد يصاب بالغرور بسبب النجاح!

بعد أن فهمت الأمر بهذه الطريقة احترمت ضعف صديقي وتجنبت الإشارة إلى القضية. قرأت في الصحيفة وقائع التحقيق، وكانت مختصرة جداً. لم يُذكر شيء عن الرسالة، وسُجِّلت جريمة القتل ضد شخص مجهول أو أشخاص مجهولين. وقد لفتت الجريمة انتباهاً محدوداً عندما نشرتها الصحف، فلم يكن فيها ما يثير الجمهور. وما لبثت حادثة قتل المرأة العجوز في شارع جانبي أن اختفت من الصحف تاركة المساحة لموضوعات أكثر إثارة. وفي الحقيقة أخذت تلك الجريمة تبتعد عن ذهني أنا أيضاً لأنني كرهت التفكير في ارتباط بوارو بالفشل بأي حال، وكان ذلك هو الحال عندما عادت القضية إلى الحياة فجأة يوم ٢٥ تموز.

لم أكن قد التقيت ببوارو منذ يومين لأنني كنت في يوركشاير لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وصلت عائداً بعد ظهر الإثنين، وجاءت الرسالة في بريد السادسة، وما زلت أتذكر الزفير المفاجئ الحاد الذي زفره بوارو عندما فتح ظرف الرسالة.

قال: لقد وصلت!

حدقت إليه وأنا عاجز عن إدراك ما يعني، وسألت: ما الذي وصل؟

- الفصل الثاني من أعمال «أ ب ج».

نظرت إليه غيرَ مستوعب لفترة وجيزة، وفي الحقيقة فقد طارت هذه المسألة من ذاكرتي.

قال بوارو وهو يسلمني الرسالة: اقرأ.

كانت مطبوعة على ورق فاخر كالرسالة السابقة، وفيها:

عزيزي السيد بوارو،

ما رأيك؟ لقد كسبتُ اللعبة الأولى، ولكن جريمة أندوفر نُسِيَت بسرعة، أليس كذلك؟ على أن التسلية قد بدأت لتوّها.

دعني ألفت انتباهك إلى بكسهيل على البحر. التاريخ ٢٥ من الشهر. يا له من وقت مرح سنعيشه!

صديقك «أ ب ج»

صحت قائلاً: يا إلهي! هل هذا يعني أن الرجل سيحاول ارتكاب جريمة أخرى يا بوارو؟

- طبعاً يا هيستنغز. وماذا تتوقع غير ذلك؟ هل ظننت أن جريمة أندوفر كانت قضية معزولة؟ ألا تتذكر قولي: هذه هي البداية؟

- ولكن هذا مرعب!

- نعم، هو كذلك.

- إننا نواجه مجنوناً مهووساً بالقتل!

- نعم.

كان هدوء بوارو أكثرَ تأثيراً من عباراته الطنانة، وأعدت إليه الرسالة وأنا ارتعد.

* * *

صباح اليوم التالي عُقد مؤتمر مصغَّر ضم مساعد مفوّض إدارة المباحث الجنائية والمفتش غلن من أندوفر، ورئيس شرطة سسيكس، والمفتش كارتر من شرطة سسيكس، وشارك فيه أيضاً صديقنا جاب، ومفتش شاب اسمه كروم، والدكتور ثومبسون، طبيب الأمراض العقلية المشهور.

اجتمع هؤلاء كلهم معاً. كان ختم البريد على هذه الرسالة من هامبستد، ولكن بوارو لم يَرَ أي أهمية تتصل بهذه الحقيقة. وقد نوقشت المسألة بإسهاب، وكان الدكتور ثومبسون رجلاً مرحاً في متوسط العمر يتكلم بلغة مبسطة خالية من الاصطلاحات الفنية الخاصة بمهنته، على الرغم من ثقافته الرفيعة.

قال مساعد المفوض: لا شك أن الرسالتين طُبعتا بالآلة نفسها وأن مَن طبعهما شخص واحد.

علّق الطبيب قائلاً: ونستطيع أن نفترض أن ذلك الشخص مسؤول عن جريمة القتل التي وقعت في أندوفر.

- تماماً. لدينا الآن تحذير مؤكد بجريمة ثانية قد تقع في

بيكسهل في الخامس والعشرين من الشهر، أي بعد غد. ما هي الخطوات التي يمكن اتخاذها؟

نظر رئيس شرطة سسيكس إلى المفتش كارتر وقال: حسناً يا كارتر، ماذا تقول؟

هزّ كارتر رأسه بوقار وقال: إنها مسألة صعبة يا سيدي، ليس لدينا أي دليل يدلنا على الضحية.

- لنتحدث بصراحة، ما هي الخطوات التي يمكننا اتخاذها؟

قال بوارو: عندي رأي.

التفتت الوجوه ناحيته، فقال: أعتقد أن اسم عائلة الضحية المتوقَّعة يبدأ بحرف الباء.

قال المفتش كارتر بارتياب: هذا لن يفيد بشيء.

قال الدكتور ثومبسون متفكراً: إنها عقدة الحروف الهجائية!

بوارو: لقد رأيت ذلك احتمالاً ليس أكثر. خطرت الفكرة ببالي عندما رأيت اسم آشر مكتوباً بوضوح فوق باب دكان المرأة التي قُتلت الشهر الماضي، وعندما استلمت الرسالة الجديدة ووجدت أنها تحدّد بكسهيل خطر لي أن الضحية تُختار هي وموقع الجريمة حسب ترتيب الحروف الأبجدية.

قال الطبيب: هذا ممكن، ومن ناحية أخرى قد يكون اسم آشر مصادفة وأن الضحية هذه المرة، أيّاً كان اسمها، ستكون مرة أخرى عجوزاً لها دكان صغير. تذكر أننا نتعامل مع رجل مجنون،

وحتى الآن لم يقدم لنا أي مفتاح يشير إلى الدافع.

سأل كارتر متشككاً: وهل للمجنون أي دافع يا سيدي؟

- بالطبع له دافع. إن المنطق المتطرف هو أحد الصفات الخاصة للجنون الحاد، وقد يعتقد المصاب به أن الله اختاره لقتل رجال الدين أو الأطباء أو النساء العجائز في دكاكين التبغ... يوجد دائماً سبب طبي يمكنه تفسير مثل هذه الحالات، وينبغي أن لا نسمح لموضوع الحروف الهجائية أن يستحوذ على تفكيرنا. قد تكون بكسهيل بعد أندوفر مجرد مصادفة.

- على الأقل نستطيع أن نتخذ احتياطات معينة ونُعدّ قائمة خاصة بأصحاب حرف الباء، ولا سيما أصحاب الدكاكين الصغيرة، ونستمر بمراقبة بائعي التبغ والصحف الصغار. لا أظن أننا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك. ومن الطبيعي أن نراقب جميع الغرباء قدر الإمكان.

همهم كارتر مستنكراً: مع انتهاء الفصل الدراسي وبداية العطل؟ إن الناس سيتدفقون على المكان هذا الأسبوع.

قال رئيس الشرطة بحدّة: يجب أن نفعل ما نستطيعه.

تكلم المفتش غلن بدوره: أيضاً سنستمر بمراقبة أي شخص له علاقة بجريمة آشر، مثلاً الشاهدان بارتردج وريدل، وبالطبع آشر نفسه، ولو غادروا أندوفر فسوف نتعقبهم.

بعد عرض بعض الآراء الأخرى انتهى اللقاء.

* * *

بينما كنّا نسير بحذاء النهر قلت لبوارو: هل يمكن منع حدوث هذه الجريمة؟

- أنا خائف يا هيستنغز، خائف كثيراً. تذكّرْ النجاح المستمر الطويل لجاك القاتل.

قلت: إنه مرعب

إن الجنون مخيف يا هيستنغز. أنا خائف جداً.

* * *

الفصل التاسع

جريمة بكسهيل

ما زلت أتذكر استيقاظي صباح الخامس والعشرين من تموز (يوليو). كان الوقت بحدود الساعة السابعة والنصف صباحاً، وقد وقف بوارو بجانبي وهو يهزّني من كتفي بلطف، وبنظرة واحدة إلى وجهه انتقلت من حالة شبه الوعي إلى الوعي الكامل.

سألته وأنا أجلس على السرير بسرعة: ماذا هناك.

جاء جوابه بسيطاً تماماً ولكنه مفعم بانفعالات جياشة: لقد وقعت.

صحت: ماذا؟ تقصد... ولكن اليوم هو الخامس والعشرون.

- لقد حدثت الجريمة في الليلة الماضية، أو بالأحرى في ساعات الصباح الأولى من هذا اليوم.

قفزت من سريري وأعاد عليّ باختصار سرد الوقائع التي وصلته بالهاتف: عُثر على جثة فتاة شابة على الشاطئ في بكسهيل، وتم التعرف عليها واسمها إلزابيث برنارد، وهي تعمل نادلة في أحد المقاهي، وكانت تعيش مع والديها في بيت صغير، وقد حدد التقرير الطبي الوفاة بين الساعة الحادية عشرة والنصف مساء

والواحدة بعد منتصف الليل.

سألته وأنا أضع رغوة الصابون على ذقني: هل هم متأكدون أن هذه هي الجريمة المقصودة؟

- وجدوا تحت الجثة دليل القطارات مفتوحاً على صفحة القطارات المغادرة إلى بكسهيل.

ارتعشت وهتفت: يا إلهي! هذا مرعب.

- احترس يا هيستنغز، لا أريد مأساة ثانية في شقتي!

مسحت الدم عن ذقني وأنا مكتئب ثم سألته: ما هي خطتنا في العمل؟

- ستصل السيارة بعد بضع دقائق، وسأحضّر لك فنجان قهوة حتى لا نتأخر في الانطلاق.

* * *

بعد عشرين دقيقة كنّا نعبر نهر التيمز خارجين من لندن في سيارة شرطة سريعة. كان معنا المفتش كروم الذي شارك في مؤتمرنا الصغير بالأمس، وكان مسؤولاً عن القضية بصفة رسمية. كان مختلفاً تماماً عن جاب؛ أصغر سناً بكثير ومن النوع المثقف الصَّموت الواثق بنفسه بدرجة مفرطة، وقد اكتسب مؤخراً شهرة واسعة بسبب كشفه سلسلة من جرائم قتل الأطفال بعد أن تعقب المجرم بصبر. كان من الواضح أنه الشخص المناسب لتولي القضية الحالية، ولكني شعرت أنه يعاني من نقص في معرفة الحقائق،

وكان أسلوبه مع بوارو هو أسلوب تسامح الشاب الذكي القوي مع المسنّ المسكين الضعيف!

قال: لقد تحدثت طويلاً مع الدكتور ثومبسون، وهو مهتم جداً بجرائم القتل المتسلسلة لأنها نتاج نوع مشوّه من العقل، أما أنا وكشخص عادي فلا أستطيع أن أفهم تماماً وجهة النظر الطبية. في قضيتي الأخيرة... لا أدري إنْ كنت قد قرأتَ عنها؟ قضية مابل هومر، تلميذة مدرسة مَسْويل هيل. كان ذلك الرجل، كابر، غير عادي وكان ربطه بالجريمة أمراً شديد الصعوبة، رغم أنها كانت جريمته الثالثة! بدا سليم العقل تماماً مثلي ومثلك، ولكن بالطبع لا بد أن الأطباء لهم أساليبهم الحديثة، مصائد كلامية وأشياء من هذا القبيل. يدفعون الرجل لفضح نفسه عندما يُشعرونه أنهم كشفوه، فيسترخي ويبدأ بفضح نفسه بنفسه وتقديم كل التفاصيل!

قال بوارو بوقار: حتى في أيامي كان هذا يحدث أحياناً.

نظر المفتش كروم إليه وقال بدهشة: آه، صحيح؟!

ساد الصمت بيننا فترة من الزمن، وعندما عبرنا محطة نيو كروس قال كروم: إذا كان في ذهنك أي شيء تودّ سؤالي عنه في هذه القضية فأرجوك أن تسأل.

- أفترضُ أن عندك وصفاً للفتاة القتيلة؟

- كانت في الثالثة والعشرين من عمرها وتعمل نادلة في مقهى جينغر كات.

- لم أقصد هذه الناحية. تساءلت إن كانت جميلة مثلاً؟

قال المفتش كروم: بالنسبة لهذه الناحية لا أملك أي معلومات.

صمَتنا مرة أخرى إلى أن اقتربنا من سيفنوكس، وعندها فتح بوارو الحديث مرة أخرى. سأله عن طريقة القتل، فأجاب المفتش كروم باختصار: لقد شُنقت بحزامها، وكان من نوع متين على ما أعتقد.

فتح بوارو عينيه واسعاً وقال: آه، أخيراً لدينا معلومة قطعية. هذا يعني شيئاً ما، أليس كذلك؟

قال المفتش كروم ببرود: لا أدري.

شعرت بعدم الصبر من حذر الرجل وحاجته إلى الحنكة، فقلت: إنها تعطينا الصفة المميزة للقاتل. حزام الفتاة نفسها؟ هذا يظهر وحشية تفكيره!

نظر بوارو إليّ نظرة لم أستطع فهمها جيداً، وإن كان ظاهرها يدل على نفاد صبره، واعتقدت أنها ربما تكون تحذيراً لي لكيلا أتحدث كثيراً أمام المفتش فعدت إلى الصمت.

* * *

استقبلَنا المفتش كارتر في بكسهيل، وكان معه مساعد شاب ذو وجه جميل ونظرة ذكية اسمه كيلسي، وقد كُلف بالعمل مع كروم في هذه القضية.

قال كارتر: لعلك تريد أن تقوم بالتحقيق بنفسك يا سيد كروم، لذلك سأكتفي بإعطائك الخطوط العريضة ثم تباشر عملك بعدها.

شكره كروم، وقال كارتر: لقد أخبَرْنا والدَي الفتاة فأصيبا بصدمة هائلة، لذلك تركتهما حتى يتعافيا قليلاً من الصدمة قبل أن أسمع أقوالهما. يمكنك أن تبدأ عملك بمقابلتهما.

قال بوارو: في العائلة أفراد آخرون، أليس كذلك؟

- بلى، لها أخت تعمل طابعةً في لندن، وقد اتصلنا بها، وهناك شاب كان من المفترَض أن ترافقه الفتاة الليلة الماضية.

سأله كروم: وهل وجدتم أي عون في دليل القطارات الأبجدي؟

أومأ المراقب برأسه باتجاه الطاولة قائلاً: ها هو هناك. لم نجد أي بصمات أصابع عليه، وقد كان مفتوحاً على صفحة بكسهيل. إنها نسخة جديدة ولا يبدو أنها فُتحت كثيراً، وهي لم تُشتَرَ من أي مكان هنا، لقد سألت كل المكتبات التي تبيع هذا النوع من الكتب في المنطقة.

- من الذي اكتشف الجثة؟

- واحد من العسكريين المتقاعدين الذين يخرجون في الصباح الباكر لاستنشاق الهواء النقي، الكولونيل جيروم. خرج مع كلبه في السادسة صباحاً ومشى باتجاه كودين ثم نزل إلى الشاطئ، فانطلق الكلب وقد شمّ رائحة غريبة. ناداه الكولونيل ولكنه لم يستجب، وعندما نظر الكولونيل لاحظ وجود جسم غريب، فذهب واستكشف المكان. لقد تصرف بطريقة سليمة جداً، لم يلمس الجثة على الإطلاق واتصل بنا في الحال.

- وكان وقت الوفاة قريباً من منتصف الليلة الماضية، أليس كذلك؟

- بين منتصف الليل والساعة الواحدة صباحاً، هذا أكثر تحديداً. إن المجرم رجل يحترم كلمته، وإذا قال إن الجريمة ستقع في الخامس والعشرين فإنه سيكون يوم الخامس والعشرين، رغم أنها قد تكون مجرد بضع دقائق فقط قد مضت من اليوم الجديد.

أومأ كروم برأسه قائلاً: نعم، وهذا يعني أن عقله على ما يرام. ألا يوجد شيء آخر؟ هل رأى أي شخص شيئاً قد يساعدنا؟

- حسب علمنا لا، ولكن الوقت ما يزال مبكراً. كل من شاهد فتاة ترتدي لباساً أبيض وتمشي بصحبة رجل في الليلة الماضية سيُستدعى ليخبرنا بما رآه، وكما أتصور فقد كانت على الشاطئ في الليلة الماضية مئاتُ الفتيات اللاتي يرتدين البياض ويمشين مع شباب!

قال كروم: حسناً، لدينا المقهى وبيت الفتاة، سأذهب إليهما أولاً، ويمكن لكيلسي أن يأتي معي.

- وماذا عن السيد بوارو؟

قال بوارو وهو ينحني لكروم انحناءة صغيرة: سأرافقك.

توهمت أن كروم انزعج قليلاً، أما كيلسي الذي لم يَرَ بوارو من قبل فقد ابتسم ابتسامة عريضة. كان من سوء حظ بوارو دائماً أن الناس الذين يقابلونه للمرة الأولى لا يدركون أنه من صفوة المحققين وأكثرهم براعة.

سأل كروم: ماذا عن الحزام الذي خُنقت به الفتاة؟ السيد بوارو يعتقد أن له قيمة في التحقيق وأظن أنه يريد رؤيته.

قال بوارو بسرعة: أبداً، لقد أسأت فهمي.

قال كارتر: لن تحصل على شيء منه فهو ليس من جلد، ولو كان كذلك لتوقعنا أن نعثر على بصمات أصابع عليه. إنه مجرد نوع سميك من الحرير المجدول، وهو مثالي من أجل هذا الغرض!

شعرت برعشة تسري في بدني، وقال كروم: حسناً، من الأفضل أن نذهب.

انطلقنا على الفور. وكانت زيارتنا الأولى لمقهى جينغر كات الذي كان يواجه البحر، وكان من النوع العادي من المقاهي، فيه طاولات مغطاة بأقمشة برتقالية اللون وكراسي غير مريحة من القش وقد غطيت ببطانة برتقالية اللون، وكان المقهى يقدم قهوة الصباح وخمسة أنواع مختلفة من الشاي ووجبات غداء خفيفة تتكون من البيض المقلي والربيان والمعكرونة.

أرشدتنا صاحبة المقهى إلى حجرة غير مرتبة في الخلف، وسألها كروم: الآنسة ميريون؟

تكلمت الآنسة ميريون بصوت مرتفع مكروب: نعم، هذا هو اسمي. إنها جريمة بغيضة محزنة... لا بد أن تؤثر على المقهى تأثيراً سلبياً.

كانت الآنسة ميريون امرأة نحيلة ذات شعر برتقالي خفيف في الأربعين من عمرها تقريباً، وكانت تعبث بعصبية بأهداب شالها

الذي كان جزءاً من لباسها الرسمي.

قال المفتش كيلسي مشجّعاً: سوف تزدهر أعمالك ويتقاطر عليك الزبائن حتى تعجزي عن توفير الشاي لهم جميعاً!

لمعت عينا الآنسة ميريون وهي تفكّر بالزبائن والمبيعات، ولكنها علّقت قائلة: إنه عمل مثير للاشمئزاز ويجعل المرء يائساً من البشر.

- ماذا يمكنك أن تخبريني عن الفتاة يا آنسة ميريون؟

قالت الآنسة ميريون بتأكيد: لا شيء.

- كم مضى عليها وهي تعمل هنا؟

- كان هذا هو الصيف الثاني لها هنا.

- هل كنت راضية عنها؟

- كانت نادلة جيدة، سريعة ولطيفة.

سألها بوارو: كانت جميلة، أليس كذلك؟

نظرت الآنسة ميريون إليه نظرة ازدراء كأنها تقول فيها: "هؤلاء الأجانب"! ثم قالت بطريقة غير ودّية: كانت فتاة جميلة ولطيفة.

سألها كروم: متى انتهى عملها الليلة الماضية؟

- في الساعة الثامنة. نحن نغلق المقهى في الثامنة ولا نقدم وجبات العشاء، فلا يوجد طلب عليها حالياً. إننا نقدم فقط البيض المقلي مع الشاي (ارتجف بوارو عندما سمع وصف الوجبة

الافتراضية في المقهى) حيث يأتي الناس لتناولها حتى السابعة، لكن الطلب يخفّ عموماً بعد السادسة والنصف.

- هل ذكرت لك كيف كانت ستقضي أمسيتها؟

قالت الآنسة ميريون مؤكدة: بالتأكيد لا، فلم تصل علاقتنا لهذه الدرجة.

- هل جاء أحد ليتحدث معها؟ أو أي شيء من هذا القبيل؟

- لا

- هل كانت طبيعية كالمعتاد؟ هل كانت مكتئبة مثلاً؟

قالت الآنسة ميريون بتحفظ: في الحقيقة لا أستطيع قول ذلك.

- كم نادلة تستخدمين؟

- في العادة اثنتين، واثنتين إضافيتين في موسم العطلة بين آخر تموز (يوليو) وآخر آب (أغسطس).

- ولكن إلزابيث برنارد لم تكن واحدة من الإضافيتين؟

- نعم، كانت الآنسة برنارد واحدة من المتفرغتين للعمل معنا.

- ماذا عن الأخرى؟

- الآنسة هِغْلي؟ إنها شابة لطيفة جداً.

- هل كانت هي والآنسة برنارد صديقتين؟

- في الحقيقة لا أستطيع قول ذلك.

- ربما كان من الأفضل أن نتكلم معها.

- الآن؟

- لو سمحت.

قالت الآنسة ميريون وهي تنهض: سأرسلها إليكم، لكن أرجوكم لا تؤخّروها لأن هذه هي ساعة الذروة بالنسبة لقهوة الصباح.

غادرت الآنسة ميريون الحجرة، ولاحظها المفتش كلسي قائلاً: إنها مهذبة جداً. ثم قلّد نبرة صوت المرأة الرقيق وهو يقول: "في الحقيقة لا أستطيع قول ذلك".

دخلت الحجرةَ فتاةٌ ممتلئة الجسم تلهث قليلاً، بشعرها الأسود وخدَّيها المتورّدين وعينيها السوداوين وهي تحملق بذهول. قالت لاهثة: لقد أرسلتني الآنسة ميريون.

- آنسة هِغْلي؟

- نعم، هذه أنا.

- هل كنت تعرفين إلزابيث برنارد؟

- آه، نعم، لقد عرفتُ بِتي. أليس مروّعاً ما حدث؟ إنه عمل مروع تماماً! لا أستطيع أن أصدق أنه حقيقي. لقد كنت أقول للفتيات هذا الصباح أنني لا أصدق ما حدث! قلت لهن: هل تعرفن أيتها الفتيات؟ إنه لا يبدو حقيقياً. بتي اللطيفة قُتلت؟! لا أصدق ذلك. لقد قرصتُ نفسي خمس مرات لكي أتأكد أنني مستيقظة.

بتي قُتلت... إنه... حسناً، أنت تعرف ما أقصد، إنه لا يبدو حقيقياً.

سألها كروم: هل كنت تعرفين الفتاة جيداً؟

- حسناً، لقد عملَت هنا فترة أطول مما عملت، فأنا جئت في شهر آذار (مارس) الماضي فقط، أما هي فقد كانت هنا العام الماضي. لقد كانت هادئة، ليست من النوع الذي يمزح ويضحك كثيراً. لا أقصد أنها كانت هادئة بالضبط بل كانت تحب اللهو والتسلية، ولكنها... حسناً، كانت هادئة ولم تكن هادئة، إذا كنت تفهم ما أقصد.

كان المفتش كروم صبوراً بدرجة كبيرة، فالآنسة هغلي المفعمة بالحيوية كانت تثير الجنون. كل إفادة أدلت بها كانت تكررها ست مرات، أما النتيجة الصافية فكانت أنها حزينة لأبعد حد، ولم تكن على علاقة وثيقة بالفتاة القتيلة، ويمكن التخمين بأن إلزابيث برنارد اعتبرت نفسها أعلى من مستوى الآنسة هغلي. كانت ودودة في ساعات العمل، ولكن الفتيات لم يلتقين بها كثيراً بعد العمل. كان لإلزابيث برنارد صديق يعمل في وكالة كورت وبرَنْسكيل للعقارات قرب المحطة. لا، لم يكن هو السيد كورت ولا السيد برنسكيل، بل كان مجرد موظف يعمل هناك. لم تعرف الآنسة هغلي اسمه ولكنها كانت تعرف شكله، كان وسيماً، وسيماً جداً، ويرتدي دائماً ملابس أنيقة.

عندما ذكرت الآنسة هغلي المعلومات الأخيرة شعرت أن مسحة من الغيرة كانت في قلبها، وفي النهاية وصلت الأمور إلى التالي: لم تكشف إلزابيث برنارد لأي واحدة في المقهى عن خططها

في ذلك المساء، ولكنها -برأي الآنسة هغلي- كانت ذاهبة للقاء صديقها، وقد ارتدت ثوباً أبيض جديداً جميلاً جداً.

قابلنا الفتاتين الأُخرَيَين ولكننا لم نحصل على نتائج إضافية مهمة، فلم تخبرهما بِتي برنارد بأي شيء عن خططها ولم يلاحظها أحد في بيكسهل أثناء المساء.

* * *

الفصل العاشر

عائلة برنارد

سكن والدا إلزابيث برنارد في بيت صغير، كان واحداً من خمسين بيتاً تقريباً شيّدها أحد المقاولين المضاربين على أطراف البلدة. وكان السيد برنارد رجلاً بديناً في نحو الخامسة والخمسين من عمره، وقد بدا مضطرباً وهو يراقب اقترابنا من البيت، وكان في انتظارنا واقفاً بالباب. قال: تفضلوا بالدخول أيها السادة.

بادر المفتش كيلسي قائلاً: هذا هو المفتش كروم من سكتلنديارد يا سيدي، وقد جاء ليساعدنا في هذه القضية.

قال السيد برنارد راجياً: سكتلنديارد؟ عظيم، فهذا المجرم الوغد يجب أن يُقبض عليه. مسكينة ابنتي الصغيرة!

- وهذا هو السيد هيركيول بوارو أيضاً من لندن، وهذا...

قال بوارو: الكابتن هيستنغز.

قال السيد برنارد بصورة تلقائية: كم أنا مسرور بلقائكم يا سادة! تفضلوا إلى الغرفة، لا أعرف إذا كان باستطاعة زوجتي المسكينة مقابلتكم، فهي في حالة انهيار.

كنا جالسين في غرفة المعيشة بعد قليل عندما ظهرت السيدة برنارد، وقد دلّ مظهرها على أنها كانت تبكي بمرارة. كانت عيناها محمرتين وتمشي مضطربة مشية شخص مصدوم صدمة عنيفة، وقد ربّت السيد برنارد على كتفها وسحب لها كرسياً لتجلس عليه قائلاً: هل أنت متأكدة أنك على ما يرام؟

صاحت السيدة برنارد باكية: إنه عمل وحشي، وحشي جداً، لقد كان أكثر الأعمال وحشية.

كانت في صوتها لكنة باهتة بحيث اعتقدت في البداية أنها أجنبية، ثم تذكرت الاسم على البوابة (لاندادنو) فعرفت أن لهجتها كانت في الحقيقة بسبب أصلها الويلزي.

قال المفتش كروم: إنه أمر مؤلم جداً يا سيدتي، أعرف ذلك. عواطفنا كلها معك، ولكننا نريد أن نعرف كل الحقائق لكي نتحرك بالسرعة الممكنة.

قال السيد برنارد وهو يومئ برأسه موافقاً: جميل جداً، هذا هو ما نتمناه.

- عرفت أن ابنتك كانت في الثالثة والعشرين وأنها كانت تعيش هنا معكم وتعمل في مقهى جينغر كات، هل هذا صحيح؟

- نعم، صحيح.

- هذا البيت جديد، أليس كذلك؟ أين كنتم تعيشون سابقاً؟

- كنت أعمل في تجارة الحديد في كنينغتون وتقاعدت قبل سنتين، كنت أحلم دائماً بالعيش قرب البحر.

- لديك ابنتان، أليس كذلك؟

- بلى، وابنتي الكبرى تعمل في مكتب في لندن.

- هلِ شعرتم بالقلق عندما تأخرت ابنتكم في العودة إلى البيت الليلةَ الماضية؟

قالت السيدة برنارد باكية: لم نعرف أنها لم ترجع إلى البيت، فأنا وأبوها نذهب إلى النوم مبكراً، في الساعة التاسعة. لم نعرف أن بتي لم تعد إلى البيت إلى أن جاء ضابط الشرطة وقال... قال...

انهارت بالبكاء، فسأل المفتش: هل كان من عادة ابنتك أن تعود إلى البيت متأخرة؟

قال السيد برنارد: أنت تعرف الفتيات هذه الأيام يا حضرة المفتش، إنهن مستقلات ولا يرجعن إلى البيت مبكّرات في أمسيات الصيف هذه. كان من عادة بتي أن تعود إلى البيت قريباً من الساعة الحادية عشرة.

- كيف كانت تدخل؟ هل كان الباب مفتوحاً؟

- كنا نترك لها المفتاح تحت دعّاسة الأرجل خارج الباب، هذا ما كنّا نفعله دائماً.

- أعتقد أن ابنتك كانت مخطوبة وعلى وشك الزواج؟

قال السيد برنارد: ليس بصورة رسمية.

قالت السيدة برنارد: اسمه هو دونالد فريزر، وأنا أحبه كثيراً. شاب مسكين، هذا الخبر سيحزنه جداً. إنني أتساءل إن كان قد

عرف بالخبر؟

- لقد فهمت أنه يعمل في شركة كورت وبرانسكيل، أليس كذلك؟

- نعم، إنهم وكلاء عقارات.

- هل كان معتاداً على لقاء ابنتك معظم الأمسيات بعد انتهاء عملها؟

- ليس كل أمسية، بل مرة أو مرتين في الأسبوع، هذا أقرب إلى الدقة.

- هل تعرفين إذا كانت ذاهبة لمقابلته بالأمس؟

- لم تخبرنا بذلك، ولم يكن من عادة بتي أن تخبرنا بخططها، ولكنها كانت فتاة طيبة. آه، لا أصدق!

بدأت السيدة برنارد بالنحيب مرة أخرى، فقال لها زوجها مُلِحّاً: اضبطي نفسك أيتها السيدة العجوز، يجب علينا توضيح كل شيء.

انتحبت السيدة برنارد قائلة: أنا متأكدة أن دونالد لم يكن... لم يكن أبداً...

قال السيد برنارد: أرجو الله أن أتمكن من مساعدتكم، ولكني في الحقيقة لا أعرف شيئاً، لا شيء أستطيع به مساعدتكم على كشف المجرم الخسيس الذي فعل ذلك. كانت بتي مجرد فتاة مرحة سعيدة مع ذلك الشاب المهذب. ما السبب الذي يمكن أن يدفع أي شخص لقتلها؟ هذا الأمر يحيرني، إنه ليس له معنى.

واساه المفتش كروم بكلمات مناسبة ثم سأله: هل أستطيع أن أفحص غرفة الآنسة برنارد؟ قد نجد فيها أشياء تساعدنا، رسائل أو مفكرة مثلاً.

قال السيد برنارد وهو ينهض: افحصها على الرحب والسعة.

مشى أمامنا، وتبعه كروم ثم بوارو ثم كيلسي، وكنت أنا في المؤخرة. وعندما توقفتُ برهة لأعيد ربط خيط حذائي توقفت سيارة أجرة في الخارج وقفزت منها فتاة، فدفعت الأجرة للسائق وأسرعت إلى مدخل البيت وهي تحمل حقيبة ملابس صغيرة، وعندما دخلت من الباب رأتني فوقفت جامدة.

كان في وقفتها شيء أسرني وأثار اهتمامي، وسألتني: من أنت؟

شعرت بالارتباك ولم أعرف كيف أجيبها؛ هل أذكر اسمي أم أخبرها أنني جئت إلى البيت مع الشرطة؟

لم تمهلني الفتاة حتى أقرر، فقالت بسرعة: آه، حسناً، أستطيع أن أخمّن.

نزعت معطفها الصوفيّ الأبيض الذي كانت ترتديه فاستطعت أن أراها بصورة أفضل، لا سيما عندما التفتت قليلاً فسقط عليها الضوء.

كان انطباعي الأول عنها أنها مثل الدُّمى التي اعتادت أخواتي اللعب بها في طفولتي، لها شعر أسود مقصوص قَصّة قصيرة مستقيمة مع غُرّة فوق جبينها، وكانت عظام خدَّيها بارزة. كان

شكلها كله غريباً وجذاباً نوعاً ما، ومع أنها لم تكن جميلة تماماً إلا أن مظهرها دلّ على القوة والنشاط بطريقة تجعل منها إنسانة يصعب تجنب النظر إليها.

سألتها: أنت الآنسة برنارد؟

- أنا ميغان برنارد. أظن أنك من الشرطة، أليس كذلك؟

- حسناً، ليس تماماً...

قاطعتني قائلة: لا أعتقد أن لديّ ما أخبرك به. كانت أختي فتاة لطيفة ذكية ولم يكن لها أصدقاء من الرجال. تصبح على خير.

ضحكت في وجهي ضحكة قصيرة وهي تقول ذلك ونظرَت إليّ نظرة تحدّ لطيفة قائلة: أظن أن هذه هي العبارة الصحيحة، أليس كذلك؟

قلت: أنا لست صحافياً، إذا كان هذا هو قصدك.

قالت: حسناً، من أنت؟ وأين أبي وأمي؟

- ذهب أبوك إلى الطابق العلوي بصحبة مفتش الشرطة الذي أراد فحص غرفة نوم أختك، وأمك في الداخل هناك. إنها متأثرة جداً.

بدا أن الفتاة قد اتخذت قرارا، فقالت بسرعة: ادخل هنا.

فتحَت أحد الأبواب ودخلت، فتبعتُها ووجدت نفسي في مطبخ أنيق صغير. وكنت على وشك إغلاق الباب خلفي حين شعرت بمقاومة غير متوقعة، وفي اللحظة التالية انسَلّ بوارو إلى

المطبخ بهدوء وأغلق الباب خلفه.

قال وهو ينحني لها بسرعة: مدموزيل برنارد؟

قلت: هذا هو السيد هيركيول بوارو.

نظرَت ميغان برنارد إليه نظرة سريعة فيها تقدير وقالت: لقد سمعت عنك. أنت رجل التحري السري المتأنّق، أليس كذلك؟

قال بوارو: إنه ليس وصفاً جميلاً تماماً، ولكنه يكفي.

جلست الفتاة على حافة طاولة المطبخ وقالت: لا أعلم ماذا يفعل السيد هيركيول بوارو في جريمتنا الصغيرة المتواضعة هذه.

قال بوارو: يا آنسة، إن الذي لا تفهمينه والذي لا أفهمه أنا أيضاً يمكن أن يملأ مجلداً، ولكن هذا ليست له أهمية عمَلية. الأمور ذات الأهمية لا يُهتدَى إليها بسهولة.

- لماذا؟

- لسوء الحظ فإن ما ينشأ عن الموت هو التحيز يا آنسة، تحيّز لصالح الميت. لقد سمعت ما قلتِه الآن لصديقي هيستنغز: فتاة لطيفة ذكية ليس لها أصدقاء من الرجال. قلتِ تلك الكلمات بلهجة ساخرة، أردت أن تسخري من الطريقة التي يكتب بها الصحفيون الأخبار في الصحف، وهذا صحيح تماماً، فعندما تموت فتاة شابة فإن هذا هو الكلام الذي يُقال: كانت ذكية، كانت سعيدة، كانت ذات مزاج لطيف، لم تهتم إلا بالأشياء الطيبة، كان الكل يحبونها... هل تعرفين ما أريده في هذه اللحظة؟ أريد شخصاً يعرف إلزابيث برنارد ولا يعرف أنها ماتت! عندئذ سأسمع ما هو

مفيد، سأسمع الحقيقة.

حدقت ميغان إليه بصمت لبعض الوقت ثم تكلمت أخيراً، وجعلتني كلماتها أجفل بشدة. قالت: لقد كانت بتي فتاة سخيفة غير محبوبة.



الفصل الحادي عشر

ميغان برنارد

كما قلت، فإن كلمات ميغان برنارد (وأيضاً نبرتها الباردة الحادة التي نطقتها بها) أجفلتني تماماً، أما بوارو فاكتفى بإيماءة هادئة برأسه وقال: حسناً فعلت، أنت ذكية يا آنسة.

قالت ميغان برنارد بنفس النبرة غير المتحيزة: لقد أحببت بتي كثيراً، ولكن حبي لها لم يمنعني من رؤية حماقتها وسخافتها، حتى إنني كنت أقول لها ذلك في كثير من الأحيان... هكذا هُنّ الأخوات.

- وهل اهتمَّت بنصيحتك؟

قالت ميغان بسخرية: ربما.

- ألا تكونين دقيقة يا آنسة؟

ترددت الفتاة بعض الوقت، فقال بوارو وهو يبتسم ابتسامة لطيفة: سوف أساعدك. لقد سمعتُ ما قلتِه لصديقي هيستنغز، وهو أن أختك كانت فتاة لطيفة ذكية وليس لها أصدقاء من الرجال. لقد كان العكس هو الصحيح تماماً، أليس كذلك؟

قالت ميغان ببطء: لم تكن بتي مؤذية، أرجوك أن تفهم ذلك.

كانت دائماً مستقيمة، ليست من النوع الذي يعبث مع الرجال، ليست من هذا النوع، ولكنها كانت تحب التسلية والحفلات و... ماذا أقول؟ تحب سماع المديح والتملق الرخيص.

- هل كانت جميلة؟

سمعت هذا السؤال من بوارو للمرة الثالثة، وقد حصل على جواب عمَلي هذه المرة. نزلت ميغان عن الطاولة فذهبت إلى حقيبة ملابسها وفتحتها وأخرجت منها صورة سلمتها لبوارو. كانت صورة نصفية لفتاة شقراء تبتسم للكاميرا وقد قصَّت شعرها حديثاً، فكان يخرج من رأسها على شكل خصلات متجعدة. كانت ابتسامتها مصطنَعة ماكرة، ولم يكن وجهها من النوع الذي يمكن أن تصفه بالجمال، ولكن كانت فيه ملامح حُسن واضحة بسيطة.

أعادها بوارو وهو يقول: أنتما غير متشابهتَين يا آنسة.

آه، أنا القبيحة في العائلة، عرفت ذلك دائماً.

بدا أنها لا تبالي بالحقيقة ولا ترى لها أي أهمية!

- لماذا تعتبرين أن أختك كانت تتصرف بحماقة؟ هل تقصدين في علاقتها مع السيد رونالد فريزر؟

- هذا هو الأمر تماماً. إن دون (رونالدو) شخص هادئ جداً ولكنه... حسناً، من الطبيعي أنه كان يستاء من أشياء، ثم...

- ثم ماذا يا آنسة؟

ثبت عينيه عليها، ولعلي تخيلت أو أنها فعلاً ترددت قبل أن

تجيب. قالت: كنت أخشى أن يطردها من حياته ذات يوم، وسوف يدعو هذا الأمر -لو حصل- إلى الأسف. إنه رجل مثابر مجتهد في عمله وكان من الممكن أن يصبح زوجاً مناسباً لها.

استمر بوارو في التحديق إليها، ولم تضطرب أمام نظراته القوية بل ردت عليها بواحدة من نظراتها الثابتة ومعها إيحاء ذكّرني بأسلوبها المتحدي المزدري الذي قابلتني به أول مرة. قال في النهاية: إذن فهي كذلك؟ ليتك ثابرت على قول الحقيقة.

رفعت كتفيها استهجاناً واتجهت ناحية الباب قائلة: حسناً، لقد فعلت ما بوسعي لمساعدتك.

أَسَرَها صوت بوارو عندما قال: انتظري يا آنسة، أريد أن أخبرك ببعض التفاصيل. عودي.

أطاعته كارهة، ولشدة دهشتي أخبرها بوارو بقصة الرسائل وجريمة أندوفر ودليل القطارات الأبجدي الذي وُجد بجانب جثّتَي الضحيتين. اهتمت بسماع القصة كثيراً وفغرت فاها ولمعت عيناها ثم سألته: هل هذا كله صحيح يا سيد بوارو؟

- نعم، إنه صحيح.

- هل تقصد أن أختي قتلها شخص مجنون مهووس بالقتل؟

- نعم.

زفرت بعمق وقالت: آه! بتي، بتي... يا له من عمل شنيع!

قال بوارو: كما ترين يا آنسة فإن المعلومات التي أطلبها منك

يمكن أن تقدميها بإرادتك دون التساؤل إن كانت ستؤذي أي أحد بعينه أو لا تفعل.

- نعم، فهمت الآن.

- إذن دعينا نستمر في حديثنا. لقد فهمت أن دونالد فريزر هذا ربما كان صاحب مزاج عنيف غَيور، صحيح؟

قالت ميغان برنارد بهدوء: أنا أثق بك الآن يا سيد بوارو وسوف أخبرك بالحقيقة الكاملة. كما قلت فإن دون رجل هادئ جداً، رجل متكتم إن كنت تعرف ما أقصد. إنه لا يستطيع أن يعبّر عن شعوره بالكلمات، ولكن هدوءه الظاهري يخفي طبيعة حادّة غَيورة. كان مخلصاً لبتي ويغار عليها، وبالطبع كانت هي تحبه، ولكنها ليست من النوع الذي يحب شخصاً ولا ينظر إلى غيره! لم تكن من هذا النوع، بل كانت تنظر لأي رجل وسيم تقابله، ولأنها كانت تعمل في مقهى فقد كانت تقابل الرجال على الدوام، ولا سيما في عطلة الصيف. وكان لسانها طلقاً دائماً، فإذا مزحوا معها كانت تمزح معهم بدورها أيضاً، وقد تقبل بمرافقة أحدهم إلى السينما مثلاً. لم تذهب لأبعد من هذا أبداً، لا شيء يقدح بها إطلاقاً، ولكنها كانت تحب هذا النوع من اللهو والتسلية، وكانت تقول إنها ستتزوج دون في النهاية ولكن لا بأس أن تنال حظاً من التسلية البريئة أيضاً.

سكتت ميغان فقال بوارو: أفهم تماماً، استمري لو سمحت.

- كان هذا هو تفكيرها الذي لم يستطع دون فهمه، فإذا كانت متحمسة له فلماذا ترغب في الخروج مع آخرين؟ وقد تشاجرا

بسبب ذلك شجاراً كبيراً مرتين.

- لم يعد السيد دون هادئاً إذن؟

- إنه مثل جميع الناس الهادئين، عندما يفقدون أعصابهم فإنهم يفقدونها بإفراط. كان دون عنيفاً جداً مما جعل بتي تخافه.

- متى حدث هذا؟

- وقعت مشاجرة قبل سنة تقريباً، ومشاجرة أخرى أسوأ منها قبل شهر واحد فقط. كنت في البيت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وقد عملت على مصالحتهما ونصحت بتي بتغيير سلوكها، ولكنها كانت متهورة. بعد المشاجرة التي وقعت قبل سنة صارت تكذب أحياناً أخذاً بالمثل الذي يقول إن الذي لا يعرفه العقل لا يأسى عليه القلب. وقد وقعت المشاجرة الأخيرة لأنها أخبرت دون أنها ستزور صديقة لها، ثم اكتشف أنها ذهبت إلى إيستبورن مع رجل، وكان متزوجاً أيضاً! كان الأمر فظيعاً يومها، غضب دون كثيراً، وأصرّت هي على أن لها الحق في الخروج مع من تريد طالما أنها لم تتزوج به بعد. غضب هو غضباً عارماً وشحب لونه وراح يردد وهو يرتجف بأنه في يوم من الأيام... في يوم من الأيام...

- نعم؟

قالت ميغان بصوت خافت: سوف يرتكب جريمة قتل!

ثم سكتت ونظرت إلى بوارو، فأومأ إليها برأسه عدة مرات بهدوء موافقاً ثم قال: وهكذا فمن الطبيعي أنك شعرت بالخوف؟

- لم أعتقد أنه قد يعملها فعلاً، لم أعتقد ذلك ولو دقيقة

واحدة! ولكني خفت أن يتسبب الشجار في لفت انتباه الناس.

مرة أخرى أومأ بوارو برأسه بهدوء موافقاً، ثم سألها: هل تعرفين إذا كانت أختك قد قابلت ذلك الرجل المتزوج أو أي رجل آخر مؤخراً؟

هزت ميغان رأسها بالنفي وقالت: لا أعرف، فقد كنت بعيدة كما تعلم.

- ولكن ماذا تظنين؟

- لعلها لم تقابل ذلك الرجل بعينه مرة أخرى، ولكن ما كان ليدهشني لو أنها كذبت على دون بعض الكذبات مرة أخرى. لقد كانت تستمتع بالحفلات ومشاهدة الأفلام، وبالطبع لم يكن هو قادراً على توفير هذه التسلية لها كل الوقت.

- هل يُحتمَل أن تكون قد أفضت بسرّها لأي شخص، للفتاة التي تعمل معها في المقهى على سبيل المثال؟

- لا أظن، فهي لم تحب الفتاة هغلي، والفتيات الأخريات كن جديدات في العمل. وعلى أي حال فلم تكن بتي من النوع الذي يكشف أسراره.

رنّ جرس كهربائي فوق رأس الفتاة بقوة، فذهبت إلى النافذة وأخرجت رأسها لترى الشخص الذي يرن جرس الباب، ثم قالت: إنه دون.

قال بوارو بسرعة: أحضريه هنا، أريد أن أتكلم معه قبل أن يراه مفتّشنا الطيب.

خرجت ميغان برنارد من المطبخ بسرعة البرق، وبعد بضع ثَوانٍ عادت وهي تمسك بيد دونالد فريزر.

* * *

الفصل الثاني عشر

دونالد فريزر

شعرت في الحال بالأسى على الشاب الذي ظهر حجم الصدمة في وجهه الشاحب المنهك وعينيه الحائرتين. كان شاباً مريحاً وسيماً طويل القامة وفي وجهه نمش، وكانت عظام خدَّيه بارزة وشعره بلون أحمر ملتهب.

قال: ما هذا يا ميغان؟ أخبريني، لقد سمعت لتوّي بأن بتي...

ضَعُف صوته، فدفع بوارو أمامه كرسياً جلس عليه ثم التفت إلى الفتاة وخاطبها مرة أخرى بصوت هادئ فيه قدر من رباطة الجأش. قال: يبدو أن الخبر صحيح؟ لقد ماتت بتي، قُتلت، أليس كذلك؟

قال وكأنه يتكلم بصورة آلية: هل عدتِ من لندن؟

- نعم، اتصل بي أبي بالهاتف.

- نعم.

ساد الصمت لبعض الوقت، ثم قال فريزر: الشرطة؟ هل عرفوا أي شيء؟

- إنهم في الطابق العلوي الآن، يفحصون أغراض بتي على ما أعتقد.

- هل عندهم فكرة عن الذي... ألا يعرفون...

ثم سكت فجأة. كان حسّاساً خجولاً وبدا أنه لا يحب استخدام الكلمات التي تدل على العنف. وتقدم بوارو قليلاً فسأل سؤالاً، كان يتكلم بلهجة رسمية، وفي الحقيقة بصوت فاتر كأنه يسأله عن معلومات غير مهمة: هل أخبرتك الآنسة برنارد أين كانت ذاهبة الليلة الماضية؟

رد فريزر على السؤال وكأنه يتحدث بصورة آلية: أخبرتني أنها ذاهبة مع صديقة لها إلى سينت ليوناردز.

- وهل صدّقتها؟

فجأة أصبح الإنسان الآلي مخلوقاً حيّاً عصبياً؛ قال: ماذا تقصد بكلامك؟

عندما نظرتُ إلى وجهه المتوعد وقد تشنّج بسبب الانفعال الشديد المفاجئ فهمت لماذا كانت الفتاة القتيلة خائفة من إثارة غضبه.

قال بوارو بوضوح: لقد قتل بتي مجرمٌ مهووس، وأنت تستطيع مساعدتنا في تعقّبه إذا أخبرتني بالحقيقة.

نظر إلى ميغان نظرة خاطفة فقالت: هذا صحيح يا دون، فهذا ليس وقت التفكير بأحاسيسك أو أحاسيس أي شخص آخر. يجب أن تتحرر منها.

نظر دونالد فريزر إلى بوارو بارتياب وقال: لماذا أنت؟ إنك لست من الشرطة؟

قال بوارو: أنا أفضل من الشرطة.

قال جملته دون غرور، بالنسبة له كان ذلك إعلاناً بسيطاً عن حقيقة!

قالت ميغان: أخبره.

أذعن دونالد فريزر وقال: لم أكن متأكداً. لقد صدقتها عندما أخبرتني بذلك ولم أفكر أنها ستفعل أي شيء آخر. ومع ذلك، ربما كان في سلوكها شيء ما، فبدأت... حسناً، بدأت أتساءل.

قال بوارو: نعم؟

جلس مقابل دونالد فريزر وثبّت عينيه عليه وكأنه يمارس عملاً سحرياً، فقال الشاب: شعرت بالخجل من نفسي لأنني كنت شكاكاً، ولكن... ولكني كنت كذلك. فكرت في الذهاب إلى الشاطئ لأراقبها عندما تغادر المقهى. وفي الحقيقة ذهبت هناك، ثم شعرت أنني لا أستطيع أن أستمر، فقد كان من الممكن أن تراني بتي فتغضب لأنها ستدرك أنني كنت أراقبها.

- وماذا فعلت؟

- ذهبت إلى سينت ليوناردز. وصلت هناك في الساعة الثامنة وراقبت الحافلات لأرى إن كانت في أي منها، ولكن لم يكن هناك أي أثر لها.

- وبعد ذلك؟

- فقدت عقلي! خشيت أنها كانت مع رجل آخر وأنه قد يأخذها بسيارته إلى البحر، فذهبت هناك وفتشت في المطاعم والمقاهي وتسكعت أمام دور السينما ومشيت على رصيف البحر. كان كل ذلك حماقة ملعونة، فحتى لو كانت هناك فلم يكن عثوري عليها محتمَلاً.

سكت، ولاحظت الغضب الأعمى الذي استولى عليه في الوقت الذي كان يسرد فيه القصة.

- في النهاية تخليت عن هذا العمل ورجعت.

- في أي ساعة؟

- لا أعرف، كنت أمشي. لا بد أن الوقت كان بُعَيد منتصف الليل عندما عدت إلى البيت.

- وبعدها...

في تلك اللحظة فُتح باب المطبخ وقال المفتش كيلسي: آه، ها أنت هنا؟

اندفع المفتش كروم خلفه وألقى نظرة على بوارو ونظرة على الغريبين، وقال بوارو يعرّفه بهما: الآنسة ميغان برنارد والسيد دونالد فريز... وهذا هو المفتش كروم من لندن.

ثم قال وهو يلتفت إلى المفتش: كنت أتحدث مع الآنسة برنارد والسيد فريزر بينما كنت تتابع تحقيقاتك في الطابق العلوي، وحاولت قدر استطاعتي أن أجد شيئاً يلقي الضوء على المسألة.

قال المفتش كروم وأفكاره ليست مع بوارو بل مع القادمَين

الجديدين: آه، نعم؟

انسحب بوارو إلى القاعة، وسأله المفتش كيلسي بلطف وهو يمر أمامه: هل حصلت على أي شيء؟

لكن زميله شدّ انتباهه بعيداً فلم ينتظر الإجابة.

انضممت إلى بوارو في القاعة وسألته: هل أثارك أي شيء يا بوارو؟

- فقط شهامة القاتل المذهلة يا هيستنغز.

ولم أملك الشجاعة لأقول له إنني لم أفهم أي شيء ممّا كان يقصده.



الفصل الثالث عشر

مؤتمر

يبدو أن معظم ذكرياتي عن قضية الجرائم الأبجدية تنحصر في اللقاءات والمؤتمرات. مؤتمرات في إدارة سكتلنديارد وفي شقة بوارو، مؤتمرات رسمية ومؤتمرات غير رسمية. وكان هذا المؤتمر بالذات قد عُقد لتقرير ما إذا كان علينا إعلان الحقائق التي تتعلق بالرسائل المجهولة للعامة وللصحف.

لقد لفتت جريمة القتل في بكسهيل انتباهاً أكبر بكثير من الذي أحدثته جريمة أندوفر، وبالطبع كان فيها عناصر تجعلها أكثر شهرة. أولاً كانت الضحية هنا فتاة شابة جميلة، وأيضاً وقعت في منتجع مشهور على شاطئ البحر.

لقد نُشرت جميع تفاصيل الجريمة بالكامل وعرضتها الصحف في قالب جديد زائف، كما نال دليل القطارات حصته من الاهتمام أيضاً. ولم يَرِدْ ذكره إطلاقاً في السرد الهزيل لجريمة أندوفر، لذلك لم يظهر للعامة أي تشابه بين الجريمتين.

قال مساعد المفوض: علينا أن نقرر سياسة معينة. ما هو الخيار الذي سيعطينا أفضل النتائج؟ هل نكشف الحقائق للناس لكي نحثهم على التعاون معنا؟ مع أنه سيكون تعاوناً مع عدة ملايين

من البشر يبحثون عن رجل مجنون!

تدخل الدكتور ثومبسون قائلاً: لكنه لن يبدو مجنوناً في ظاهره.

قال مساعد المفوض: أيضاً قد ينتبه الناس لمبيعات دليل القطارات فيزودوننا بمعلومات مفيدة. وبالمقابل أعتقد أن لعملنا في الظلام فائدة تتمثل في عدم إعطاء المجرم فرصة ليعرف ما نخطط له، لا سيما وقد تعمّد لفت الانتباه إلى نفسه عن طريق رسائله. ما رأيك يا كروم؟

- إنني أنظر إلى الموضوع بهذه الطريقة يا سيدي: إذا كشفنا التفاصيل للعامة فإننا سنجاري المجرم في لعبته، فما يريده هو الدعاية والشهرة، هذا ما يرمي إليه. إنه يريد أن يلفت الأنظار، أليس كذلك يا دكتور؟

أومأ الدكتور ثومبسون برأسه موافقاً، فقال مساعد المفوض متأملاً: إذن فأنت تريد أن تحرمه من الشهرة التي يتوق إليها؟ وماذا عنك يا سيد بوارو.

سكت بواراو برهة، وعندما تكلم اختار كلماته بعناية قائلاً: أنا طرف في القضية لذلك يصعب عليّ تقديم جواب حاسم يا سير ليونيل. فالمجرم أرسل رسالة التحدي إليّ، ولو طلبت منكم أن تكتموها ولا تعلنوها للجمهور فأخشى أن تظنوا أنني أنتصر لنفسي ولكرامتي وأنني أريد المحافظة على سمعتي. إنها موازنة صعبة، فلكشفها فوائد منها التحذير، ومن ناحية أخرى أنا مقتنع بما قاله المفتش كروم، إن هذا هو الذي يريد المجرم منا أن نفعله.

نظر مساعد المفوض إلى الدكتور ثومبسون وسأله: افترض أننا حرمنا مجنوننا من إشباع رغبته في الشهرة التي يتوق إليها، فما هو الشيء الذي يُحتمَل أن يفعله؟

قال الطبيب في الحال: سيرتكب جريمة أخرى، سوف يجبركم على تنفيذ رغبته.

- وإذا نشرنا صورة إجمالية للقضية دون تفاصيل فماذا يكون رد فعله؟

- الجواب نفسه. من جهة سيغذي الأمرُ جنونَ العظمة عنده ومن جهة أخرى سيُحبطه، فنصل إلى النتيجة نفسها: جريمة أخرى.

- ماذا تقول سيد بوارو؟

- أتفق مع الدكتور ثومبسون.

- إذن فنحن في وضع حرج، أليس كذلك؟ كم جريمةً تظنون أن هذا المجنون يفكر فيها؟

نظر الدكتور ثومبسون إلى بوارو فقال: قد تستمر من الألِف إلى الياء! بالطبع لن يصل إلى هذا الحد، فلا بد أن تقبضوا عليه قبل ذلك بوقت طويل. لنفرض أنه سيصل إلى حرف الواو أو الزاي.

ضرب مساعد المفوض الطاولة بقبضته صائحاً: يا إلهي! هل تحاول أن تخبرني أننا سنواجه خمس جرائم قتل أخرى؟

قال المفتش كروم بثقة كبيرة: لن يصل الأمر لهذا الدرجة من السوء يا سيدي، ثق بي.

سأله بوارو: أي حرف سيتوقف عنده يا حضرة المفتش؟

لعلها ظهرت في صوته نبرة خفيفة من السخرية، وبدا لي أن كروم نظر إليه بشيء من الكراهية المشبوبة بالتشامخ المعتاد وقال: قد نمسك به في المرة القادمة يا سيد بوارو... وعلى أي حال أضمن لك أن نقبض عليه قبل أن يرتكب ثلاث جرائم أخرى.

ثم التفت إلى مساعد المفوض وقال: أظن أن نفسية المجرم قد اتضحت في ذهني. أرجو من الدكتور ثومبسون أن يصحّح لي لو أخطأت. كل مرة ينجح فيها بارتكاب جريمة جديدة فإن ثقته بنفسه تتضاعف تقريباً، فيقول لنفسه: أنا ذكي ولن يستطيعوا الإمساك بي! سيصبح واثقاً ثقة تفوق التصور لدرجة أنه سيفقد حذره ولن يهتم بأخذ الاحتياطات الكافية. هل هذا صحيح يا دكتور؟

أومأ ثومبسون برأسه موافقاً وقال: في العادة تكون الحالة هكذا. من الناحية غير الطبية لا يمكن أن نقول أفضل من ذلك. أنت تعرف شيئاً عن هذه الأمور ياسيد بوارو، ألا توافق؟

لاحظت أن كروم لم يحب سؤال ثومبسون لبوارو، فقد اعتبر أنه هو الخبير الوحيد في الموضوع. وقد وافقه بوارو قائلاً: الأمر كما يقول المفتش كروم.

همس الطبيب قائلاً: جنون العظمة!

التفت بوارو إلى كروم وسأله: هل وجدتم أي حقائق مادية تثير الاهتمام في قضية بكسهيل؟

- لا شيء له أهمية خاصة. تعرّف نادل في مطعم سبلينِدْ

في إيستبورْن على صورة الفتاة القتيلة وقال إنها تناولت العشاء هناك مساء يوم الرابع والعشرين بصحبة رجل متوسط العمر يضع نظارات، وأيضاً تم التعرف على الصورة في نُزُل في منتصف الطريق بين بكسهيل ولندن، يقولون إنها كانت هناك بحدود الساعة التاسعة من مساء يوم الرابع والعشرين مع رجل كأنه ضابط في سلاح البحرية. بالطبع لا يمكن أن تكون الروايتان صحيحتين معاً، ولكن يحتمَل أن تكون واحدة منهما كذلك.

قال مساعد المفوض: حسناً، يبدو أنكم بذلتم كل ما بوسعكم يا كروم. ماذا تقول يا سيد بوارو؟ ألديك أي طريقة للتحقيق؟

قال بوارو بحذر: يبدو لي أن علينا التركيز على مفتاح واحد مهم جداً، إنه اكتشاف الدافع إلى الجريمة.

- لكن أليس الدافع واضحاً؟ إنها عقدة الحروف الأبجدية، أليس هذا ما تسمّيه يا دكتور؟

قال بوارو: نعم، هي كذلك، ولكن لماذا هذه العقدة؟ إن الرجل المجنون يكون عنده دائماً سبب قوي للجرائم التي يرتكبها.

قال كروم: ماذا أصابك يا سيد بوارو؟ انظر إلى ستونمان عام ١٩٢٩، لقد انتهى به الأمر إلى محاولة قتل أي واحد كان يزعجه ولو أقل إزعاج لا يُذكَر.

التفت بوارو إليه قائلاً: صحيح تماماً، إذا شعر المرء أنه شخص عظيم فلن يتحمل الإزعاجات الصغيرة. لو استقرت ذبابة على جبينك وأزعجتك مرة بعد مرة فماذا ستفعل؟ ستسعى لقتلها، ولن تشعر بأي تأنيب ضمير عندما تفعل، فأنت مهم أما الذبابة فإنها

تافهة. سوف تقتل الذبابة وبعدها ستتوقف المضايقة، وسوف يبدو لك عملك مبرراً وسليماً تماماً. لكن قد يكون لديك سبب آخر لقتل الذبابة لو كنت حريصاً على الصحة العامة مثلاً، فهي مصدرٌ محتمَل للخطر على المجتمع، لذلك يجب أن تموت. هكذا يعمل عقل المجرم المنحرف نفسياً. والآن فكّر في هذه القضية: إذا اختيرَ الضحايا حسب الحروف الأبجدية فليس لأنهم مصدر إزعاج للقاتل شخصياً، سيكون أمراً فيه مصادفة كثيرة لو جمعنا الاثنين معاً.

قال الدكتور ثومبسون: هذه نقطة جديرة بالاهتمام. إنني أتذكر قضية حُكم فيها على زوج امرأة بالإعدام، فبدأت المرأة بقتل أعضاء هيئة المحلفين واحداً تلو الآخر، وكان يفصل بين كل جريمة والتي بعدها وقت طويل فبدت الجرائم كأنها وقعت مصادفة. ولكن كما يقول السيد بوارو: لا يوجد مجرم يرتكب جرائم القتل بصورة عشوائية. إما أنه يقتل أناساً يقفون في طريقة بلا تمييز أو يقتل أشخاصاً محددين لأسباب خاصة، فهو يقتل رجال دين أو رجال شرطة أو مومسات لأنه يعتقد أنهم يجب أن يُقتلوا! وهذا لا ينطبق على قضيتنا حسبما أرى، فالسيدة آشر وبتي برنارد لا يمكن جمعهما كفردين في فئة واحدة، والطبع سنتأكد بصورة أفضل بعد الجريمة القادمة!

قال السير ليونيل مُغضَباً: أستحلفك بالله ألّا تتكلم عن الجريمة القادمة بمثل هذه العفوية يا ثومبسون! إننا سنبذل ما بوسعنا لمنع جريمة أخرى.

خرج الدكتور ثومبسون عن هدوئه وقال بصوته العالي: إذا كنتم لا تحبون مواجهة الحقائق...

التفت مساعد المفوض إلى بوارو وقال: أفهم ما ترمي إليه، ولكني لست متأكداً تماماً رغم ذلك.

قال بوارو: أنا أسأل نفسي عن الذي يدور في عقل القاتل. إنه يقتل -كما يبدو من رسائله- من أجل اللعب، لكي يسلّي نفسه. هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ حتى لو كان كذلك فما هو المبدأ الذي يختار ضحاياه بموجبه بعيداً عن ترتيب الحروف الأبجدية؟ لو أنه يقتل فقط لكي يسلّي نفسه فلن يعلن الحقيقة لأنه يمكن أن يقتل دون أن يتعرض للعقوبة. ولكنه ليس كذلك، فنحن متفقون على أنه يسعى إلى إثارة الموضوع على الملأ حتى يفرض شخصيته. رأي أخير: هل دافعه المباشر هو الحقد الشخصي عليّ، على هيركيول بوارو؟ هل يتحداني أمام الملأ لأني ربما تغلبت عليه في مكان ما أثناء قيامي بعملي ذات يوم (وهو أمر لا أعرفه أنا نفسي)؟ أم أن حقده موجَّه ضد الأجانب بصورة غير شخصية؟ وإذا كان كذلك فما هو السبب؟ هل تعرض لأي أذى على يد أجنبي؟

قال الدكتور ثومبسون: هذه كلها أسئلة افتراضية.

تنحنح المفتش كروم وقال: نعم، وقد تستحيل الإجابة عليها في الوقت الحالي.

قال بوارو وهو ينظر إليه مباشرة: ومع ذلك فإن الحل موجود فيها يا صديقي، في هذه الأسئلة. لو أننا عرفنا السبب الحقيقي لارتكاب مجنوننا هذه الجرائم فربما استطعنا الاهتداء إلى الضحية القادمة المحتمَلة.

هز كروم رأسه نافياً وهو يقول: إنه يختارهم كيفما اتفق،

هذا هو رأيي.

قال بوارو: قاتل شهم!

- ما هذا الذي تقوله؟

قال بوارو: قلت إنه قاتل شهم، فلولا رسائله التحذيرية لكان من المتوقَّع اعتقال فرانز آشر بتهمة قتل زوجته وروونالد فريزر بتهمة قتل بتي برنارد. إذن هل هو صاحب فؤاد رقيق لدرجة أنه لا يريد أن يعاني الآخرون من جرم لم يرتكبوه؟

قال الدكتور ثومبسون: لقد عرفت أشياء أكثر غرابة وقعت في الماضي، عرفت مجرمين قتلوا عدداً من الضحايا ثم توقفوا عن القتل لأن أحد ضحاياهم لم يَمُت على الفور وعانى من الألم. لكن لا أظن أن قاتلنا الحالي من هذا النوع؛ إنه يريد تسجيل هذه الجرائم من أجل سمعته ومجده الشخصي، هذا أنسب تفسير لطريقته.

قال مساعد المفوض: نحن لم نصل إلى قرار بخصوص إعلان هذا الأمر.

قال كروم: عندي رأي يا سيدي. لماذا لا ننتظر حتى نستلم الرسالة القادمة ثم نعلنها؟ إنها ستحدث بعض الذعر في المدينة التي سيسمّيها، ولكنها ستدفع الناس إلى الحذر وتعقد الأمر على القاتل الذي سيكون مصمماً على النجاح، وهذا سيكون الوقت الذي سنقبض عليه فيه.

كم هو قليل الذي نعرفه عمّا يحمله المستقبل!

* * *

الفصل الرابع عشر

الرسالة الثالثة

أتذكر جيداً وصول الرسالة الثالثة، وكانت كل الإجراءات الممكنة قد اتُّخِذَت للتحرك الفوري بمجرد عودة المجرم إلى العمل، فكُلِّف رقيب شاب من شرطة سكتلنديارد بملازمة البيت، وإذا كنّا أنا وبوارو خارجه فإن من واجبه فتح أي رسالة تصل وتبليغ القيادة دون تضييع وقت.

بينما تعاقبت الأيام كان توترنا يزداد أكثر وأكثر، وكان تحفظ المفتش كروم وأسلوبه الفوقي يزداد ويصبح أكثر تحفظاً وفوقية، بينما كانت أدلته تتلاشى واحدة بعد واحدة بعدما كان يعقد عليها الآمال. فالأوصاف الغامضة للرجال الذين قيل إنهم شوهدوا مع بتي برنارد أثبتت عدم جدواها، والسيارات المختلفة التي شوهدت قرب بكسهيل لم تدلّ على شيء، وقد تسبب التحقيق في شراء أدلة القطارات إزعاجاً ومتاعب لأعداد كبيرة من الناس الأبرياء الذين اشتروها.

أما بوارو وأنا فكانت قلوبنا تخفق بقلق كلما طرق ساعي البريد بابنا، هذا كان شعوري أنا على الأقل، ولا أستطيع إلا الاعتقاد بأن بوارو جرّب الإحساس نفسه. وعلمت أنه لم يكن

مسروراً بهذه القضية، وقد رفض مغادرة لندن وفضّل البقاء في الموقع، وفي تلك الأيام الكئيبة وصل به الأمر لأن يهمل شاربه لأول مرة في حياته فصار متدلياً على الجانبين وفقد العناية التي كان يوليه إياها على الدوام.

كان يوم جمعة عندما وصلت الرسالة الثالثة. وصل بريد المساء في الساعة العاشرة تقريباً، وعندما سمعنا خطوات ساعي البريد المعتادة والطرقات السريعة على الباب نهضت واتجهت مباشرة إلى صندوق البريد، فوجدت فيه أربع رسائل حسبما أتذكر، وكان العنوان على واحدة منها مدوناً بحروف مطبوعة.

صحت: بوارو...

ثم تلاشى صوتي، فسألني: هل وصلت؟ افتحها بسرعة يا هيستنغز، فسوف نحتاج لكل لحظة. يجب أن نبدأ بتحركنا على الفور.

فتحت المغلف بعشوائية (ولأول مرة لم يعاتبني بوارو بسبب عدم فتحه بإتقان) وأخرجت منه الرسالة المطبوعة، وطلب مني بوارو قراءتها فقرأتها بصوت مرتفع:

السيد بوارو المسكين،

أنت لست على ما يرام بسبب هذه الأعمال الإجرامية الصغيرة. بالأحرى لقد تجاوزتَ سنّ الشباب، أليس كذلك؟

فلنرَ إن كنت ستتصرف بشكل أفضل هذه المرة، فهي ستكون سهلة. جيرْستون يوم الثلاثين من الشهر. حاول

أن تفعل شيئاً في هذه المسألة، من الغباء بعض الشيء
أن أفعلها كلها بنفس الطريقة.

أتمنى لك صيداً موفقاً.

المخلص «أ ب ج»

قلت وأنا أفتح دليل القطارات: جيرستون، أين هي؟

قاطعني صوت بوارو الحادّ: هيستنغز، متى كُتبت هذه الرسالة؟ هل عليها تاريخ؟

نظرت إلى الرسالة بيدي وقلت: كُتبت في السابع والعشرين من الشهر.

- هل أسمعك جيداً يا هيستنغز؟ هل حدد تاريخ الجريمة بالثلاثين من الشهر؟

- هذا صحيح. إنه...

- عجباً يا هيستنغز، ألا تدرك أن اليوم هو الثلاثون من الشهر؟!

أشارت يده إلى التقويم المعلَّق على الجدار، فتناولت صحيفة اليوم لأتأكد ثم قلت متلعثماً: يا إلهي! كيف...

تناول بوارو المغلّف الممزق من الأرض. كان قد انطبع في ذهني بصورة غامضة أمر غير عادي بشأن العنوان، ولكني كنت مهتماً بمحتويات الرسالة أكثر من تمضية الوقت في الانتباه إليه. في تلك الأيام كان بوارو يعيش في مجمع سكني اسمه «وايتهافن مانشنز»، وقد طُبع العنوان على الظرف بالخطأ باسم مجمع

«وايتهورس مانشنز»، ولاحظت أن دائرة البريد شطبت العنوان وكتبت هذه الملاحظة: "غير معروف في وايتهورس مانشنز، غير معروف في وايتهورس كورت، تحوَّل الرسالة إلى وايتهافن مانشنز".

هتف بوارو: يا إلهي! حتى المصادفات تساعد هذا المجنون! بسرعة، بسرعة، يجب أن نتصل بأصدقائنا في سكتلنديارد.

بعد دقيقتين كنا نتحدث مع كروم بجهاز اللاسلكي، وقد فوجئ وخرجت من فمه شتائم متلاحقة سريعة! سمع منا التفاصيل المتوفرة ثم أنهى الحديث لكي يتصل بجيرستون بالهاتف بأسرع وقت ممكن.

همس بوارو: لقد فات الأوان!

على الرغم من عدم شعوري بأمل كبير فقد جادلته قائلاً: لا يمكنك أن تكون واثقاً.

نظر إلى الساعة وقال: الساعة الآن هي العاشرة والثلث. بقيت ساعة وأربعون دقيقة على انتهاء هذا اليوم.

فتحت دليل القطارات وقرأت: "جيرستون، ديفون، ٢٠٤ أميال من محطة بادنغتون، عدد السكان ٦٥٦ شخصاً". ثم قلت: إنها تبدو مكاناً صغيراً جداً ومن المؤكد أن رجلنا سوف يلاحَظ فيها بسهولة.

قال بوارو: ومع ذلك ستُزهَق روح أخرى! ما هي القطارات؟ أتصور أن القطار سيكون أسرع من السيارة.

- أقربها هو قطار منتصف الليل وفيه عربات نوم، يتجه إلى

نيوتون أبوت فيصلها في السادسة صباحاً، ثم يصل إلى جيرستون في السابعة والربع.

- هل ينطلق من محطة بادنغتون؟

- نعم.

- إن سنستقلّ هذا القطار يا هيستنغز.

- لن يتوفر الوقت للحصول على أخبار قبل أن ننطلق.

- وهل يهمّ لو استلمنا الأخبار السيئة هذه الليلة أو صباح الغد؟

وضعت بعض الأغراض في حقيبة سفر صغيرة بينما أجرى بوارو اتصالاً تلفونياً بإدارة سكتلنديارد مرة أخرى، وبعد بضع دقائق جاء إلى غرفة النوم وسألني: ماذا تفعل عندك؟

- كنت أحزم أغراضك، ظننت أن من شأن هذا العمل أن يوفر الوقت.

- يا لحماستك الهائلة! لكن هل هذه طريقة ممناسبة لطيّ المعطف؟ وانظر إلى ما عملته مع بيجامتي! لو انكسرت زجاجة شامبو الشعر فماذا سيحدث لها؟

صحت: يا إلهي! ماذا أصابك يا بوارو؟ إنها مسألة حياة أو موت وأنت تهتم بالملابس بهذا الشكل؟

- للأسف ليس عندك شعور بالتناسق يا هيستنغز! نحن لن نتحرك قبل الموعد الذي سيغادر فيه القطار، وإتلاف ملابس المرء

لن يساعد إطلاقاً في منع جريمة قتل.

أخذ حقيبة سفره منّي وبدأ يحزم أغراضه بنفسه، وأوضح أننا سنأخذ الرسالة والمغلّف معنا إلى بادنغتون، وهناك سيقابلنا شخص مفوّض من شرطة سكتلنديارد.

* * *

عندما وصلنا إلى رصيف المحطة كان أول شخص رأيناه هو المفتش كروم، وقد أجاب على نظرة بوارو المتسائلة قائلاً: لا أخبار حتى الآن. رجالنا يراقبون، وكل الأشخاص الذين تبدأ أسماؤهم بحرف الجيم وصلهم تحذيرنا بالهاتف كلما كان الوصول إليهم ممكناً. أين الرسالة؟

قدمها له بوارو، ففحصها وهو يشتم بصوت خافت: يا له من حظ لعين!

- هل تظن أنه ارتكب هذا الخطأ متعمداً؟

هز كروم رأسه بالنفي وقال: لا، فلديه قوانينه، وإن تكن قوانين مجنونة فهو يلتزم بها. إنه يعطي تحذيراً واضحاً ويسجل به نقطة. حتى لو لم يحدث شيء بفعل الحظ الذي لا يصدَّق فإن جيرستون هي المكان، إن مجرمنا موجود هناك (أو أنه كان هناك اليوم)، وقد طلبت من أحد رجالي أن يبقى بقرب الهاتف هنا حتى الدقيقة الأخيرة ليخبرني بأي جديد قد يصل إليه.

عندما بدأ القطار يتحرك استعداداً للانطلاق من المحطة شاهدنا رجلاً يركض باتجاه الرصيف، ثم وصل إلى نافذة القطار

التي أطلّ منها المفتش كروم وأخبره بشيء. وبينما كان القطار يبتعد عن المحطة أسرعت أنا وبوارو إلى مقصورة المفتش وطرقنا الباب، ففتحه كروم بسرعة، وسأله بوارو: عندك أخبار، أليس كذلك؟

قال كروم بهدوء: إنها أسوأ ما يمكن أن تكون عليه؛ لقد عُثر على السير مايكل جيركل ورأسه مهشَّم.

على الرغم من أن اسم السير مايكل لم يكن معروفاً جيداً للعامة إلا أنه كان رجلاً رفيع المقام وكان فيما مضى أخصائي حنجرة بالغ الشهرة، وقد تقاعد من وظيفته بعدما جمع ثروة كبيرة استغلها في هوايته المفضلة، وهي اقتناء مجموعات الفخار الصيني والبورسلان، وكان يملك إحدى أفضل مجموعات التحف الصينية. وكان متزوجاً ولكنه لم ينجب أطفالا، وقد عاش أخيراً في بيت بناه لنفسه قرب ساحل ديفون، وكان يزور لندن في مناسبات نادرة فقط، كالمشاركة في المزادات الفنية الكبيرة على سبيل المثال.

كان المتوقع أن وفاته التي أعقبت وفاة الشابة الجميلة بتي برنارد ستُحدث أكبر ضجة صحفية منذ سنوات، ومما زاد الأمور سوءاً أن شهر آب (أغسطس) هو موعد العطلة السنوية للشركات والمؤسسات، مما جعل الصحف في حاجة ماسة لأي موضوع مهم تشغل به القراء.

قال بوارو: هذا جيد، فمن الممكن أن يحقق انتشار الخبر ما فشلت في عمله الجهود الخاصة، فمنذ الآن سيساعد كل سكان إنكلترا في البحث عن مجرمنا المجهول.

قلت: لسوء الحظ، هذا هو ما يريده.

- صحيح، ولكن رغم ذلك قد يكون هذا سبباً في تحطيم آماله، فقد يصبح غيرَ مبال مع نشوة النجاح، والذي أرجوه أن يكون ذكاؤه قد أوصله إلى النشوة.

صحت فجأة وقد خطرت ببالي فكرة: كم هذا غريب يا بوارو! هل تعرف أن هذه هي أول جريمة قتل من هذا النوع نعمل فيها معاً، فجميع المجرمين الذي تعاملنا معهم في الماضي كانوا... ماذا أسميهم؟ كانوا قَتَلة خاصين.

- أنت محق تماماً يا صديقي. حتى الآن كنّا نبدأ العمل دائماً من الداخل، كان المهم هو شخصية الضحية وتاريخها وكانت الأسئلة المهمة هي: من استفاد من الوفاة؟ ما هي الفرص التي جعلته يرتكب الجريمة؟ لقد كانت دائماً جريمة خاصة. هنا ولأول مرة في عملنا نواجه جريمة قتل غير شخصية تُرتكَب بدم بارد، قتل من الخارج.

ارتجفت وقلت: إنه أمر مرعب!

- نعم، لقد شعرت منذ البداية بشيء مشوّه على غير ما يُرام، منذ أن قرأت الرسالة الأولى. لكن على المرء أن لا يستسلم لهواجسه، فهي ليست أسوأ من أي جريمة عادية.

- بل هي أسوأ.

- هل هي أسوأ لأنها تزهق أرواح غرباء لا تعرفهم وليس روحَ شخص قريب أو عزيز عليك يثق بك ويعتمد عليك؟

- لا، بل هي أسوأ لأنه مجنون.

- لا يا هيستنغز، إنها ليست أسوأ؛ إنها فقط أكثر صعوبة.

- لا أتفق معك في هذا الرأي، بل إنها أكثر رعباً بالفعل.

قال بوارو متأملاً: يجب أن يكون اكتشافها أسهل لأنه مجنون. إن الجريمة التي يرتكبها شخص ماكر سليم العقل تكون أكثرَ تعقيداً بكثير. لو أن المرء يعرف ما هي الفكرة هنا! إن القتل حسب الحروف الأبجدية يحتوي على تناقضات، لو أن الواحد عرف الفكرة فإن كل شيء سيغدو واضحاً وبسيطاً.

تنهد وهز رأسه ثم أضاف: لا ينبغي لهذه الجرائم أن تستمر؛ يجب أن أعرف الحقيقة في الحال، في الحال. هيا بنا لننال قسطاً من النوم فسيكون أمامنا الكثير من العمل لنقوم به غداً.



الفصل الخامس عشر

السير مايكل جيركل

تقع جيرستون بين بريسكهام وبيغنتون وتوركي وتحتل موقعاً في منتصف منعطف توربي، وحتى عشر سنوات خلت كانت موقعاً لملاعب الغولف، وتحت الملاعب منحدر أخضر يمتد حتى البحر وفيه مزرعة واحدة، ولكن حركة عمران كبيرة ظهرت في السنوات الأخيرة بين جيرستون وبنغنتون فامتلأ الشريط الساحلي ببيوت صغيرة مبعثرة وطرق جديدة. وقد اشترى السير مايكل قطعة أرض تطل على منظر جميل على البحر مباشرة، وكان تصميم البيت الذي بناه أبيض اللون ومن طراز حديث مستطيل يسرّ الناظر إليه، وفيه قاعتان كبيرتان خصصهما لمجموعة التحف والمقتنيات الخاصة.

وصلنا في الثامنة صباحاً حيث استقبلَنا في المحطة ضابطُ شرطة محلي وشرح لنا الوضع. كان السير مايكل جيركل معتاداً على المشي كل مساء بعد العشاء، وعندما اتصل به قسم الشرطة بعد الحادية عشرة (ضمن المكالمات التحذيرية التي أجروها مع كل الضحايا المحتمَلين) لم يكن قد عاد إلى البيت بعد، وحيث إنه كان معتاداً على المشي في الطريق نفسه كل ليلة فلم يستغرق البحث عنه وقتاً طويلاً قبل أن يكشف فريق البحث جثته. وقد حصلت الوفاة نتيجة ضربة قوية على قفا الرأس بأداة ثقيلة، وعُثر

على دليل القطارات مفتوحاً ومقلوباً إلى الأسفل فوق جثة القتيل.

وصلنا إلى بيت السير مايكل في نحو الساعة الثامنة، ففتح لنا البابَ خادمٌ عجوز ظهرت آثارُ المأساة في يديه المرتجفتين ووجهه المضطرب. قال ضابط الشرطة المحلية: صباح الخير ديفيريل.

- صباح الخير يا سيد ويلز.

- هؤلاء الرجال من لندن يا ديفيريل.

- تفضلوا من هذا الطريق يا سادة.

أرشدنا إلى حجرة طعام طويلة حيث وُضع طعام الإفطار ثم قال: سأنادي السيد فرانكلين.

بعد وقت قصير دخل الغرفة رجل ضخم أشقر الشعر بوجه سفعته أشعة الشمس، كان ذلك هو فرانكلين جيركل، الشقيق الوحيد للرجل القتيل، وكان يتصرف باقتدار كرجل اعتاد على مواجهة الظروف الطارئة.

قال: صباح الخير يا سادة.

قدّمنا المفتش ويلز إليه: هذا هو المفتش كروم من المباحث الجنائية، وهذا السيد هيركيول بوارو، وهذا الكابتن هايتر.

صحّحت الاسم ببرود: هيستنغز.

صافح فرانكلين كل واحد منّا بالترتيب، وفي كل مرة كانت المصافحة مقرونة بنظرة خارقة. ثم قال: دعوني أقدم لكم طعام الإفطار، ونستطيع مناقشة المسألة ونحن نأكل.

لم يعترض أحد، وفي الحال أخذنا مقاعدنا أمام الطاولة وبدأنا بتناول البيض واللحم والقهوة.

قال فرانكلين جيركل: ندخل الآن في الموضوع. لقد زودني المفتش ويلز بفكرة تقريبية عن الوضع الليلة الماضية، وفهمت أن أخي المسكين هو ضحية مجنون مهووس بالقتل وأن هذه ثالث جريمة يرتكبها، وفي كل جريمة كان يُعثَر على دليل القطارات الأبجدي بجانب الجثة. هل هذا صحيح؟

- هذا هو الوضع بصورة إجمالية يا سيد جيركل.

- ولكن لماذا؟ أي فائدة يمكن أن تظهر من جريمة كهذه حتى في أسوأ التصورات؟

أومأ بوارو برأسه موافقاً وقال: لقد دخلت في الموضوع مباشرة يا سيد فرانكلين.

قال المفتش كروم: ليس من المفيد البحث عن الدوافع في هذه المرحلة يا سيد جيركل، فهي مسألة تخص الطبيب النفسي، ولكن يمكنني القول إن عندي خبرة محدودة في الجنون الإجرامي، حيث تكون الدوافع غير واضحة إجمالاً، فقد تكون رغبة المجرم في فرض شخصيته والتباهي أمام الناس.

- هل هذا صحيح يا سيد بوارو؟

بدا فرانكلين ميّالاً إلى الشك، ولم يَلقَ سؤاله للرجل الأكبر سناً الرضا من المفتش كروم الذي قطب حاجبيه.

ردّ صديقي قائلاً: إنه صحيح تماماً.

قال فرانكلين مفكراً: على أي حال فإن مثل هذا الرجل لا يمكنه الاختفاء طويلاً.

قال بوارو: لكنه شخص ماكر، ويجب أن تتذكر أن هذا النوع من الناس يُهمَلون في العادة ولا يُلتَفَت إليهم ولا يكاد يشعر الآخرون بوجودهم، لذلك فإن اختفاءه لن يكون أمراً عسيراً بحال.

قال المفتش كروم وهو يقطع الحديث: أرجو أن تعطيني بعض الحقائق يا سيد جيركل.

- بالتأكيد.

- لقد فهمت أن أخاك كان في صحته الكاملة ومعنوياته العادية بالأمس، وهو لم يستلم أي رسائل غير متوقعة، لا شيء كان يزعجه، أليس كذلك؟

- بلى، يمكنني القول بأنه كان طبيعياً كعادته.

- ولم يكن منزعجاً أو قلقاً بأي حال.

- عفواً يا حضرة المفتش، أنا لم أقل ذلك. إن الانزعاج والقلق كانا حالته العادية.

- ما السبب؟

- قد لا تعرف أن زوجة أخي، الليدي جيركل، كانت بصحة سيئة جداً. بصراحة (والكلام بيننا) إنها تعاني من سرطان عُضال ولن تعيش طويلاً، وقد استحوذ مرضها على عقل أخي بصورة مرعبة. أنا شخصياً عدت من الشرق قبل فترة قصيرة وصُدمت بالتغير الذي حدث له.

أقحم بوارو نفسه بسؤال: افترضْ -يا سيد جيركل- أن أخاك وُجد مقتولاً بالرصاص أسفل منحدر صخري ومسدس إلى جانبه، فماذا ستكون فكرتك الأولى؟

- بصراحة كنت سأقفز إلى نتيجة أن الحادثة كانت انتحاراً.

قال بوارو: أنت أيضاً!

- ماذا يعني هذا؟

- حقيقة تكرر نفسها، لا تهتم.

قال كروم بتعقيب فيه غلظة: على أي حال فإن موته لم يكن انتحاراً. حسناً، أعتقد أن من عادة أخيك أن يتمشى كل مساء، أليس كذلك يا سيد جيركل؟

- صحيح تماماً، كان يفعل ذلك دائماً.

- كل ليلة؟

- حسناً، من الطبيعي أنه لم يكن ليخرج إذا كان الجو ماطراً.

- وهل كان كل واحد في البيت يعرف عنه عادته هذه؟

- بالطبع.

- وفي الخارج؟

- لا أعرف بالضبط ماذا تعني بقولك "في الخارج". ربما عرف البستاني مثلاً وقد لا يعرف، لا أستطيع أن أجزم.

- وفي القرية؟

- ليس لدينا قرية بمعنى الكلمة هنا، فقط مكتب بريد وأكواخ في جيرستون فيريز، ولكن لا توجد قرية أو دكاكين.

- أظن أنه من السهل ملاحظة رجل غريب يدور في المكان، أليس كذلك؟

- بالعكس، ففي شهر آب (أغسطس) يعجّ هذا المكان بالغرباء؛ يأتون كل يوم من بريكسهام وتوركي وبيغنتون في السيارات والحافلات ومشياً على الأقدام. إن شاطئ برودساندز (وهو في الأسفل هناك) مشهور جداً، وكذلك إلبوري كوف، إنها منطقة معروفة بجمالها ويأتي الناس إليها للنزهة. أتمنى لو أنهم لا يأتون! أنت لا تعلم كم كان هذا المكان هادئاً جميلاً في شهر حزيران (يونيو) قبل أن تبدأ العطلة.

- إذن فأنت لا تظن أن من شأن الغريب أن يلاحَظ بسهولة؟

- بالتأكيد، إلا إذا فقد عقله.

قال كروم متأكداً: هذا الرجل لم يفقد عقله، هل تفهم ما أرمي إليه يا سيد جيركل؟ لا بد أن هذا الرجل كان يستكشف المكان مسبقاً وعلم أن من عادة أخيك المشي في المساء. على فكرة، هل يمكن أنّ رجلاً غريباً جاء إلى البيت وطلب مقابلة أخيك بالأمس؟

- هذا ما لا أعرفه، لكن يمكننا سؤال ديفيريل.

قرع الجرس فجاء الخادم، وسأله هذا السؤال فقال: لا يا سيدي، لم يأتِ أحد لمقابلة السير مايكل، ولم ألاحظ أي

شخص يتسكع قرب البيت أيضاً. ولا الخادمات لاحظنَ ذلك، لقد سألتهنّ.

- شكراً يا ديفيريل، يمكنك الذهاب.

خرج الخادم وابتعد عن مدخل الباب لكي يسمح لامرأة شابة بالمرور، وبينما كانت تدخل نهض فرانكلين جيركل قائلاً: هذه الآنسة غري يا سادة، سكرتيرة أخي.

تعلق نظري على الفور بجمال الفتاة الإسكندنافي غير العادي. كان شعرها رمادياً لامعاً وعيناها رماديتين برّاقتين مع شحوب واضح يجده المرء فقط بين النرويجيين والسويديين، وبدا لي أنها في نحو السابعة والعشرين من عمرها.

سألت وهي تجلس: هل يمكن أن أساعدكم بأي طريقة؟

أحضر لها جيركل فنجان قهوة، ولكنها رفضت تناول أي طعام، وسألها كروم: هل كنت تتعاملين مع رسائل السير جيركل؟

- نعم، جميعها.

- أظن أنه لم يستلم أبداً رسالة أو رسائل موقّعة بالحروف الأبجدية الأولى «أ ب ج»، أليس كذلك؟

هزت رأسها بالنفي وقالت: أنا متأكدة أنه لم يفعل.

- هل ذكر رؤيته لأي شخص يتسكع في المكان أثناء مشيه في المساء مؤخراً؟

- لا، لم يذكر أبداً شيئاً من هذا القبيل.

- وأنت شخصياً، ألم تلاحظي أي غرباء؟

- لم يكونوا يتسكعون تماماً. بالطبع يوجد هنا كثير من الناس يمكن أن تقول إنهم يتجولون في المكان في هذا الوقت من السنة، غالباً ما يلتقي المرء بأناس يمشون في المكان دون هدف، على ملاعب الغولف أو في الطرق التي تؤدي إلى البحر. من الناحية العملية كل واحد نراه في هذا الوقت من السنة يكون غريباً.

أومأ بوارو برأسه موافقاً وهو يتأمل. وطلب المفتش كروم أن يؤخَذ إلى المكان الذي كان من عادة السير مايكل أن يسير فيه في المساء، فقاده فرانكلين جيركل خارجاً من الغرفة ورافقتنا الآنسة غري.

كنت أنا وهي نسير خلف الآخرين تقريباً فقلت لها: لا بد أن الأمر كان صدمة عنيفة لكم جميعاً؟

- إنه عمل يصعب تصديقه. لقد ذهبتُ للنوم الليلة الماضية عندما اتصل الشرطة بالهاتف، فسمعت أصواتاً في الطابق السفلي، وفي النهاية خرجت وسألت عن الأمر. كان ديفيريل والسيد جيركل قد خرجا لتوهما ومعهما مصباح.

- في أي ساعة كان من عادة السير مايكل أن يعود بعد المشي؟

- في نحو العاشرة إلا ربعاً. كان معتاداً أن يدخل من الباب الجانبي، وكان يذهب أحياناً إلى النوم مباشرة وأحياناً أخرى إلى قاعة التحف. لهذا السبب كان من المحتمَل أن لا يُعرَف أنه مفقود إلا في الصباح، إلا أن الشرطة اتصلوا بنا هاتفياً.

- لا بد أن الأمر كان صدمة فظيعة لزوجته؟

- الليدي جيركل تبقى تحت تأثير المورفين لفترة طويلة، وأظن أنها في حالة لا تدرك فيها ما يدور حولها.

عبرنا بوابة الحديقة إلى ملاعب الغولف، وبعد أن مشينا على أطرافها مررنا فوق معبر يؤدي إلى طريق متعرج ومنحدر، وأوضح فراكلين جيركل: هذا الطريق يؤدي إلى أسفل، إلى خليج إلبوري، ولكنهم شقوا طريقاً جديداً قبل سنتين بين الطريق الرئيسي وشاطئ برودساندز ومنه إلى إلبوري، فصار هذا الطريق مهجوراً منذ ذلك الحين.

أكملنا سيرنا إلى أسفل الطريق، وفي نهايته وجدنا طريقاً يوصل إلى البحر عبر نباتات السرخس، وفجأة خرجنا إلى قمة خضراء تطلّ على البحر وشاطئ من الحجارة البيضاء المتلألئة تحيط بها أشجار خضراء كثيفة تمتد حتى البحر. لقد كانت مكاناً ساحراً، أبيض وأخضر وأزرق ضارب إلى الخضرة.

قلت متعجباً: كم هو جميل!

التفت فرانكلين إليّ قائلاً باهتمام: أليس كذلك؟ لماذا يسافر الناس إلى الريفيرا إذا كان عندهم هذا؟! لقد تنقلت في شبابي بين بقاع الدنيا، وللأمانة أقول: لم أرَ في حياتي قط جَمالاً كهذا الجمال.

ثم قال بنبرة واقعية وكأنه شعر بالخجل من عاطفته الجيّاشة: هذا هو الطريق الذي سلكه أخي عندما كان يمشي في المساء، كان يمشي حتى يصل هنا ثم يعود عبر الممر ويدور ناحية اليمين

بدلاً من اليسار ماراً بالمزرعة عبر الحقول حيث وُجدت الجثة.

أومأ كروم برأسه قائلاً: كان الأمر سهلاً جداً. وقف الرجل هنا في الظل، ولم يلاحظ أخوك شيئاً إلى أن وقعت الضربة.

ارتجفت الفتاة التي كانت تقف بجانبي رجفة سريعة، فقال فرانكلين: تمالكي نفسك يا ثورا. إنها حقيقة شريرة ولكن التهرب منها لن يفيد.

فكرت: ثورا غري؟ كان الاسم يناسبها تماماً.

* * *

عدنا إلى البيت حيث كانت الجثة قد نقلت بعد تصويرها، وبينما كنا نصعد الدرج العريض خرج الطبيب من غرفة قريبة وهو يحمل في يده حقيبة سوداء. سأله فرانكلين: هل تود إخبارنا بأي شيء يا دكتور؟

هز الطبيب رأسه بالنفي وقال: إنها قضية بسيطة تماماً. سأحتفظ بالوصف التقني حتى جلسة التحقيق، وعلى أي حال فهو لم يتألم، لا بد أن الوفاة حدثت على الفور. ثم قال: سأدخل وأفحص الليدي جيركل.

خرجت ممرضة من غرفة بعيدة وانضم الطبيب إليها، فدخلنا إلى الغرفة التي خرج منها الطبيب، وعندما خرجتُ بعد هُنَيهة رأيت ثورا غري واقفة عند رأس الدرج وفي وجهها تعبير غريب من الخوف. سألتُها: آنسة غري، هل أزعجك شيء؟

نظرَت إليّ وقالت: كنت أفكر بحرف الدال.

حدقت إليها بغباء وكررت: حرف الدال؟

- نعم، الجريمة التالية. لا بد من عمل شيء، لا بد من وقفها.

خرج فرانكلين من الغرفة ورائي وقال: ما الذي يجب وقفه يا ثورا؟

- أعمال القتل الوحشية هذه.

قال: نعم، ينبغي أن أتحدث مع السيد بوارو. هل ترى أي فائدة من كروم؟

ألقى بالكلمات الأخيرة بصورة غير متوقعة، فأجبته بأنه من المفترض أن يكون ضابطاً ذكياً. ربما افتقر صوتي إلى الحماسة الكافية، وقال فرانكلين: إن أسلوبه مزعج، يوحي للآخرين بأنه يعرف كل شيء، وما الذي يعرفه فعلاً؟ لا شيء على الإطلاق كما يمكنني أن أستنتج.

صمت برهة قصيرة ثم قال: أنا أفضّل السيد بوارو. حسناً، لديّ خطة، ولكننا سنتحدث عنها فيما بعد.

ثم ذهب إلى الممر وطرق باب الغرفة التي دخلها الطبيب، وترددتُ لحظة بينما كانت الفتاة تحدق أمامها ثم سألتها: ما الذي تفكرين فيه يا آنسة غري؟

التفتت إليّ وقالت: أتساءل أين هو الآن؟ أعني المجرم. أين هو الآن وماذا يفعل؟

بدأت القول: إن الشرطة...

أبطلت كلماتي العادية السحر، فقد عادت ثورا غري إلى وعيها وقالت: نعم، بالطبع.

ثم ابتعدت فيما وقفت هناك لحظة أتأمل كلماتها في ذهني: أين هو الآن؟

❋ ❋ ❋

الفصل السادس عشر

(ليس من رواية الكابتن هيستنغز)

خرج السيد ألكساندر بونابارت جاسْت مع بقية المشاهدين من سينما توركي بالادْيوم، وطرفت عيناه قليلاً عندما خرج إلى أشعة شمس المساء ونظر حوله بطريقة تشبه نظرات الكلب الضائع. كانت تلك إحدى صفاته المميزة.

همس قائلاً لنفسه: يا لها من فكرة!

مرّ بجانبه أولاد يبيعون الصحف وهم يصيحون: آخر الأخبار، المجنون المهووس بالقتل في جيرستون... جريمة قتل في جيرستون.

تحسس السيد جاست جيبه فوجد فيها قطعة نقدية، فاشترى صحيفة. ولم يفتحها على الفور، بل دخل حدائق الأميرة وشق طريقه ببطء إلى مكان منعزل يواجه مرفأ توركي، وهناك جلس وفتح الصحيفة. جاء في العنوان الرئيسي: «مقتل السير مايكل جيركل»، وتحته هذه المقالة:

قبل شهر واحد فقط صُدمت إنكلترا ورُوِّعت بمقتل فتاة شابة تدعى إلزابيث برنارد في بيكسهل، ولعل القراء

يذكرون العثور على دليل القطارات الأبجدي مع جثة الفتاة، وقد عُثر على نسخة من الدليل نفسه أيضاً مع جثة السير مايكل جيركل، ويميل الشرطة إلى الاعتقاد بأن الشخص نفسه قد ارتكب كلا الجريمتين. هل يمكن أن يكون هذا المجرم حراً طليقاً يجول في منتجعاتنا الساحلية؟

بالقرب من السيد جاست جلس شاب يرتدي بنطالاً صوفياً ناعماً وقميصاً أزرق لامعاً، قال فجأة: إنه عمل بغيض، أليس كذلك؟

جفل السيد جاست وقال: آه، جداً جداً.

لاحظ الشاب أن يدَي السيد جاست كانتا ترتجفان فلم يستطع الإمساك بالصحيفة جيداً. ثم قال بأسلوب طبيعي: أنت لا تعرف المجانين أبداً. إنهم لا يَبدون مجانين دائماً، بل إنهم يظهرون في الغالب طبيعيين مثلك ومثلي تماماً.

قال السيد جاست: صحيح، لعلهم كذلك.

- إنها حقيقة. أحياناً تكون الحرب هي السبب الذي شوّش عقولهم، ثم لا يتعافون أبداً.

- أظن أظن أنك على حق.

قال الشاب: أنا لا أوافق على الحروب.

التفت رفيقه إليه وقال: أنا لا أوافق على الطاعون والعجز والسرطان، ولكن مع ذلك فهي تحدث!

قال الشاب مع التأكيد: الحرب يمكن منعها.

ضحك السيد جاست، ضحك بعض الوقت، فانزعج الشاب قليلاً وحدّث نفسه قائلاً: "إنه شخص معتوه"! ثم قال بصوت مرتفع: آسف يا سيدي، أظن أنك شاركت في الحرب؟

قال السيد جاست: نعم، كنت فيها. لقد شوّشَتني، لم يعد رأسي على ما يرام منذ الحرب. إنه يؤلمني، يؤلمني كثيراً.

قال الشاب على نحو أخرق: آه، آسف لأجلك.

- أحيانا لا أعرف ما الذي أفعله.

- حقيقة؟ حسناً، لا بد أنني أطلت الحديث معك.

قال الشاب جملته الأخيرة وابتعد مسرعاً، فقد كان يعرف أن الناس لا يتوقفون عن الكلام إذا بدؤوا بالحديث عن صحتهم.

بقي السيد جاست مع صحيفته، فقرأها وأعاد القراءة. وكان الناس يمرون أمامه جيئة وذهاباً وأكثرهم يتحدثون عن جريمة القتل: عمل فظيع ... هل تعتقدين أن للصينيين علاقة بالأمر؟ ألم تكن النادلة برنارد تعمل في مقهى صيني؟ ... كانت في الحقيقة في ملعب الغولف ... سمعت أنها كانت على الشاطئ ... لا بد أن الشرطة سيصلون إليه ... ربما كان في توركي الآن ... لقد قتل امرأة أخرى اسمها...

طوى السيد جاست الصحيفة بترتيب ووضعها على المقعد، ثم نهض وسار باتجاه البلدة بهدوء. مرت الفتيات بجانبه، فتيات

يرتدين الأبيض والوردي والأزرق، كُنّ يتحدثنَ ويتضاحكن، ولم يلتفتنَ ولو لحظة واحدة إلى السيد جاست، فجلس إلى طاولة صغيرة وطلب كوباً من الشاي.

❋ ❋ ❋

الفصل السابع عشر
مراوحة الخُطى

بمقتل السير مايكل جيركل قفز لغز قاتل الحروف الأبجدية إلى أقصى درجات الشهرة، فملأت أخباره الصحف التي تفننت في عرض التفاصيل: أنباء عن اكتشاف الأدلة التي ستقود إلى المجرم، صور لكل شخص أو مكان له علاقة بالجريمة من قريب أو بعيد، مقابلات مع أي شخص يعرف عن الجريمة أي شيء، أسئلة طُرحت في البرلمان... وقد صار اقتران الجرائم الثلاث معاً أمراً شائعاً في الصحف بعد الجريمة الأخيرة. وكان اعتقاد شرطة سكتلنديارد أن الإعلان الكامل سيوفر فرصة للقبض على القاتل، وقد جعل سكان البلاد جيشاً من الشرطة السرية الهواة.

كان بوارو على رأس التغطية الصحفية، وقد نُشرت أخبار الرسائل التي أرسلت إليه، وتلقى هجوماً شديداً لأنه لم يمنع وقوع الجرائم ودفاعاً مشرفاً باعتباره على وشك اكتشاف القاتل: ماذا يقول السيد بوارو اليوم... السيد بوارو يقترب من النجاح... الكابتن هيستنغز، الصديق المقرب من السيد بوارو، يتحدث إلى مراسلنا الخاص...

اضطررت إلى الدفاع عن نفسي قائلاً: أرجوك أن تصدقني

يا بوارو، أنا لم أقل أي شيء من هذا الكلام أبداً.

وكان رد صديقي اللطيف: أعرف يا هيستنغز، أعرف. لا تزعج نفسك، فهذه الحماقات قد تساعدنا.

- كيف؟

قال بوارو متجهماً: حسناً، إذا قرأ مجنوننا ذاك ما يُفترَض أنني قلته لهذه الجريدة فسوف أفقد مكانتي عنده كخصم جدير بالاحترام، وسوف يشعر أن اهتمامي بالقضية فتَرَ كثيراً وأنني لا أقوم بواجبي جيداً.

في الحقيقة كان العكس هو الذي يحصل في ذلك الوقت، فإدارات شرطة سكتلنديارد والشرطة المحلية في عدة مدن كانت لا تكلّ في متابعة أصغر الأدلة، وقد شملت التحريات الفنادق وأصحاب البيوت المؤجرة وكل من له علاقة بالجرائم من قريب أو بعيد، وفُحصت مئات القصص التي رواها أصحاب الخيال الذين شاهدوا رجالاً غرباء، ولم يتجاهل المحققون أي معلومة مهما بدت غريبة وغامضة، وامتد البحث إلى محطات القطارات والحافلات وأكشاك الكتب والمكتبات، وخضع عشرات الأشخاص المشتبَهين للتحقيق والسؤال عن تحركاتهم في الليلة التي وقعت فيها الجريمة.

وإذا كان كروم وزملاؤه لم يكلّوا فقد كان بوارو كسولاً بصورة غريبة، وكنا نتجادل بين الفينة والأخرى فيرد عليّ قائلاً: ولكن ماذا تريدني أن أفعل يا صديقي؟ الشرطة يُجرون التحقيقات الروتينية بصورة أفضل منّي، وأنت دائماً، دائماً تريدني أن أركض

هنا وهناك كأني واحد من كلاب الأثر.

- بدلاً من أن تجلس في البيت مثل...

- أنا رجل كبير في السن يا هيستنغز، وقوتي في دماغي وليست في أقدامي! في الوقت الذي أبدو لك فيه كسولاً فإنني أشغل نفسي بالتفكير.

صحت: تفكر؟ هل هذا وقت التفكير؟!

- نعم، نعم ألف مرة.

- ولكن ما الذي ستكسبه من التفكير؟ أنت تعرف حقائق القضايا الثلاث عن ظهر قلب.

- أنا لا أفكر بالحقائق، بل بعقل القاتل.

- تفكر بعقل رجل مجنون!

- نعم، وهذا أمر لا يمكن الوصول إليه بسرعة. عندما أفهم القاتل سأنجح في كشفه، وأنا أتعلم أكثر مع الوقت. ماذا عرفنا عن القاتل من جريمة أندوفر؟ لا شيء على الإطلاق. وبعد جريمة بيكسهل؟ أكثر قليلاً. وبعد جريمة جيرستون؟ أيضاً أكثر. بدأت أرى القاتل، ليس صورة وجهه وشكله وإنما صورة عقله، ذلك العقل الذي يتحرك ويعمل في اتجاهات معينة واضحة بعد الجريمة التالية...

قاطعته: بوارو!

نظر صديقي إليّ ببرود وقال: نعم يا هيستنغز، من المؤكد

تقريباً أن جريمة جديدة ستقع، وبعدها سنعرف أكثر بالتأكيد. إن الجريمة تكشف عن فاعلها بصورة كبيرة. جرِّبْ ونوِّع أساليبك كما تريد، لكن أذواقك وعاداتك واتجاهك العقلي وروحك سوف تتكشف من أفعالك. أحياناً تواجه مؤشرات مربكة وكأن عقلين يعملان معاً، ولكن عندما توضح الصورة نفسها فسوف أعرف في الحال.

- من هو؟

- لا يا هيستنغز، لن أعرف اسمه وعنوانه! سوف أعرف أي نوع من الرجال هو فحسب.

- وبعدها؟

- سأذهب إلى الصيد.

بقيت حائراً فتابع كلامه: أنت تعرف يا هيستنغز أن صيّاد السمك الخبير يعرف ما هو الطُّعم الذي يقدمه لكل سمكة، وأنا سأقدم الطعم الصحيح.

- وبعدها؟

- بعدها؟ بعدها سيلتقم الطعم السام فنسحب الخيط.

- في ذلك الوقت يكون الناس قد ماتوا في كل مكان.

- تذكر أن أكثر من مئة شخص يموتون في حوادث الطرق كل أسبوع، أليس كذلك؟

- الأمر هنا مختلف تماماً.

- هو نفسه بالنسبة للناس الذين يموتون، أما الآخرون، أقاربهم وأصدقاؤهم فنعم، يوجد اختلاف. ولكنّ في هذه القضية شيئاً واحداً يبهجني على الأقل.

- دعنا نسمع أي شيء يدعو إلى البهجة.

- لا فائدة من تهكمك. إنها تبهجني لأن الضحية البريئة لن يحزنها أي قدر ضئيل من الشعور بالذنب.

- أليس هذا أسوأ؟

- لا، لا وألف لا، فلا شيء يخيف ويزعج كالعيش في جو من الشبهة، ترى العيون تراقبك ويتحول حبهم لك إلى خوف منك! إنه شعور سامّ خانق. لا يمكننا اتهام مجرمنا الأبجدي بتسميم حياة الأبرياء.

قلت بمرارة: كأنك على وشك اختلاق الأعذار للرجل!

- ولِمَ لا؟ قد يرى عمله مبرَّراً، ربما ينتهي بنا الأمر إلى التعاطف مع وجهة نظرة.

- أهذه حقيقة يا بوارو؟!

- للأسف، لقد صدمتك أولاً بكسلي ثم بهذه الفلسفة! رغم ذلك فإن عندي مشروعاً سيسعدك، ولكنه سيستلزم منك الكثير من الجهد، ولا يوجد فيه تفكير متعب.

لم أحب إيحاءاته فسألته بحذر: وما هو؟

- الحديث مع أصدقاء وأقارب وخدم الضحايا لاستخلاص

كل ما يعرفونه.

- إذن أنت تشك أنهم لم يقولوا كل ما عندهم؟

- ليس عمداً، ولكنْ كما تعلم فإن تقديم الإفادات يتضمن دائماً نوعاً من الانتقاء. مثلاً لو طلبت منك أن تسرد عليّ ما عملتَه البارحة فربما تجيبني قائلاً: استيقظت في التاسعة وتناولت الإفطار في التاسعة والنصف وأكلت فيه بيضاً وشربت قهوة ثم ذهبت إلى النادي... لكنك لن تقول: كسرت ظفري واضطررت لقَصّ طرفه وسكبت بعض القهوة على غطاء الطاولة ونظفت قبعتي ووضعتها على رأسي... إن المرء لا يمكنه أن يقول كل شيء، لذلك فإنه يختار، وعندما يتعلق الأمر بجريمة قتل يختار الناس ما يعتقدون أنه مهم، ولكن اعتقادهم لا يكون صحيحاً بالضرورة.

- وكيف يصل المرء إلى الأمور الصحيحة؟

- ببساطة وكما أخبرتك قبل قليل: عن طريق الحديث، مناقشة حدث معين أو شخص معين أو يوم معين مرة تلو الأخرى، ومن ثم تبدأ التفاصيل المتوارية بالظهور.

- أي نوع من التفاصيل؟

- لا أعرف بدقّة، ولكن مضى الآن وقتٌ كافٍ لكي تستعيد الأمور العادية قيمتها. إن عدم وجود حقيقة واحدة أو جملة واحدة ذات معنى في ثلاث جرائم قتل يناقض قوانين الاحتمالات. لا بد من حدث تافه أو ملاحظة تافهة تكون مفتاحاً أو مؤشراً للطريق الصحيح. إنه مثل البحث عن إبرة في كومة قش، أنا أعترف بهذا القدر من الصعوبة، ولكنّ في كومة القش إبرة، هذا ما أنا مقتنع به.

بدا لي كلامه غامضاً جداً، فقال: ألا تفهمها؟ خذ هذه لعلها تساعدك على التفكير.

قدم لي رسالة مكتوبة بصورة أنيقة بخط يد متحمسة، وقرأت فيها:

سيدي العزيز،

أرجو أن تعذرني بسبب اجترائي على الكتابة إليك. لقد فكرت كثيراً منذ وقوع جريمتَي القتل البشعتين وما حصل لخالتي المسكينة، وأنا على يقين أننا كلنا في مركب واحد. لقد رأيت صورة الفتاة الشابة في الصحيفة، أقصد الفتاة الشابة التي قُتلت في بكسهيل. وقد تجرأت وكتبت إلى أختها وأخبرتها بأنني سأذهب إلى لندن لمقابلتها هي أو أمها، وقلت لها إن رأسين سيكونان أفضل من رأس واحد! لعلنا نتعاون في معرفة الأمور بشكل أفضل. وقد كتبت لي الفتاة رسالة لطيفة وأخبرتني أنها تعمل في مكتب وتعيش في فندق صغير، واقترحت أن أكتب إليك، وأكدت أنها كانت تفكر بنفس الذي كنت أفكر فيه، أننا نعيش المشكلة ذاتها وعلينا أن نقف معاً. لذلك أكتب إليك يا سيدي لأخبرك أنني قادمة إلى لندن، وهذا هو عنواني.

أرجو أن لا أكون قد أزعجتك بهذه الرسالة، وتقبل احترامي.

ماري دروار

قال بوارو: إنها فتاة ذكية جداً.

ثم التقط رسالة أخرى وقال: اقرأ هذه.

كانت من فرانكلين جيركل وفيها سطر واحد، يقول فيها إنه قادم إلى لندن وسوف يزور بوارو في اليوم التالي إذا كان ذلك مناسباً.

قال بوارو: لا تيأس يا صديقي؛ إن العمل على وشك البداية.

* * *

الفصل الثامن عشر

بوارو يُلقي خطاباً

وصل فرانكلين جيركل في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي ودخل مباشرة في الموضوع دون مقدمات. قال: أنا لست راضياً يا سيد بوارو.

- لماذا يا سيد جيركل؟

- لا أشك بأن كروم ضابط كفء تماماً، ولكنه يثير غضبي بغروره حين يدّعي أنه أفضل من يعرف! لقد ألمحت بشيء من انزعاجي لصديقك هذا عندما كنتما في جيرستون، ولكن كان عليّ أن أسوي شؤون أخي فكنت مشغولاً جداً حتى هذه اللحظة. إن فكرتي هي أن لا نترك الأمور لتفلت من بين أيدينا يا سيد بوارو.

- هذا ما يقوله هيستنغز دائماً.

- علينا أن نكون مستعدين للجريمة التالية.

- إذن فأنت تتوقع جريمة جديدة؟

- ألا تعتقد ذلك أنت أيضاً؟

- بالتأكيد.

- حسناً جداً، إذن أريد أن أكون منظماً.

- أخبرني بفكرتك.

- أقترح أن نكوّن من أصدقاء وأقارب الضحايا نوعاً من «الكتيبة الخاصة» تعمل تحت إمرتك.

- فكرة جيدة.

- أنا سعيد بموافقتك. لو وضعنا رؤوسنا معاً فقد نتوصل إلى شيء. وأيضاً عندما يأتي التحذير التالي قد يتعرف واحد منا على شخص كان قرب مكان الجريمة السابقة.

- أفهم فكرتك وأوافق عليها، ولكن يجب أن نتذكر أن أقارب وأصدقاء الضحايا الآخرين قليلون يا سيد جيركل، وهم مرتبطون بأعمالهم لذلك ستكون حركتهم مقيدة...

قاطعه فرانكلين جيركل: صحيح، أنا الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يدفع الفاتورة. وأنا لست غنياً لكن أخي كان كذلك وسوف تؤول ثروته إليّ. كما قلت: أقترح إعداد كتيبة خاصة وأن يُدفَع للأعضاء عن خدماتهم نفس الرواتب التي يتقاضونها عادة، مع النفقات الإضافية بالطبع.

- ومن تقترح أن تضم هذه الكتيبة؟

- كنت على وشك أن أذكر التفاصيل. لقد كتبت للآنسة ميغان برنارد (وفي الحقيقة فإن هذه فكرتها جزئياً) وأنا أقترحها بالإضافة إلى نفسي، ثم لدينا خطيب الفتاة المقتولة، وابنة أخت المرأة التي قُتلت في أندوفر (الآنسة برنارد تعرف عنوانها) أما

زوجها فلا أظن أنه سيفيدنا بشيء لأنه يبقى ثملاً أكثر الوقت كما سمعت، وأيضاً لا أعتقد أن برنارد الأب والأم يستطيعان المشاركة في الحملة بصورة فعالة لأنهما كبيران في السن.

- ألم تفكر بأي شخص آخر؟

- حسناً، الآنسة غري.

احمرّ وجهه قليلاً عندما ذكر اسمها، فعلق بوارو: آه، الآنسة غري؟

لا أحد في العالم يستطيع تضمين السخرية في كلمتين أفضل من بوارو. نقص عمر فرانكلين جيركل ثلاثين سنة وبدا فجأة كأنه تلميذ مدرسة خجول، قال: نعم، فقد أمضت برفقة أخي سنتين، وهي تعرف الريف والناس الذين حولنا، أما أنا فكنت في الخارج لمدة سنة ونصف.

أحس بوارو بالشفقة عليه فغيّر الحديث: هل كنت في الشرق؟ في الصين؟

- نعم، كلفني أخي بشراء أشياء له من هناك.

- لا بد أنها كانت رحلة ممتعة! جيد يا سيد جيركل، أنا أوافق على فكرتك. أمس فقط قلت لهيستنغز إننا نحتاج إلى التقارب مع الأشخاص المَعنيين، فلا بد من المساهمة بجهد مشترك من أجل استحضار المعلومات ومقارنة الملاحظات، باختصار لكي يتحدث الجميع عن الأمر، فقد يأتي تنوير من عبارة بريئة لم يهتم بها قائلها.

* * *

بعد بضعة أيام التقت «الكتيبة الخاصة» في شقة بوارو، وتحلقوا حول الطاولة ينظرون طائعين إلى بوارو الذي اتخذ مكانه على رأسها كأنه رئيس في اجتماع مجلس إدارة، فيما انشغل ذهني أنا باستعراضهم لكي أؤكد أو أراجع انطباعي الأول عنهم.

الفتيات الثلاث كنّ جميعاً يلفتنَ النظر، جمال ثورا غري غير العادي، والحدّة الغامضة في ميغان برنارد بوجهها الهندي الأحمر الجامد الغريب، وماري دراور بوجهها الجميل الدال على الذكاء وهي تتأنق في معطفها الأسود. ثم فرانكلين جيركل الضخم الثرثار ذو البشرة البرونزية، ودونالد فريزر الذي كان بعكسه تماماً، متحفظاً وهادئاً. وبالطبع لم يستطع بوارو تفويت المناسبة فألقى خطاباً قصيراً قال فيه:

أنتم تعلمون الغرض الذي اجتمعنا من أجله هنا. إن أجهزة الشرطة تبذل أقصى جهودها لتعقب المجرم، وأنا أيضاً أصنع ذلك بطريقتي المختلفة، ولا شك أن جمع شمل الأشخاص الذي لهم اهتمام شخصي بالمسألة (ولهم أيضاً معرفة شخصية بالضحايا) قد تكون له نتائج لا يستطيع التحقيق الرسمي الوصول إليها.

أمامنا هنا ثلاث جرائم قتل: امرأة عجوز وفتاة شابة ورجل كبير. أمر واحد فقط يربط هؤلاء الأشخاص الثلاثة معاً، هو أن شخصاً واحداً قتلهم جميعاً، وهذا يعني أن ذلك الشخص كان موجوداً في أماكن ثلاثة مختلفة وأن عدداً كبيراً من الناس قد شاهدوه بالضرورة. إنه رجل مجنون، لعله وصل إلى مرحلة متقدمة من الجنون، ولكن مظهره وسلوكه لن يوحي بهذه الحقيقة بشكل حتمي. هذا الشخص (وهو قد يكون رجلاً أو امرأة) يتميز بالجنون

الشيطاني الماكر، وقد نجح في إخفاء آثاره بالكامل حتى الآن. ومع ذلك فلا بد أننا سنجد بعض المؤشرات. ولو فكرنا في الأمر فسوف ندرك أنه لم يصل إلى بكسهيل في منتصف الليل ليقابل على الشاطئ بصورة عشوائية فتاة شابة يبدأ اسمها بحرف الباء...

- هل علينا الخوض في هذه التفاصيل؟

كان دونالد فريزر هو الذي تكلم، وبدا في صوته شيء من المرارة والألم، فقال بوارو وهو يلتفت إليه: من الضروري الخوض في كل شيء يا سيد فريزر. كما قلت: لم تكن المصادفة هي التي دلّت القاتل على الضحية بتي برنارد، فلا بد أنه اختار ضحيته بطريقة مدروسة وعن تصميم مسبق، وهذا يعني أنه استكشف المكان مسبقاً ودرس ظروفه كلها: ما أفضل وقت لارتكاب الجريمة في أندوفر؟ كيف سينفذ الجريمة في بكسهيل؟ ما هي عادات السير مايكل جيركل في جيرستون؟

لقد رفضت على الدوام افتراض غياب مؤشر أو تلميح يمكن أن يساعد على تحديد هويته، وافترضت أن أحدكم (أو ربما جميعكم) تعرفون شيئاً لا يعرف أنكم تعرفونه، وعاجلاً أو آجلاً سيظهر كل شيء عن طريق تعاونكم معاً ويتخذ شكلاً متميزاً لم نحلم به حتى الآن. الأمر يشبه لغز الصور المقطَّعة، كل واحد يملك قطعة صغيرة من الصورة ويرى أنها لا معنى لها، ولكنها عندما تُجمَع معاً ستظهر كجزء واضح من الصورة الكلّية.

قالت ميغان برنارد: كلمات!

نظر إليها بوارو إليها متسائلاً فقالت: الذي كنت تقوله، إنه

مجرد كلمات لا تعني أي شيء.

تكلمت بذلك النوع من اليأس الذي ربطته مع شخصيتها، فقال بوارو: إن الكلمات هي الغطاء الخارجي للأفكار يا آنسة.

قالت ماري دراور: حسناً، أحياناً يقرر عقلك شيئاً دون أن تعرف كيف حدث ذلك، ولا شك أن الحديث يوصل إلى نتائج كثيرة بطريقة أو بأخرى.

قال فرانكلين جيركل: كلما كان الكلام أقل كان التصحيح أسرع، هذا هو الحديث الذي نريده هنا.

- ماذا تقول يا سيد فريزر؟

- أنا أشك في إمكانية تطبيق كلامك من الناحية العملية يا سيد بوارو.

قال بوارو: افترضوا أنكم جميعاً بدأتم تتذكرون الوقت الذي سبق جريمة القتل. يمكنك أن تبدأ يا سيد جيركل.

- دعني أتذكر. صباح ذلك اليوم الذي قُتل فيه أخي أبحرت في قاربي، وقد اصطدت ثماني سمكات ماكاريل، ثم تناولت غدائي في البيت، ثم نمت على الأرجوحة الشبكية، ثم تناولت الشاي وكتبت بعض الرسائل، ولم أدرك ساعي البريد فذهبت بسيارتي إلى بيغنتون لإرسال الرسائل. ثم تناولت العشاء، ولا أخجل حين أقول إنني أعدت قراءة رواية نِسْبِت، «أولاد القطار»، التي كنت مولعاً بقراءتها في صغري، ثم رنّ جرس الهاتف...

قال بوارو: هذا يكفي، والآن فكّرْ يا سيد جيركل، هل قابلت

أحداً وأنت في طريقك إلى البحر في الصباح؟

- الكثير من الناس.

- هل يمكنك أن تتذكر أي شيء عنهم؟

- لا أتذكر أي شيء الآن.

- هل أنت متأكد؟

- حسناً، دعني أفكر. أتذكّر امرأة بدينة كانت ترتدي ثوباً حريرياً مخططاً ومعها طفلان، وأتذكر شابين معهما كلب صيد صغير وكانا يرميان الحجارة على الشاطئ. وأتذكر... آه، نعم، كانت هناك فتاة ذات شعر أصفر تصفر بأسنانها... من المضحك كيف يسترجع العقل الذكريات، مثل تحميض الصورة الفوتوغرافية!

- رائع، والآن في وقت لاحق من نفس اليوم: الحديقة، الذهاب إلى البريد...

- كان البستاني يسقي الحديقة، ذهبت إلى مكتب البريد، وكنت على وشك أن أصدم راكبة دراجة هوائية. كانت امرأة غبية تتمايل وتتكلم مع صديقتها... أخشى أن هذا هو كل ما أتذكره.

التفت بوارو إلى ثورا غري: آنسة غري؟

ردت بصوتها الواضح الواثق: أنهيت كتابة المراسلات مع السير مايكل في الصباح، ثم التقيت بمدبرة البيت، وبعدها كتبت بعض الرسائل الخاصة، وأنجزت بعض أعمال التطريز بعد الظهر... من الصعب أن أتذكر أكثر، كان يوماً عاديا تماماً، وقد

ذهبت إلى النوم مبكراً.

لشدة دهشتي لم يسألها بوارو أكثر من ذلك، ثم التفت إلى الآنسة برنارد: آنسة برنارد، هل تستطيعين استرجاع ذكرياتك عن آخر وقت رأيتِ فيه أختك؟

- كان ذلك قبل أسبوعين من وفاتها تقريباً. ذهبتُ إلى بيتنا لقضاء يومَي السبت والأحد، وكان الجو جميلاً، وتجولنا في القرى القريبة.

- هل تذكرين أي شيء من حديثها معك في ذلك الوقت؟

قطبت الفتاة جبينها في محاولة للتذكر ثم قالت: تحدثت عن قبعة وكنزتين صيفيتين كانت قد اشترتهما لتوها، وقليلاً عن دون، وقالت إنها تكره ميلي هغلي، الفتاة التي تعمل في المقهى، وضحكنا على المرأة ميريون التي تدير المقهى... لا أكاد أتذكر شيئاً آخر.

التفت بوارو إلى الشاب ذي الشعر الأحمر: سيد فريزر، أريدك أن تسترجع ذكرياتك. أنت ذهبت إلى المقهى عند خروجها كما أخبرتني من قبل، فهل يمكنك أن تتذكر أي شخص لاحظت أنه كان ينتظر هناك؟

- كان عدد كبير من الناس يمشون على الرصيف البحري، لا أستطيع أن أتذكر أياً منهم بشكل خاص.

- اسمح لي، ولكن ألا تحاول؟ مهما كان العقل مشغولاً إلا أن العين تلاحظ بصورة آلية.

كرر الشاب كلامه بعناد: لا أتذكر أيّ شخص.

تنهد بوارو والتفت إلى ماري دراور: أعتقد أنك استلمت رسائل من خالتك؟

- آه، نعم يا سيدي.

- متى كانت آخر رسالة؟

فكرت ماري قليلاً ثم قالت: قبل مقتلها بيومين.

- ماذا أخبرتك فيها؟

- أخبرَتني أن الشيطان العجوز كان يدور في المكان وأنها طردته مع التوبيخ، وقالت إنها تنتظر قدومي إليها يوم الأربعاء (وهو يوم إجازتي) لكي نذهب معاً إلى السينما. كان ذلك يوم عيد ميلادي يا سيدي.

شيء ما (قد يكون التفكير بعيد ميلادها) جعل عينَي ماري تدمعان فجأة، ثم تمالكت نفسها واعتذرت قائلة: اعذرني يا سيدي، لا أريد أن أكون سخيفة فالبكاء لا يفيد. كان ذلك فقط بسبب التفكير بها وبي ونحن نتطلع إلى الحفلة بشغف، هذا ما أثار شجني.

قال فرانكلين جيركل: أعرف شعورك تماماً، فالأشياء الصغيرة هي التي تضايق المرء. أتذكر أنني رأيت ذات مرة امرأة صدمتها سيارة، كانت قد اشترت حذاء جديداً لتوّها، وقد شاهدتها ممدّدة على أرض الشارع ورأيت العلبة الممزقة للحذاء والحذاء الجديد يظهر منها. لقد أصابني المشهد بالدُّوار، فقد كان محزناً جداً.

قالت ميغان بحماسة شديدة مفاجئة: هذا صحيح، صحيح تماماً. الأمر نفسه حصل بعد موت بيتي. كانت أمي قد اشترت لها هدية، جوارب فاخرة، اشترتها في نفس اليوم الذي وقعت فيه الحادثة. مسكينة أمي! لقد كُسر قلبها ورأيتها تصرخ قائلة وهي تمسك بالجوارب: لقد اشتريتها لبتي... اشتريتها لبتي ولم ترَها أبداً.

ارتجف صوتها قليلاً ومالت برأسها إلى الأمام وهي تنظر مباشرة إلى فرانكلين جيركل، وقد نشأ بينهما فجأة تعاطف متبادل، التآخي في المتاعب. قال: أنا أعرف، أعرف هذه الأمور التي يؤلم تذكّرها.

انزعج دونالد فريزر فغيّرت الآنسة غري مجرى الحديث قائلة: ألن نُعدّ أي خطة للمستقبل؟

استأنف فرانكلين جيركل بطريقته المعتادة: بالطبع، وعندما يحين الوقت، أي عندما تصل الرسالة الرابعة، فعلينا أن نضم جهودنا معاً، وحتى ذلك الحين قد يحاول كل منا تجربة حظه بطريقته الخاصة. لا أعرف إذا كانت للسيد بوارو أي أفكار؟

قال بوارو: يمكنني تقديم بعض المقترحات.

- جيد، سأكتبها.

أخرج من جيبه دفتر ملاحظات صغيراً وقال: تفضل يا سيد بوارو.

- أتوقع أن النادلة ميلي هغلي قد تعرف شيئاً مفيداً.

كتب فرانكلين جيركل: (أ) ميلي هغلي.

- أقترح أسلوبين للعمل. أنتِ يمكنك أن تتولّي ما أسميه بالعمل الهجومي يا آنسة برنارد.

قالت ميغان ببرود: يبدو أنك تظن أن هذا العمل يناسب شخصيتي، أليس كذلك؟

- افتعلي معرفة مع الفتاة، أخبريها أنك تعرفين أنها لم تحب أختك أبداً وأن أختك أخبرتك بكل شيء عنها. ما لم أخطئ فإن هذا سيثير فيضاناً من الاتهامات المضادة، ستخبرك بما كانت تعتقده في أختك، وقد تَظهر حقيقة مفيدة.

- والأسلوب الثاني؟

- هل لي أن أقترح عليك أن تظهر علامات اهتمام بالفتاة يا سيد فريزر؟

- هل هذا ضروري؟

- لا، ليس ضرورياً، بل هي فقط طريقة ممكنة للبحث.

سأل فرانكلين: هل أحاول أنا؟ أحسب أن لديّ خبرة واسعة يا سيد بوارو، فلنَرَ ماذا أستطيع عمله مع هذه الفتاة.

قالت ثورا غري بحدّة: أنت لديك عمل يجب أن تنتبه له.

هدأ فرانكلين قليلاً وقال: نعم، هذا صحيح.

قال بوارو: على أي حال لا أظن أنك ستجد هناك عملاً مطلوباً منك في الوقت الحاضر، أما الآنسة غري فبوسعها كونها

في المكان...

قاطعته ثورا غري قائلة: ولكني تركت ديفون إلى الأبد يا سيد بوارو.

- كيف؟ لم أفهم.

قال فرانكلين: لقد تلطفت الآنسة غري ووافقت على العمل معي، ومن الطبيعي أنها ستحب العمل في لندن.

وجّه بوارو نظراته الحادة إليه ثم إليها، وسأل: كيف حال الليدي جيركل؟

اهتممت بمراقبة اللون الباهت في وجه ثورا غري فكدت أسهو عن سماع جواب جيركل على سؤال بوارو. قال: حالتها سيّئة جداً. على فكرة يا سيد بوارو، أتساءل إن كان بوسعك أن تسرع لزيارتها في ديفون؟ لقد أعربت عن رغبتها في رؤيتك قبل أن أتركها، وبالطبع فهي لا تستطيع مقابلة الناس لمدة يومين بعد تناولها العلاج المخدر، ولكن لو أنك تجازف... على حسابي بالطبع.

- بالتأكيد يا سيد جيركل. هل نزورها بعد غد؟

- هذا جيد، سأبلغ الممرضة لكي ترتب مواعيد العلاج بناء على هذا التوقيت.

قال بوارو وهو يلتفت إلى ماري: بالنسبة لك أظن أن بوسعك أن تقومي بعمل جيد في أندوفر. حاولي مع الأطفال.

- الأطفال؟!

- نعم، الأطفال، فهم لا يتكلمون مع الغرباء بسهولة، لكنك معروفة في الشارع الذي كانت تعيش فيه خالتك. كان كثير من الأطفال يلعبون في المكان، وربما لاحظوا الذين دخلوا وخرجوا من دكان خالتك.

سألت ثورا غري: سيد بوارو، ما هو ختم البريد الذي كان على الرسالة الثالثة؟

- ختم بريد بوتيني يا آنسة.

قالت متأملة: ج غ ١٥، بوتني. أهذا صحيح؟

- نعم، ومن العجيب أن الصحف نشرته بصورة صحيحة.

- ألا يدل هذا على أن القاتل المجهول من سكان لندن؟

- من حيث الظاهر، نعم.

- قال فرانكلين جيركل: علينا أن نجذبه بطريقة ما. سيد بوارو، ما رأيك لو أنني نشرت إعلاناً يحتوي على هذه الكلمات: "إلى «أ ب ج»، عاجل: السيد بوارو قريب منك، أطلب مئة جنيه مقابل سكوتي". ما قولك؟ لا شيء بمثل هذه البساطة، ولكن الفكرة قد تجذبه.

- إنه احتمال، نعم.

- لكنه يدفعه لمحاولة قتلي.

قالت ثورا غري بانفعال: أعتقد أن هذا عمل أحمق وخطير.

- ماذا تقول يا سيد بوارو؟

- لن يضرنا إذا حاولنا، وإن كنت أظن أن الرجل ماكر ولن يجيب.

ابتسم بوارو قليلاً ثم قال: أرى أنك ما زلت تحمل قلب طفل يا سيد جيركل... إن كان يحق لي قول ذلك دون أن أسيء إليك.

ظهر شيء من الخجل في وجه فرانكلين وقال وهو ينظر إلى دفتر ملاحظاته: حسناً، إنها بداية جيدة. قد لا تفيدنا هذه الأشياء كلها كثيراً، ولكنه شيء يشغلنا أثناء الانتظار.

* * *

الفصل التاسع عشر

سمراء وشقراء

انصرف الجميع وعاد بوارو إلى مقعده فجلس يدندن مع نفسه لحناً قصيراً، ثم قال: إنها ذكية جداً لسوء الحظ.

سألته: مَن؟

- ميغان برنارد، الآنسة ميغان. قالت فجأة: "كلمات"! لقد أدركَت أن الذي كنت أقوله لا يعني شيئاً ذا قيمة، أما الآخرون فانسجموا في الجو بسهولة.

- أنا شعرت أن كلامك كان جديراً بالتصديق.

- نعم، هذا ما شعر به الجميع، أما هي فأدركت حقيقته تماماً.

- إذن فأنت لم تكن تعني ما تقول؟

- ما قلته يمكن التعبير عنه بجملة واحدة قصيرة، وبدلاً من أن أصنع ذلك كررت كلاماً لا معنى له دون أن يدرك أي واحد الحقيقة باستثناء الآنسة ميغان.

- ولكن لماذا؟

- لكي أجعل الأمور تسير! ليشعر كل واحد أن أمامه عملاً

عليه تنفيذه. أو بالأحرى: لكي يطول النقاش.

- ألا تعتقد أن أياً من الأفكار التي طُرحت قد يؤدي إلى نتيجة؟

- آه، هذا ممكن دائماً.

ضحك ضحكة خفيفة وقال: في وسط المأساة نبدأ بالكوميديا!

- ماذا تقصد؟

- الدراما الإنسانية يا هيستنغز! فكر قليلاً. هنا ثلاثة نماذج من البشر جُمعوا معاً عن طريق مأساة مشتركة، وفي الحال تبدأ دراما ثانية مختلفة تماماً. هل تتذكر أول قضية لي في إنكلترا؟ آه، لقد مضت عليها سنوات طويلة. في تلك القضية جمعت شخصين متحابّين بطريقة بسيطة، هي اعتقال أحدهما بتهمة القتل! ما كان الأمر لينجح إلا بتلك الطريقة. من وسط الموت نخرج إلى الحياة! إن القتل صانع زيجات عظيم كما لاحظته دائماً يا هيستنغز.

صحت مصدوماً: أنا واثق أن أياً من أولئك الأشخاص ما كان ليفكر بأي شيء سوى...

- وماذا عنك يا صديقي العزيز؟

- أنا؟!

- نعم، عندما غادروا وأغلقت وراءهم الباب، ألم ترجع وأنت تدندن بلحن؟

- قد يفعل الواحد منا ذلك دون شعور.

- بالتأكيد، ولكن ذلك اللحن كشف لي أفكارك.

- فعلاً؟

- نعم، إن دندنة اللحن أمر خطير جداً لأنه يكشف عن العقل الباطن. أظن أن اللحن الذي كنت تدندن به يرجع إلى أيام الحرب.

وهكذا بدأ بوارو يغني بصوت رديء عالي الطبقة: "أحياناً أحب امرأة سمراء، وأحياناً أحب امرأة شقراء"... ما الذي يمكن أن يكون أكثر إيحاء؟ ولكني أعتقد أن تلك الشقراء حادّة الطباع أكثر من السمراء.

صحت وأنا أحمَرُّ خجلاً: حقاً؟

- إنها نتيجة طبيعية. ألم تلاحظ كيف صار فرانكلين متعاطفاً فجأة وبانقلاب مفاجئ مع الآنسة ميغان؟ كيف مال إلى الأمام ونظر إليها؟ ألم تلاحظ أيضاً كيف انزعجت الآنسة ثورا غري كثيراً من ذلك؟ والسيد دونالد فريزر كان...

قلت: بوارو! إن عقلك شاعري جداً.

- هذا آخر ما يمكن أن يكون عليه عقلي، أنت صاحب العقل الشاعري يا عزيزي.

كنت على وشك مجادلته في هذه النقطة عندما فُتح الباب فجأة، ولشدة دهشتي كان القادم هو ثورا غري. قالت بهدوء: اعذرني لأني عدت، ولكن في ذهني شيئاً أحب أن أخبرك به يا سيد بوارو.

- بالتأكيد يا آنسة، ألا تريدين الجلوس؟

جلست على مقعدها، وترددت قليلاً وكأنها كانت تختار الكلمات التي ستقولها، ثم قالت: المسألة كالتالي يا سيد بوارو. لقد أفهمك السيد فرانكلين جيركل بكرمه الكبير أنني تركت بيت السير مايكل بناء على رغبتي الخاصة. إنه لطيف ومخلص جداً، ولكن الأمر ليس كذلك تماماً في الحقيقة. لقد كنت مستعدة للبقاء هناك بسبب العمل الكثير الذي تستحقه مجموعات التحف تلك، ولكن الليدي جيركل رغبت أن أغادر المنزل. ويمكنني أن ألتمس لها العذر، فهي مريضة جداً وعقلها مشوّش بسبب العقاقير المخدّرة التي توصَف لها، وهذا يجعلها شكّاكة كثيرة الأوهام. إنها تكرهني بلا سبب، لذلك أصرّت على أن أغادر البيت.

لم أستطع منع نفسي من الإعجاب بشجاعة الفتاة، شعرت ناحيتها بالإعجاب والعطف وقلت: كم هو رائع أن تأتي وتخبرينا بذلك!

قالت وهي تبتسم ابتسامة لطيفة: الأفضل للمرء أن يقول الحقيقة دائماً. لا أريد أن أختبئ خلف شهامة السيد فرانكلين. إنه رجل كريم.

أشعرتني لهجتها الحماسية بأنها معجَبة بفرانكلين جيركل، وقال بوارو: لقد كنت صادقة جداً يا آنسة.

قالت على نحو حزين: لقد صُدمت بما حصل. لم أظن أبداً أن الليدي جيركل تكرهني لهذه الدرجة، بل كنت أظن -في الحقيقة- أنها كانت تحبني! إن المرء يعيش ويتعلم.

ثم نهضت قائلة: هذا كل ما جئت لقوله، وداعاً.

رافقتُها إلى أسفل الدرج، وحينما عدت إلى الغرفة قلت: إن زيارتها تدل على روحها الرياضية. هذه الفتاة شجاعة حقاً.

قال بوارو: وتجيد الحساب أيضاً.

- ماذا تقصد بقولك إنها تجيد الحساب؟

- قصدت أنها تحسب حساب المستقبل؛ لديها القدرة على النظر إلى الأمام.

نظرت إليه بارتياب وقلت: في الحقيقة إنها فتاة جميلة

- وترتدي ملابس أنيقة أيضاً. ذلك الثوب الحريري والياقة الفضية من جلد الثعلب... منتهى الأناقة.

- يا لك من رجل غريب يا بوارو! أنا لا ألاحظ أبداً ما يرتديه الناس.

قال وقد غيّر الموضوع فجأة: هل تعرف يا هيستنغز؟ لا أستطيع أن أحرر عقلي من انطباع ولّده حديثنا بعد ظهر اليوم. لقد قيل شيء ذو دلالة مميزة، إنه أمر غريب ولكني لا أستطيع أن أتذكره بدقة. مجرد انطباع انتابني، وهو يذكّرني بشيء سمعته أو رأيته أو لاحظته من قبل.

سألته: أهو شيء في جيرستون؟

- لا، ليس في جيرستون بل قبل ذلك... لا تهتم، سوف أتذكره.

يبدو أنني لم أكن أصغي إليه بكامل حواسي، فنظر إليّ ثم

ضحك وبدأ يدندن مرة أخرى: أحياناً أحب امرأة سمراء، وأحياناً أحب امرأة شقراء...

صحت حانقاً: تباً لك يا بوارو!

* * *

الفصل العشرون

الليدي جيركل

كانت ملامح من الكآبة العميقة تسيطر على المنزل عندما زرناه مرة ثانية، وربما يرجع هذا الشعور إلى حالة الجو نوعاً ما، فقد كان يوماً رطباً من أيام أيلول (سبتمبر) مع إشارة لاقتراب الخريف، وأيضاً بسبب حالة الصمت التي تخيم على المنزل.

كانت غرف الطابق السفلي مغلقة ورائحة الغرفة الصغيرة التي أدخلونا إليها رطبة راكدة الهواء، وجاءت إلينا ممرضة ذات نظرة شريرة وهي تسحب أكمامها إلى أسفل فقالت بحدّة: السيد بوارو؟ أنا الممرضة كابستيك. لقد تلقيت رسالة السيد جيركل يخبرني فيها أنك قادم.

سألها بوارو عن صحة الليدي جيركل فقالت: ليست سيئة؛ صنعنا كل ما ينبغي صنعه.

بدا وكأنها تقصد أن الليدي تعاني سكرات الموت! وأكملت تقول: المرء لا يمكنه أن يتوقع تحسناً جوهرياً بالطبع، ولكن العلاج الجديد جعل الأمور أفضل قليلاً بالنسبة لها. الدكتور لوغان راضٍ عن حالتها تماماً.

- ولكنها لن تشفى من مرضها أبداً، أليس كذلك؟

قالت الممرضة كابستيك وقد صُدمت بهذا الكلام الصريح: آه، في الحقيقة نحن لا نقول هذا أبداً.

- لا بد أن وفاة زوجها كانت صدمة عنيفة لها؟

- حسناً يا سيد بوارو، لو أنك تفهم ما أقصد فإنها لن تكون صدمة كبيرة بالنسبة لأي شخص في مثل حالتها الصحية. إن الأمور غير واضحة في ذهن الليدي جيركل.

- اعذريني لسؤالي، ولكن هل كانت علاقتهما عميقة؟

- نعم، لقد كانا زوجين سعيدين جداً، وكان قلقاً ومنزعجاً جداً من أجلها. يا له من رجل مسكين! على أن الأمر أصعب بالنسبة للأطباء، فهم لا يستطيعون تعليل أهل المريض بآمال زائفة. أخشى أن يكون الأمر قد استحوذ على عقله في البداية.

- في البداية فقط؟ ثم ماذا حصل؟

- إن المرء يتعود على كل شيء، أليس كذلك؟ ثم إن السير مايكل كانت له مجموعته. إن الهواية سَلوَى عظيمة لرجل، وقد اعتاد أن يزور المزادات بين وقت وآخر، وكان هو والآنسة غري مشغولَين بإعادة تنظيم المتحف وفهرسة المقتنَيات.

- آه، نعم، الآنسة غري... لقد تركت البيت كما سمعت؟

- نعم، وأنا في غاية الأسف من أجلها، لكن السيدات يغرقنَ أحياناً في الخيالات عندما لا يكُنّ على ما يرام، ولا يمكن الجدال

معهن بالطبع، بل من الأفضل أن تستسلم. وقد تأثرت الآنسة غري جداً بسبب ما حصل.

- هل كانت الليدي جيركل تكرهها دائماً؟

- لا، لا أظن أنها كانت تكرهها، بل أعتقد أنها أحبتها في البداية. ولكن لا يجدر بي أن أواصل الثرثرة معكم فسوف تتساءل مريضتي عمّا يدور بيننا.

قادتنا إلى غرفة فِي الطابق الأول، وقد تحولت الغرفة (التي كانت في وقت ما غرفةَ نومٍ) إلى غرفة جلوس تسر النظر. وكانت الليدي جيركل جالسة على مقعد كبير قرب النافذة، وكانت نحيلة لدرجة محزنة ووجهها شاحباً هزيلاً، وجه امرأة تعاني الألم الكثير. أما نظراتها فكانت حالمة قليلاً، كما لاحظت أن بؤبؤَي عينيها كانا بحجم رأس الدبوس.

قالت الممرضة كابستيك بصوتها المرتفع المبهج: هذا هو السيد بوارو الذي أردت رؤيته.

قالت الليدي جيركل على نحو غامض: آه، نعم، السيد بوارو.

قال بوارو: وهذا صديقي، الكابتن هيستنغز.

- كيف حالكما؟ لطيف أن تأتيا لزيارتي.

جلسنا في المكان الذي أشارت إليه بإيماءة ضعيفة، وساد الصمت المكان. بدت الليدي جيركل وكأنها غاصت في حلم، ثم أيقظت نفسها بمجهود قليل وقالت: الزيارة من أجل زوجي،

أليس كذلك؟ تريدون سؤالي عن موته.

تنهدت واستمرّت تهز رأسها وهي ما تزال حالمة ثم قالت: لم نظن أن هذا سيحدث. كنت واثقة أنني سأسبقه في الموت. كان قوياً ورائعاً بالنسبة لعمره ولم يمرض قط، وكان في الستين ولكنه يبدو وكأنه في الخمسين. نعم، قوي جداً...

عادت إلى حلمها مرة أخرى، ولم يقل بوارو شيئاً، فقد كان يدرك أن أنواعاً معينة من العقاقير المخدرة تعطي متعاطيها انطباعاً بأن الزمن لا ينتهي.

قالت الليدي جيركل فجأة: جيد أنك أتيت. لقد طلبت من فرانكلين وقال إنه لن ينسى أن يخبرك. أرجو أن لا يتحامق، فمن السهل خداعه رغم أنه جاب الدنيا كثيراً. الرجال هكذا، يَبقون أولاداً، ولا سيما فرانكلين!

قال بوارو: له طبيعة متهورة.

- نعم، نعم، وهو شهم جداً. إن رجالاً كثيرين يكونون حمقى بهذه الطريقة، حتى زوجي...

خفَتَ صوتها وهزّت رأسها بنفاد صبر ثم قالت: كل شيء شديد الغموض. إن جسم الإنسان مزعج يا سيد بوارو. لم يعد المرء يدرك أي شيء آخر، سواء سيتوقف الألم أو لن يتوقف.

- أعرف يا ليدي جيركل، إنها واحدة من مآسي هذه الحياة.

- إنها تجعلني غبية جداً، لا أستطيع أن أتذكر ما الذي كنت أريد أن أقوله لك.

- هل كان ذلك شيئاً عن وفاة زوجك؟

- نعم، ربما. إنه إنسان مجنون مسكين، أقصد القاتل! الناس لا يستطيعون مقاومة الضجيج والنجاح هذه الأيام. لقد كنت دائما آسَى على المجانين. لا بد أن عقولهم غريبة جداً، ثم يفعلون فعلتهم الشنيعة بصمت. ولكن ماذا يمكن للمرء أن يفعل غير ذلك؟

هزت رأسها وهي تشعر بألم خفيف ثم سألت: أنتم لم تقبضوا عليه بعد، أليس كذلك؟

- ليس بعد.

- لا بد أنه كان يدور في المكان في ذلك اليوم.

- كان كثير من الغرباء في المكان يا ليدي جيركل، إنه موسم الإجازات.

- نعم، نسيت. ولكنهم يبقون في الأسفل على الشاطئ ولا يصعدون التلة قرب البيت.

- لم يأتِ أي غريب إلى البيت في ذلك اليوم.

سألت الليدي جيركل بنشاط مفاجىء: من يقول هذا؟

ذُهل بوارو قليلاً وقال: الخدم والآنسة غري.

قالت الليدي جيركل بإصرار شديد: هذه الفتاة كاذبة!

جفلت وأنا على مقعدي، وألقى بوارو عليّ نظرة خاطفة. ومضت الليدي جيركل في كلامها وقد صارت تتكلم بانفعال شديد: لم أحبها، لم أحبها أبداً. اعتقد زوجي أنها العالم كله!

اعتاد أن يذهب لزيارتها عندما كانت يتيمة وحيدة في هذا العالم. ما العيب أن يكون المرء يتيماً؟ أحياناً يكون ذلك نعمة غير ظاهرة، فقد يكون للمرء أب وأم عديما القيمة يعاقران الخمر، وعندها سيكون له شيء يشكو منه. زعم أنها كانت شجاعة جداً وأنها موظفة جيدة، وأنا أتحدى لو كانت تقوم بعملها بصورة جيدة. ثم إنني لا أعرف من أين جاءتها كل هذه الشجاعة!

تدخلت الممرضة كابستيك قائلة: لا تثيري نفسك يا عزيزتي، إن هذا يتعبك.

- بل هي راحة لي! كلما أسرعَت في المغادرة كان الأمر أفضل لي، هذا ما قلته. إن فرانكلين أحمق! لم أحب أن يختلط بها. قلت له: سأعطيها رواتب ثلاثة أشهر إن شئت، المهم أن تخرج من البيت حالاً. لا أريدها في البيت يوماً آخر. إن من مزايا كونك مريضاً أن الآخرين لا يجادلونك، وهكذا صنع ما طلبته منه. أعتقد أنها ذهبت مثل الشهيدة، بمزيد من الجمال والشجاعة!

كررت الممرضة كابستيك: سوف تتعبك الاستثارة يا عزيزتي.

لوحت الليدي جيركل لها كي تبتعد وقالت: لقد كنتِ أنت أيضاً حمقاء في موقفك منها كأي شخص آخر.

- آه، ليدي جيركل، لا تقولي هذا! إن الآنسة غري فعلاً فتاة لطيفة وذات طبيعة رومنسية.

قالت الليدي جيركل بضجر: ليس عندي صبر عليكنّ.

- حسناً، لقد ذهبت الآن يا عزيزتي، ذهبت بعيداً.

هزت الليدي جيركل رأسها بنفاد صبر ضعيف ولم تجب، وعندئذ سألها بوارو: لماذا قلت إن الآنسة غري كاذبة؟

- لأنها كذلك. ألم تخبرك بأن أي غرباء لم يأتوا إلى البيت؟

- بلى.

- حسنٌ إذن. لقد رأيتها بأم عيني من هذه النافذة وهي تتحدث مع رجل غريب أمام الباب الأمامي.

- متى كان هذا؟

- صباح اليوم الذي مات فيه زوجي، في نحو الساعة الحادية عشرة.

- وكيف كان شكل الرجل؟

- رجل من النوع العادي، ليس فيه ما يميزه.

- هل هو بائع مثلاً؟

- ليس بائعاً، كان شخصاً رثّ الملابس. لا أستطيع أن أتذكر.

وفجأة ظهرت في وجهها علامات ألم مفاجئ فقالت: أرجو أن تتركوني الآن فأنا متعبة. أيتها الممرضة!

استجبنا لتلميحها وغادرنا البيت.

* * *

قلت لبوارو ونحن في طريق العودة إلى لندن: هذه قصة

غريبة، قصة الآنسة غري والرجل الغريب.

- أترى يا هيستنغز؟ كما أقول لك: دائماً يوجد شيء لاكتشافه.

- لماذا كذبت الفتاة علينا وزعمت أنها لم تشاهد أي غريب؟

- يمكنني أن أفكر في سبعة أسباب مختلفة، بعضها في غاية البساطة.

سألته: هل هذا ازدراء؟

- ربما تكون دعوة لتشغيل ذهنك. ولكن لا حاجة بنا لأن نتعب أنفسنا، فأسهل طريقة لمعرفة الحقيقة هي أن نسألها.

- افترض أنها كذبت علينا مرة أخرى.

- سيكون كذبها هذه المرة مثيراً للاهتمام ومكشوفاً تماماً.

قلت: لا يمكن أن تتحالف فتاة كهذه مع رجل مجنون.

- نعم، هذا احتمال بعيد.

فكرت لبضع دقائق ثم قلت أخيراً وأنا أتنهد: إن الفتاة الجميلة تواجه المتاعب بسبب جمالها.

- أبداً، حرّرْ عقلك من تلك الفكرة.

أصررت قائلاً: بل هي صحيحة، الكل ضدها لأنها جميلة.

- كلامك هذا سخيف يا صديقي! مَن الذي كان ضدها هناك، هل هو السير مايكل؟ أم فرانكلين؟ أم الممرضة كابستيك؟

- لقد تحاملت الليدي جيركل عليها.

- يا صديقي! أنت مليء بمشاعر الرفق تجاه الفتيات الجميلات، أما أنا فأشعر بالتعاطف مع السيدات الكبيرات المريضات. قد تكون الليدي جيركل هي صاحبة النظرة الصحيحة، فيما زوجُها والسيد فرانكلين جيركل والممرضة كابستيك كلهم عميان كالخفافيش، والكابتن هيستنغز...

قلت بمرارة: أنت تحقد على تلك الفتاة يا بوارو!

لشدة دهشتي لمعت عيناه فجأة وقال: ربما أردت فقط أن أوصلك إلى ذروة الرومنسية يا صديقي! أنت دائماً الفارس المستعد لإنقاذ الفتيات اللاتي يتعرضن للخطر، الفتيات الجميلات بالطبع!

قلت وأنا غير قادر على الإمساك عن الضحك: كم أنت سخيف يا بوارو!

- حسناً، إن المرء لا يستطيع أن يكون تراجيدياً طوال الوقت. أنا أسلّي نفسي أكثر وأكثر بالتطورات الإنسانية التي تخرج من هذه المأساة. لدينا هنا ثلاث قصص درامية لحياة عائلية. أولا أندوفر: الحياة المأساوية الكاملة للسيدة آشر، صراعها مع الصعاب ومساعدتها لزوجها الألماني وإخلاص ابنة أختها، هذه وحدها يمكن أن تُستخرج منها رواية. ثم عندك بكسهيل: الأب والأم السعيدان الهادئان والابنتان اللتان تختلفان كل عن الأخرى جذرياً. بتي الجميلة الرقيقة الساذجة وميغان الحادة ذات الإرادة الصلبة والذكاء الشديد والرغبة العارمة في قول الحقيقة، ومعهم ذلك الشاب الإسكتلندي الشاحب المتمالك لنفسه ذو الغيرة الشديدة.

وأخيراً لدينا عائلة جيرستون: الزوجة المريضة والزوج المنهمك في مجموعاته الفنية، مع لطفه الشديد وتعاطفه الواضح مع الفتاة الجميلة التي تساعده في عمله، ثم الأخ الأصغر النشط الجذاب صاحب السحر الرومنسي الذي اكتسبه من سفراته الطويلة.

أعرف -يا هيستنغز- أن التسلسل العادي للأحداث لم يلامس هذه القصص الدرامية الثلاث المستقلة أبداً، وربما كان من شأنها أن تستمر في تطورها بلا مقاطعة لولا تلك الجرائم. إنني لم أتوقف عن الافتتان بتغيرات الحياة وترتيباتها يا هيستنغز.

❊ ❊ ❊

عندما وصلنا إلى البيت علمنا أن رجلاً جالساً هناك في انتظار بوارو، وتوقعت أن يكون فرانكلين أو ربما جاب، ولكن لدهشتي لم يكن سوى دونالد فريزر. بدا متضايقاً جداً، وكان عجزه عن الإفصاح ملاحَظاً أكثر من أي وقت مضى.

لم يلحّ عليه بوارو ليدخل في الموضوع الذي جاء من أجله، وبدلاً من ذلك اقترح عليه تناول الشاي، وبانتظار وصول الضيافة احتكر بوارو الحديث فشرح له أين كنا وتكلم معه بلطف ورقّة، ولم يتحول إلى الحديث الشخصي إلا بعد تناول الشاي.

- هل جئت من بكسهيل يا سيد فريزر؟

- نعم.

- هل أحرزت أي تقدم مع ميلي هيغلي؟

- ميلي هغلي؟ ميلي هغلي؟

كرر فريزز اسمها متعجباً ثم قال: آه، الفتاة تلك؟ لا، لم أفعل أي شيء هناك بعد. إنها...

سكت وشبك أصابع يديه معاً بعصبية، ثم اندفع قائلاً: لا أعرف لماذا جئت إليك.

قال بوارو: أنا أعرف.

- لا تستطيع. كيف تعرف؟

- لقد جئتَ إليّ لأن لديك شيئاً لا بد أن تقوله لشخص ما، وقد كنتَ محقاً تماماً، فأنا هو الشخص الصحيح. تفضل.

صنعَت ملامحُ التأكيد التي أبداها بوارو مفعولها، فقد نظر فريزر إليه بمظهر غريب من الطاعة وقال: هل تعتقد ذلك؟

- بالطبع، أنا متأكد.

- هل تعرف أي شيء عن الأحلام يا سيد بوارو؟

كان هذا آخر ما توقعت سماعه منه، إلا أن بوارو لم يتأثر ولم تظهر عليه المفاجأة. أجابه قائلاً: نعم، أعرف. هل كنت تحلم؟

- نعم. أعتقد أنك ستقول إن هذا طبيعي، أن أحلم عنها. ولكنه ليس حلماً عادياً. لقد حلمت به لليلة الثالثة يا سيدي، وأخشى أن أفقد عقلي!

- أخبرني.

كان وجه الرجل شاحباً وعيناه جاحظتين، وفي الحقيقة كان شكله كالمجنون. قال: إنه الحلم نفسه يتكرر ليلة بعد ليلة.

أنا على الشاطىء أبحث عن بتي، كانت مفقودة، مفقودة فقط، هل تفهمني؟ كنت أبحث عنها لأعطيها حزامها الذي كنت أحمله بيدي، وبعد ذلك...

- نعم؟

- تغيّر الحلم. لم أعد أبحث عنها، كانت أمامي تجلس على الشاطئ، ولكنها لم ترَني وأنا قادم لأنها... آه، لا أستطيع!

- استمر لو سمحت.

كان صوت بوارو جازماً قوياً، ومضى الشاب قائلاً: جئت من خلفها، ولم تسمعني، فلففت الحزام حول عنقها وشددت، شددت!

أرهبتني رنّة الألم في صوته وبدا الأمر حقيقياً جداً، فقبضت على ذراعَي مقعدي بقوة. ومضى الشاب قائلاً: كانت تختنق! لقد ماتت، خنقتها، ثم سقط رأسها إلى الوراء ورأيت وجهها. كانت ميغان وليست بتي!

استند في مقعده وهو شاحب يرتعش، فصَبّ له بوارو كوباً آخر من الشاي الثقيل وقدمه له، فسأله: ما معنى هذا يا سيد بوارو؟ لماذا يعاودني هذا الحلم كل ليلة؟ إنه لا يعني أنني قتلتها، أليس كذلك؟

لم أعرف بماذا أجابه بوارو، ففي تلك اللحظة سمعت ساعي البريد يطرق الباب فتركت الغرفة تلقائياً، ثم صرف ما أخرجته من صندوق البريد أيَّ اهتمام بإلهامات دونالد فريزر غير العادية.

ركضت عائداً إلى غرفة الجلوس وصحت: بوارو! لقد جاءت... الرسالة الرابعة!

قفز وأخذها مني وتناول سكين قطع الورق ففتحها ثم نشرها على الطاولة، فقرأناها نحن الثلاثة معاً:

ما زلت لم تحرز نجاحاً؟ تَعْساً! ماذا تفعل أنت والشرطة؟ حسناً، أليس هذا لهواً جميلاً؟ أين سنذهب المرة القادمة؟

مسكين أنت يا سيد بوارو، كم أنا آسف لأجلك! إذا لم تنجح في البداية فحاول ثم حاول وحاول من جديد.

ما زال الطريق أمامنا طويلاً. تيبراري؟ لا هذه ستأتي لاحقاً في حرف التاء. الحادث الصغير التالي سيقع في دونكاستر في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر).

وداعاً، «أ ب ج»



الفصل الحادي والعشرون

وصف القاتل

في هذه اللحظة بدأ ما سمّاه بوارو «العنصر الإنساني» يخبو مرة أخرى، فقد شعرنا جميعاً باستحالة عمل أي شيء لحين وصول الرسالة الرابعة التي ستكشف عن مسرح الجريمة الرابعة، ومع تلك الكلمات الساخرة المطبوعة على ورقة بيضاء فاخرة بدأت المطاردة من جديد.

جاء المفتش كروم من سكتلنديارد، وكان ما يزال في شقتنا عندما وصل فرانكلين جيركل وميغان برنارد معاً. وقد أوضحت الفتاة أنها جاءت من بكسهيل مع فرانكلين حيث كانت في زيارته لمناقشة القضية معه، وبدت مهتمة بشرح منهجها في العمل، لكنني لم أعرها أهمية كبيرة لأن الرسالة شغلت تفكيري وجعلتني عاجزاً عن التفكير بأي شيء آخر.

لم يكن كروم مسروراً برؤية المشاركين الكثيرين في الدراما وصار رسمياً لأبعد حد، ثم قال: سآخذ هذه معي يا سيد بوارو، إذا كنت تريد نسخة عنها...

- لا، ليس ضرورياً.

سأله فرانكلين: ما هي خططك يا حضرة المفتش؟

قال جيركل: هذه المرة علينا الإمساك به.

- يمكنني أن أخبرك يا حضرة المفتش بأننا شكلنا رابطة خاصة للتعامل مع المسألة، كتيبة من الأطراف المهتمة.

قال المفتش كروم بطريقته المفضلة: آه، صحيح؟

- أحسب أنكم لا تحبون الاستعانة بالهواة يا حضرة المفتش؟ لكني لا أتصور أن مهمتك ستكون سهلة. يبدو أن هذا المجرم المهووس قد نجح مرة أخرى.

لاحظت أن كروم يمكن أن يُستثار ويُدفع للكلام عندما تفشل الأساليب الأخرى. قال: لا أتصور أن ينتقد الناس ترتيباتنا هذه المرة. لقد أعطانا الأحمق إنذارا فسيحاً، فيوم الحادي عشر من الشهر هو الأربعاء من الأسبوع القادم، وهذا يعطينا وقتاً فسيحاً لعمل حملة دعاية في الصحف. سوف نحذّر دونكاستر عن بكرة أبيها، كل شخص يبدأ اسمه بحرف الدال سيكون حذراً لأبعد حد، وأيضا سنرسل أعداداً كبيرة من الشرطة إلى البلدة. سيخرج كل سكان دونكاستر -شرطة ومدنيين- للإمساك برجل واحد، ومع حظ معقول علينا أن نمسك به.

قال جيركل بهدوء: من الواضح أنك لا تهتم بالرياضة يا حضرة المفتش.

سأله كروم: ماذا تقصد يا سيد جيركل؟

- هذا الرجل يتقن عمله جيداً. ألا تعلم أن يوم الأربعاء القادم هو موعد سباق الخيل السنوي الكبير في دونكاستر؟

فغر المفتش فاه ثم قال باستسلام: هذا صحيح! نعم، إنه يعقّد الأمور.

صمتنا لحظة قصيرة ونحن مذهولون من الموقف وقد تخيلنا الحشود اللامتناهية في ميدان السباق والجمهور الإنكليزي الشغوف المحب للرياضة... يا لها من تعقيدات رهيبة! ثم قال بوارو بصوت خافت: هذا رائع! لقد وضع تصوراً لكل شيء بصورة رائعة.

قال فرانكلين: باعتقادي فإن جريمة القتل ستحدث في ميدان السباق.

نهض المفتش كروم وهو يحمل الرسالة معه وقد سلّم بالأمر قائلاً: إنه حظ سيّئ!

خرج، وسمعنا أصواتاً في الصالة وبعد دقيقة دخلت ثورا غري، قالت بقلق: لقد أخبرني المفتش عن وصول رسالة أخرى. أين هذه المرة؟

كان الجو ماطراً في الخارج فارتدت معطفاً أسود ووضعت قبعة صغيرة سوداء على جانب رأسها. ثم جلسنا للمناقشة، وبدا بلا شك أن السباق قد عقّد الخطط التي أعددناها سابقاً بصورة تجريبية. وانتابني إحساس بالقنوط، فماذا يمكن لهذه المجموعة الصغيرة المكونة من ستة أشخاص أن تفعل، رغم اهتمامهم الشديد بالموضوع؟ سيكون عدد لا يحصى من الشرطة متيقظين ساهرين يراقبون جميع الأماكن المحتمَلة، ماذا يمكن لستة أشخاص آخرين أن يفعلوا؟

رفع بوارو صوته وكأنه يرد على تفكيري، وكان يتكلم كأنه

معلم مدرسة، قال: يا أولادي، لا ينبغي أن نبدد طاقتنا. يجب أن نباشر العمل في هذه المسألة بأفكار منهجية نظامية، علينا أن ننظر إلى داخل الحقيقة وليس إلى خارجها، كل واحد منا يسأل نفسه: ماذا أعرف عن القاتل؟ وهكذا سنبني صورة مركبة للرجل الذي نبحث عنه.

تنهدت ثورا غري قائلة على نحو يائس: نحن لا نعرف شيئاً.

- لا، لا يا آنسة، هذا ليس صحيحاً. كل واحد منا يعرف شيئاً عنه، لو أننا فقط نعرف ما الذي نعرفه عنه، أنا مقتنع أن المعرفة كامنة هنا، فقط لو أننا ننجح في الوصول إليها!

هز فرانكلين رأسه قائلاً: نحن لا نعرف أي شيء. هل هو كهل أم شاب؟ أشقر أم أسمر؟ لم يرَه أحد منا ولا تحدث معه. لقد تحدثنا عن كل الذي نعرفه مرة تلو الأخرى.

قال بوارو: ليس كل شيء. على سبيل المثال أخبرتنا الآنسة غري أنها لم تَرَ أو تتكلم مع أي شخص غريب في اليوم الذي قُتل فيه السير مايكل.

أومأت ثورا غري برأسها موافقة: هذا صحيح تماماً.

- هل هو كذلك فعلاً؟ لقد أخبرتنا الليدي جيركل أنها شاهدتك من نافذة غرفتها وأنت تقفين على عتبة الباب الأمامي وتتحدثين مع رجل.

بدت الفتاة مذهولة حقيقة وسألت قائلة: هل رأتني وأنا أتحدث مع رجل غريب؟ لابد أنها أخطأت، فأنا لم... آه!

خرجت صيحة التعجب منها فجأة وقد اصطبغ خداها باللون الأحمر القاني. ثم قالت: تذكرت، إنني أتذكر الآن. يا له من غباء! نسيت كل شيء عن الأمر. ولكنه لم يكن مهماً، كان فقط أحد أولئك الرجال الذين يدورون في المكان ويبيعون الجوارب، واحداً من العسكريين المتقاعدين. كان عليّ أن أتخلص منه، وكنت أعبر القاعة عندما جاء إلى الباب فتكلم من ورائه دون أن يقرع الجرس. ولكن شكله لم يوحِ بأنه من النوع المؤذي. أعتقد أن هذا هو السبب الذي جعلني أنسى أمره.

في تلك اللحظة انتبهت لبوارو الذي كان يتصرف بغرابة؛ راح يتمايل يميناً وشمالاً ويداه على رأسه ويتكلم مع نفسه بحماسة مما جعل الكل يصمتون ويحدقون إليه.

كان يقول: جوارب، جوارب، جوارب، جوارب، جوارب... هذا هو! نعم، قبل ثلاثة أشهر، وبالأمس، والآن... يا إلهي، لقد عرفتها! هل تتذكر كشك أندوفر يا هيستنغز؟ عندما صعدنا إلى الطابق العلوي، إلى غرفة النوم، على الكرسي كانت فردة من الجوارب الحريرية الجديدة. الآن عرفت ما هو الشيء الذي أثار انتباهي قبل يومين!

التفت إلى ميغان وقال: كان أنت يا آنسة، أنت تكلمت عن أمك التي بكت لأنها اشترت لأختك جوارب جديدة في نفس اليوم الذي قُتلت فيه.

ثم نظر حوله إلينا جميعاً وقال: هل فهمتم؟ إنه نفس العنصر وقد تكرر ثلاث مرات. لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة. عندما

تكلمت الآنسة تولد عندي شعور بأن الذي قالته مرتبط بشيء آخر. لقد عرفت الآن بأي شيء كان ارتباطه. بالكلمات التي قالتها جارة السيدة آرشر، السيدة فاولر، عن أشخاص كانوا دائماً يحاولون أن يبيعوك أشياء، وذكرت الجوارب! قولي لي يا آنسة: أليس صحيحاً أن أمك لم تَشترِ تلك الجوارب من دكان بل من بائع متجول جاء إلى الباب؟

- بلى، هذا صحيح، إنني أتذكر الآن. قالت شيئاً عن أسفها على أولئك الرجال البائسين الذين يدورون ويحاولون بيع أشياء.

صاح فرانكلين: ولكن ما هي الصلة؟ إن رجلاً يدور على البيوت ليبيع جوارب لا يثبت أي شيء.

- سأخبركم يا أصدقائي، لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة. ثلاث جرائم وفي كل مرة رجل يبيع جوارب ويستكشف المكان.

التفت إلى ثورا وقال: ألا تتكلمين يا آنسة؟ صفي لنا هذا الرجل.

نظرت إليه بارتباك وقالت: لا أعرف كيف... أعتقد أنه كان يضع نظارات ويرتدي معطفاً رثاً.

- أفضل من هذا يا آنسة.

- لا أعرف... لم أنظر إليه جيداً، فلم يكن من الرجال الذي يلفتون النظر.

قال بوارو بهدوء: إنك على حق تماماً يا آنسة. إن سر جرائم القتل كله يوجد هنا في وصفك للقاتل. لقد كان هو القاتل لهذا

السبب دون شك: لم يكن من الرجال الذين يلفتون النظر. نعم، لا شك في هذا، لقد وصفتِ القاتل.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

(ليس من رواية الكابتن هيستنغز)

جلس السيد ألكساندر بونابارت جاسْت بلا حراك. كان طعام إفطاره بارداً في الصحن لم يُمَسّ، وكانت هناك صحيفة تستند إلى إبريق الشاي والسيد جاست يقرؤها باهتمام شديد. وفجأة نهض من مكانه ومشى بعض الوقت جيئة وذهاباً، ثم غطس في مقعد بجانب النافذة ودفن رأسه بين يديه وهو يئنّ أنيناً مكتوماً، فلم يسمع صوت فتح الباب عندما فتحته صاحبة البيت.

وقفت السيدة ماربيري بالباب قائلة: كنت أتساءل يا سيد جاست... هل أنت على ما يُرام؟ ما الأمر؟ ألا تشعر أنك بصحة جيدة؟

رفع السيد جاست رأسه من بين يديه وقال: لا شيء يا سيدة ماربيري. لا تهتمي، أنا لا أشعر أنني في أحسن حال هذا الصباح.

نظرت السيدة ماربيري إلى صينية الإفطار وقالت: أرى أنك لم تلمس طعامك! هل يؤلمك رأسك مرة أخرى؟

- لا، على الأقل... نعم. أشعر فقط بأنني منحرف المزاج قليلاً.

- حسناً، أنا آسفة. إذن فلن تخرج هذا اليوم، أليس كذلك؟

قفز السيد جاست من مكانه فجأة وقال: بل عليّ أن أذهب، فعندي عمل مهم، مهم جداً.

كانت يداه ترتجفان، وعندما رأته السيدة ماربيري بتلك الحالة حاولت تهدئته فقالت: حسناً، إذا كان ضرورياً أن تخرج فاخرج. هل أنت ذاهب بعيداً هذه المرة؟

- لا، أنا ذاهب إلى...

تردد لحظة قصيرة ثم قال: تْشِلْتنهام.

كان في الطريقة المترددة التي نطق بها تلك الكلمة إيحاء غريب جعل السيدة ماربيري تنظر إليه بدهشة، ثم قالت: إن تشلتنهام بلدة جميلة. لقد ذهبت إليها من بريستول في إحدى السنوات، المتاجر هناك جميلة ولا مثيل لها.

- أعتقد ذلك، نعم.

انحنت السيدة ماربيري بمشقّة (لأن الانحناء لم يكن يناسب جسدها) لالتقاط صحيفة ملقاة على الأرض، ثم قالت وهي تنظر إلى العناوين الرئيسية في الصحيفة قبل أن تعيدها إلى الطاولة: لا شيء في الصحف هذه الأيام سوى جريمة القتل تلك. إنها تصيبني بالذعر، لذلك لا أقرؤها.

تحركت شفتا السيد جاست ولكن لم يخرج من فمه أي صوت، وأكملت السيد ماربيري قائلة: دونكاستر... إنه المكان الذي سيرتكب فيه جريمته التالية! وغداً أيضاً؟! إن هذا يصيب

المرء بالذعر، أليس كذلك؟ لو كنت أعيش في دونكاستر ويبدأ اسمي بحرف الدال لهربت في أول قطار وما كنت لأجازف بحياتي. ما رأيك يا سيد جاست؟

- لا شيء يا سيدة ماربيري، لا أعرف.

- إنها السباقات! لا شك أنه يعتقد بأنه سيحصل على فرصته هناك. مئات من رجال الشرطة -كما يقولون- يتدفقون إلى المكان. وأنت تبدو يا سيد جاست، تبدو فعلاً بحالة سيئة. أليس من الأفضل أن تلغي فكرة السفر اليوم؟

وقف السيد جاست وقال: إنه ضروري يا سيدة ماربيري، أنا دائماً دقيق في مواعيدي. يجب أن يثق الناس بي، لذلك عندما أتولى عملاً فإنني أنجزه حتى النهاية، إنها الطريقة الوحيدة للنجاح في العمل.

- ولكن إذا كنت مريضاً؟

- أنا لست مريضاً يا سيدة ماربيري، إنني قلق فقط على بعض الأمور الشخصية. لقد نمت كثيراً وأنا الآن على ما يُرام.

كان في كلامه إصرار جعل السيدة ماربيري تجمع عدة الإفطار وتغادر الغرفة كارهة، فأخرج السيد جاست حقيبة سفر من تحت السرير وبدأ بحزم أمتعته: بيجامات وحقيبة حمام وياقة إضافية ونعل جلدي. ثم فتح خزانة الملابس ونقل اثنتَي عشرة علبة مسطحة من الورق المقوى من رف الخزانة إلى الحقيبة. بعد ذلك حدّق فقط إلى دليل القطارات الموضوع على الطاولة ثم غادر الغرفة حاملاً حقيبة السفر في يده.

في الصالة وضعها على الأرض وارتدى المعطف والقبعة، وفيما هو يفعل ذلك زفر زفيراً عميقاً، عميقاً جداً، مما جعل الفتاة التي خرجت من غرفة مجاورة تنظر إليه باهتمام وتسأله: هل بك شيء يا سيد جاست؟

- لا شيء يا آنسة ليلي.

- لقد كنت تتنهّد كثيراً.

قال السيد جاست بفظاظة: لا تسمحي لهواجسك بالسيطرة عليك آنسة ليلي.

- حسناً، لا أظن أنني كذلك. في الحقيقة... بالطبع تمرّ على المرء أوقات يشعر فيها أن كل شيء يمشي بطريق معكوس وأوقات يشعر فيها أن كل شيء يسير بطريق صحيح.

قال السيد جاست: تماماً.

تنهد مرة أخرى ثم قال: حسناً، وداعاً يا آنسة ليلي. وداعاً، لقد كنتِ دائماً لطيفة معي هنا.

ضحكت ليلي وقالت: حسناً، لكن لا تقل «وداعاً» وكأنك ذاهب إلى الأبد.

- لا، لا، بالطبع لا.

ضحكت الفتاة وقالت: أراك يوم الجمعة. إلى أين أنت ذاهب هذه المرة؟ إلى المنطقة الساحلية مرة أخرى؟

- لا، بل إلى تشلتنهام.

- حسناً، هذا مكان جميل أيضاً، ولكنه ليس جميلاً مثل توركي. لا بد أنها مكان جميل جداً. كم أتمنى لو أقضي فيها عطلتي في السنة القادمة! على فكرة، لابد أنك كنت قريباً من مكان وقوع الجريمة، فقد وقعت وأنت هناك، أليس كذلك؟

- آه، نعم، ولكن جيرستون تبعد سبعة أميال عن توركي.

- رغم ذلك لا بد أنها كانت تجربة مثيرة. لعلك مشيت بجانب القاتل في الشارع مثلاً؟

قال السيد جاسْت بابتسامة شاحبة ملتوية لاحظتها الآنسة ليلي ماربيري: نعم، هذا ممكن بالطبع.

- آه، أنت لا تبدو على ما يرام يا سيد جاست؟

- بل أنا على ما يرام، على ما يرام تماماً ودائماً يا آنسة ماربيري.

تلمّس قبعته وحمل حقيبته وأسرع خارجاً من الباب الأمامي، وقالت ليلى ماربيري لنفسها: يا له من عجوز غريب! إنه يبدو لي نصفَ معتوه!

* * *

قال المفتش كروم لمساعده: أحضر لي قائمة بالشركات التي تصنع الجوارب وتوزعها، أريد قائمة بكل وكلائهم والمندوبين الذين يبيعون مقابل عمولة.

- هل يتعلق هذا الطلب بقضية الجرائم الأبجدية يا سيدي؟

- نعم، إنها واحدة من أفكار السيد هيركيول بوارو.

كان في نبرة المفتش ازدراء واضح، وأضاف قائلاً: قد تكون فكرة عقيمة، ولكن لا ينبغي أن نهمل أي فرصة مهما كانت ضعيفة.

- صحيح يا سيدي. لقد حقق السيد بوارو بعض المنجزات الجيدة في زمانه، ولكن أظن أنه كبر ولم يعد بذلك الذكاء.

قال المفتش كروم: إنه مشعوذ دجال، وإن كان قادراً على خداع بعض الناس فلن يكون قادراً على خداعي. والآن لنعد إلى خططنا الخاصة بدونكاستر.

* * *

قال توم هارتِغان مخاطباً ليلي ماربيري: لقد رأيت عجوزكم هذا الصباح.

- من؟ السيد جاسْت؟

- نعم، كان في محطة يوستون، وكالعادة فقد بدا مثل دجاجة ضائعة! أعتقد أن هذا الرجل نصف معتوه، وهو يحتاج لشخص يعتني به. في البداية أسقط صحيفته على الأرض، ثم أسقط تذكرته فالتقطتها عن الأرض وأعدتها إليه، ولم يلاحظ مطلقاً أنه فقدها. شكرني بطريقة مهزوزة، ولا أظن أنه عرفني.

قالت ليلي: حسناً، لقد رآك مرة واحدة وأنت تعبر الصالة.

- هل قلت إنك شاهدته في محطة يوستون أم في محطة بادنغتون؟

- يوستون.

- هل أنت متأكد؟

- بالطبع أنا متأكد. ماذا تظنين؟

- غريب، لقد اعتقدت أنك ذهبت إلى تشلتنهام من محطة بادنغتون.

- هذا عنّي، صحيح، أما العجوز جاست فلم يكن ذاهباً إلى تشلتنهام بل إلى دونكاستر.

- بل تشلتنهام.

- دونكاستر! أنا أعرف يا فتاتي، فأنا الذي التقطت تذكرته عن الأرض، أليس كذلك؟

- حسناً، لقد أخبرني أنه ذاهب إلى تشلتنهام، أنا متأكدة.

- لعلك فهمت خطأ، ربما ذهب إلى دونكاستر لمشاهدة السباق.

- لا أظن أن السيد جاست يهتم بسباق الخيل، إنه ليس من هذا النوع. آه، توم، أرجو أن لا يُقتَل، فسوف تقع جريمة جديدة في دونكاستر.

- سيكون جاست بخير، فاسمه لا يبدأ بحرف الدال.

- كان يمكن أن يُقتَل في المرة الماضية، فقد كان قرب جيرستون في توركي عندما وقعت الجريمة الأخيرة.

- صحيح؟ يا لها من مصادفة!

ضحك وقال: لكنه لم يكن في بكسهيل في المرة التي قبلها، صحيح؟

قطبت ليلي حاجبيها ثم قالت: لقد كان مسافراً... نعم، أتذكّر أنه كان مسافراً لأنه نسي سروال السباحة. كانت أمي تصلحه له وقالت: لقد ذهب السيد جاست بالأمس دون أن يأخذ سرواله. فقلت لها: آه، لا تهتمي بهذا الأمر التافه فقد وقعت جريمة قتل بشعة، شُنقت فتاة في بكسهيل!

- حسناً، لو أراد سروال السباحة فلا بد أنه كان ذاهباً إلى البحر. حسناً يا ليلي، ماذا ستعطيني لو كان رجلك العجوز هو القاتل نفسه؟

تجعّد وجهه من الضحك، وضحكت ليلي أيضاً وقالت: السيد جاست المسكين؟ إنه لا يؤذي ذبابة!

لم يكن في عقلهما الواعي شيء سوى السعادة لأنهما كانا مجتمعَين معاً، أما عقلهما الباطن فقد بدأ شيء ما يتحرك فيه.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

١١ أيلول، دونكاستر

دونكاستر! أعتقد أنني سأتذكر يوم ١١ أيلول هذا ما حييت، وفي الحقيقة فإني كلما رأيت إعلاناً لسباق خيل دونكاستر ينصرف عقلي بصورة تلقائية إلى جريمة القتل، وعندما أستذكر أحاسيسي فإن الشيء الذي يتضح أكثر هو إحساس بعدم الكفاءة يثير الغثيان. كنا هنا في المكان، بوارو وأنا وجيركل وفريزر وميغان برنارد وثورا غري وماري دراور، ولكن ماذا يمكن لأي واحد منا أن يفعله؟

كنا نبني الأمل على فرصة يائسة، فرصة التعرف على شخص بين آلاف الناس، شخص شوهد مرة عابرة قبل شهر أو شهرين أو ثلاثة أشهر، ومن بيننا كلنا كانت ثورا غري هي الوحيدة التي يمكن أن تتعرف عليه. وقد ذهب بعض هدوئها بسبب التوتر، اختفى هدوؤها وأسلوبها المقتدر فجلست تعصر يديها وهي تكاد تبكي وتستغيث ببوارو بذهن مشوّش قائلة: لم أنظر إليه، في الحقيقة أنا لم أنظر إليه أبداً. لماذا لم أفعل؟ يا لي من حمقاء! أنت تعتمد عليّ، كلكم تعتمدون عليّ، وسوف أخذلكم لأنني حتى لو رأيته مرة أخرى فلن أستطيع التعرف عليه الآن. إن ذاكرتي سيئة بالنسبة للوجوه.

أياً كان الذي قاله بوارو عن الآنسة غري في الماضي ومع أنه كان قاسياً في نقده لها فإنه لم يُظهر أي شيء سوف اللطف الآن. كان أسلوبه لطيفاً إلى أبعد حد، فقد ربّت على كتفها بلطف وقال: اهدئي يا آنسة، لا تسمحي للتشاؤم أن يسيطر عليك. أنا واثق أنك ستعرفين الرجل لو رأيته مرة أخرى.

- كيف تعرف؟

- لأسباب كثيرة، أحدها أن الأحمر يتبع الأسود.

سألته باهتمام: ماذا تقصد يا بوارو؟

- لغة طاولات اللعب. في لعبة الروليت قد يفوز الأسود طويلاً، لكن في النهاية لا بد للأحمر أن يبرز أيضاً. إنها قوانين الاحتمالات الرياضية.

- هل تقصد أن الحظ يدور؟

- تماماً، وهذا يجعل المقامر بحاجة إلى حدس ذكي، والقاتل مقامر بطريقة ما، وإن كان الذي يغامر به ليس المال وإنما هو حياته. ولأنه فاز فسوف يعتقد أنه سيستمر في الفوز ولا يغادر الطاولة في الوقت المناسب وجيبه ملآن. وهكذا في الجريمة، القاتل الذي ينجح لا يمكنه أن يتصور احتمال فشله! إنه يثق بنفسه كل الثقة بسبب الأداء الناجح، ولكني أقول لكم يا أصدقائي: على الرغم من تخطيط الجريمة بعناية فإنها لا تنجح دون حظ.

اعترض فرانكلين قائلاً: أليس هذا بعيداً جداً؟

لوح بوارو بيديه قائلاً بانفعال: لا، بل هما احتمالان متساويان

في أسوأ الحالات، ولكن لا بد أن يكون الحظ في جانبه. فكر، لعله تصادف أن شخصاً دخل دكان السيدة آشر تماماً بينما كان القاتل يغادره، وقد يفكر هذا الشخص بأن ينظر خلف المنضدة فشاهد المرأة القتيلة. إما أنه سيمسك بالقاتل بنفسه مباشرة أو سيكون قادراً على تزويد الشرطة بوصف دقيق له فيُعتقَل بناء على ذلك.

اعترف فرانكلين: نعم، هذا ممكن. وهل يعني أن القاتل كان محظوظاً؟

- بالطبع. إن القاتل يقامر دائماً، ومثل الكثيرين من المقامرين فإنه لا يعرف متى يتوقف، ومع كل جريمة فإن تقديره لقدراته يزداد وينحرف إدراكه للتناسب. إنه لا يقول: لقد كنت ذكياً ومحظوظاً. لا، إنه يقول فقط: لقد كنت ذكياً! وتزداد ثقته بذكائه، وبعد ذلك تسقط الكرة وينتهي سباق الألوان يا أصدقائي. إنها تسقط في رقم جديد ويصرخ مدير اللعبة: زوج أحمر!

سألت ميغان بشيء من العبوس: هل تظن أن هذا هو ما سيحدث في هذه القضية؟

- لا بد أن يحدث عاجلاً أو آجلاً. الحظ مع المجرم حتى الآن، ولكنه لا بد أن ينقلب في لحظة ما ويصبح معنا. وأنا أعتقد أنه قد بدأ بالانقلاب وأن مفتاح الجوارب هو البداية. والآن بدلاً من أن يجري كل شيء لصالحه فإن شيئاً ما على الأقل سينقلب ضده، وسوف يبدأ بارتكاب أخطاء.

قال فرانكلين: أظن أنك تحاول تشجيعنا. هذا جيد، فكلنا

نحتاج لبعض الراحة، أنا مثلاً ينتابني إحساس قاتل بالعجز في كل يوم جديد أصحو فيه.

قال دونالد فريزر: تبدو لي مسألة صعبة جداً؛ لا أظن أننا سنحقق أي شيء له قيمة عملية.

قالت ميغان فجأة: لا تكن انهزامياً يا دون!

احمرّ وجه ماري دراور قليلاً وقالت: أريد أن أقول إنكم لن تعرفوه أبداً. هذا الشيطان الوغد موجود في هذا المكان ونحن هنا أيضاً، ورغم ذلك فإنكم تصادفون أحيانا أشخاصاً بأغرب طريقة.

قلت بانفعال: لو أننا فقط نستطيع عمل شيء أكثر!

- يجب أن تتذكر يا هيستنغز أن الشرطة يعملون كل شيء ممكن وبصورة معقولة. يمكن أن يكون المفتش كروم الطيب غاضباً، ولكنه ضابط شرطة متمكن جداً. والكولونيل رئيس الشرطة رجل عملي، وقد اتخذ كل الاجراءات لمراقبة ميدان السباق. سينتشر رجال باللباس المدني في كل مكان، وهناك أيضاً حملة الصحافة، لقد وُجِّه تحذير للناس بشكل كامل.

هز دونالد فريزر رأسه قائلاً: لا أظن أنه سيحاول ارتكاب الجريمة في هذه الظروف.

قال جيركل ببرود: لسوء الحظ إنه مجنون! ماذا ترى يا سيد بوارو؟ هل سيتوقف أم سيحاول تنفيذ جريمته؟

- يبدو من قوة الهاجس الذي يستحوذ عليه أنه سيحاول تنفيذ وعده، فهو سيقر بفشله ما لم يفعل، وهذا ما لا يسمح به غرور

المجنون، وربما كان هذا هو رأي الدكتور ثومبسون أيضاً. فلنأمل أن نلقي القبض عليه أثناء محاولته.

هز دونالد رأسه مرة أخرى في إشارة على عدم الاقتناع وقال: سيكون ماكراً جداً.

نظر بوارو إلى ساعته ففهمنا قصده، واتفقنا على أن نعود إلى الاجتماع على فترات، وأن لا ننقطع عن مراقبة الشوارع في الصباح ثم نتوزع في أماكن مختلفة في ميدان السباق. وأنا أشمل الجميع هنا رغم أن الكل لن يكونوا مفيدين بالضرورة، فأنا مثلاً لا أعرف المجرم ولن أميزه لو التقيت به. مع ذلك كانت الفكرة أن ننفصل ويمشي كل واحد في طريق لكي نغطي مناطق واسعة قدر الإمكان.

في تلك اللحظات كان دونالد فريزر واقفاً بجانب النافذة ينظر إلى الخارج وهو مستغرق في التفكير، فنظر إليه فرانكلين وتأكد من شرود ذهنه واستغراقه في التفكير ثم اقترب من بوارو وخفض صوته قائلاً: ماذا عن زيارتك لزوجة أخي يا سيد بوارو؟ هل سمعت منها تعليقاً أو تلميحاً...

ثم سكت ببعض الارتباك، فأجابه بوارو ببراءة أثارت في نفسي بعض الريبة: هل سمعتُ من زوجة أخيك تعليقاً أو تلميحاً؟ عن ماذا تقصد؟

احمرّ وجه فرانكلين وقال: لعلك ترى أن هذا ليس وقت الخوض في أمور شخصية.

- أبداً.

- ولكني أشعر بالحاجة إلى توضيح بعض الأمور.

- هذا تصرف يثير الإعجاب.

أخشى أن فرانكلين بدأ بالارتياب من وجه بوارو اللطيف، فانقبض وجهه وقال: إن زوجة أخي دمثة جداً وعلاقتنا ممتازة، لكنها بالطبع مريضة مرضاً شديداً منذ وقت طويل، وفي مثل مرضها هذا حيث تعطى عقاقير مخدرة لتخفيف الألم فقد تميل لتصور أمور عن الناس...

- آه، نعم.

في تلك المرحلة من الحديث لم يعد ممكناً عدم فهم البريق الذي يشع في عينَي بوارو، ولكن فرانكلين كان منهمكاً في مهمته الدبلوماسية فلم يلاحظه. قال: بخصوص ثورا، الآنسة غري...

سأله بوارو بنبرة بريئة: إذن أنت تتكلم عن الآنسة غري، أليس كذلك؟

- بلى، ففي رأس الليدي جيركل أفكار معينة، وكما تعلم فإن ثورا، أقصد الآنسة غري، فتاة جميلة...

وافقه بوارو قائلاً: ربما، نعم.

- والنساء، حتى أفضلهنّ، يحقدن على النساء الجميلات. وبالطبع كانت ثورا ذات قيمة كبيرة لأخي الذي كان يكرر أنها أفضل سكرتيرة عملت معه. كان معجباً بها وبكفاءتها لكن علاقتهما كانت ضمن حدود العمل فقط. أقصد أن ثورا ليست من الفتيات اللاتي...

قال بوارو في محاولة للمساعدة: بالتأكيد.

مضى فرانكلين قائلاً: ولكن أخشى أن زوجة أخي كانت شديدة الغيرة. وهي لم تظهر أي مشاعر سلبية على الإطلاق، ولكن بعد وفاة أخي وعندما بحثت معها فكرة بقاء الآنسة غري اهتاجت كثيراً. بالطبع عزوت اهتياجها بدرجة ما إلى مرضها والمهدئ الذي كانت تتناوله. هكذا كان رأي الممرضة كابستيك، قالت إن علينا عدم لومها على الأفكار التي تحملها في رأسها.

ثم سكت برهة فقال بوارو: أكمل لو سمحت.

- الذي أريدك أن تفهمه يا سيد بوارو هو أن تلك الأفكار لا صحة لها في الحقيقة، إنها مجرد تخيلات امرأة مريضة. انظر إلى هذه، إنها رسالة استلمتها من أخي عندما كنت في ماليزيا، أرجو أن تقرأها لأنها توضح حقيقة علاقته بالآنسة غري.

تناولها منه بوارو، وانتقل فرانكلين إلى جانبه فقرأ مقاطع منها بصوت مرتفع وهو يشير إليها بأصبعه:

> الأمور تجري هنا بصورة عادية جداً. لقد تحسنت حالة شارلوت وتعافت من الألم بصورة محدودة. أتمنى لو أستطيع قول المزيد. قد تتذكر ثورا غري؟ إنها فتاة قديرة ومصدر راحة كبيرة، وما كنت لأعرف ماذا أفعل في هذا الوقت العصيب لولا وجودها. إن تعاطفها واهتمامها لا يَفْتران ولها ذوق رائع وإحساس بالأشياء الجميلة، وهي تشاركني الاهتمام بالتحف الصينية. في الحقيقة كنت محظوظاً عندما وجدتها، فلا يمكن لأي ابنة أن

تكون أكثر قرباً وتعاطفاً منها. كانت حياتها قاسية ولم تكن سعيدة دائماً، ولكنني سعيد بأن أشعر أن لها الآن بيتاً تلقى فيه العاطفة الحقيقية.

قال فرانكلين: أرأيت ما هو شعور أخي ناحيتها؟ إنه يفكر فيها كابنة له. من الظلم أن تفكر زوجة أخي بطردها من البيت في اللحظة التي مات فيها أخي. النساء شريرات يا سيد بوارو!

- تذكّرْ أن زوجة أخيك مريضة وتتألم.

- أعرف، وهذا ما أقوله لنفسي؛ على المرء أن لا يحكم عليها في هذه الظروف. على أنني حرصت على أن تقرأ هذه الرسالة حتى لا تكوّن انطباعاً جائراً عن ثورا من خلال أي شيء قالته الليدي جيركل.

أعاد بوارو إليه الرسالة وقال وهو يبتسم: أؤكد لك أنني لم أسمح لنفسي أبداً بتكوين انطباع غير صحيح من أي شيء يقوله أي واحد لي؛ أنا أكوّن دائماً أحكامي الخاصة بحياد كامل.

قال فرانكلين وهو يعيد الرسالة إلى جيبه: حسناً، على أي حال أنا سعيد لأنك قرأتها. حسناً، ها هنّ الفتيات قد جئن، ومن الأفضل أن ننطلق.

بينما كنا نغادر الغرفة ناداني بوارو وسألني قائلاً: هل قررت مصاحبة الحملة يا هيستنغز؟

- نعم، فلن أكون سعيداً بالبقاء هنا بلا عمل.

- عظيم، أنت أفضل مني في النشاط البدني، وهنا يجتمع

نشاط العقل مع نشاط الجسد. هل أنا على حق في افتراضي أنك تنوي مرافقة واحدة من الفتيات؟

- هذا ما فكرت فيه.

- ومن هي الفتاة التي من المفترض أن تشرفها بمرافقتك لها؟

- لم أفكر بعد.

- ماذا عن الآنسة برنارد؟

اعترضت قائلاً: إنها من النوع العصامي ولا تحب أن يرافقها أحد.

- والآنسة غري؟

- هذا الاقتراح أفضل.

- يبدو أنك خططت لقضاء اليوم مع الفتاة الشقراء يا هيستنغز! أنا آسف لتغيير خططك، ولكني أطلب منك أن ترافق غيرها.

- حسناً، ومن هو الشخص الذي تقترح أن أرافقه؟

- سوف ترافق ماري دراور، وأطلب منك أن لا تبتعد عنها.

- ولكن لماذا يا بوراو؟

- لأن اسمها يبدأ بحرف الدال. لا يمكن أن نسمح لأنفسنا بالمخاطرة يا صديقي العزيز.

اقتنعت بوجهة نظره، ورغم أنني رأيت الخطر بعيد الاحتمال في البداية إلا أنني أدركت في تلك اللحظة أن حقد المجرم المجهول

على بوارو قد يدعوه إلى مراقبة حركاته وعلاقاته، وقد يخطر بباله التخلص من ماري دراور لتكون ضربة موجعة شخصية لبوارو.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

(ليس من رواية الكابتن هيستنغز)

همهم السيد ليدبيتر بانزعاج عندما نهض جاره ومَرّ أمامه وهو يمشي مضطرباً، وفي تلك اللحظة سقطت قبعته على مقعد أمامه فانحنى فوقها لكي يسترجعها وقطع عليه الفلم الذي كان منسجماً في متابعته. كانت تلك لحظة الذروة في الفلم المثير الذي كان السيد ليدبيتر يتطلع لرؤيته منذ أسبوع كامل، وكانت بطلة الفلم تصرخ بصوت يائس: "قد أعاني من الجوع ولكني لن أستسلم... تذكر هذه الكلمات: إن العصافير لا تموت!"

حرك السيد ليدبيتر رأسه باهتياج من اليمين إلى اليسار لكيلا تفوته اللقطة الحاسمة وهو يتساءل ساخطاً: هؤلاء الناس! لماذا لا ينتظرون حتى نهاية الفلم؟ ما لهم يغادرون في هذه اللحظة المثيرة؟ آه، هذا أفضل، مرّ الرجل المزعج أمامه وغادر الصف، والآن بات السيد ليدبيتر قادراً على رؤية الشاشة دون إزعاج.

تنفس السيد ليدبيتر الصعداء عندما انتهى الفلم وأضيئت الأنوار، ونهض على قدميه ببطء وطرفت عيناه قليلاً. لم تكن عادته أن يغادر صالة السينما بسرعة أبداً، بل كان دائماً يلبث هناك دقائق حتى يعود إلى الحياة الواقعية. نظر حوله، لم يكن النَّظّارة

كثيرين هذا المساء، وهذا طبيعي لأن أكثر الناس كانوا في ميدان السباق. ولم يكن السيد ليدبيتر من هُواة السباق أو لعب الورق أو الشرب أو التدخين، كان يستمتع فقط بالذهاب إلى دور السينما.

أسرع أكثر الحاضرين باتجاه المخرج واستعد السيد ليدبيتر بدوره للخروج، ولاحظ أن الرجل الذي جلس على مقعد أمامه كان نائماً ورأسه يميل إلى الأسفل، وشعر بالسخط لأن شخصاً يمكن أن ينام وهو يشاهد مثل هذا الفلم المثير. ولاحظ الضيق في لهجة الرجل الذي أراد المرور أمام النائم، فقد كانت ساقاه ممدوتين على طولهما وتقطعان الطريق. قال بنفاد صبر: اسمح لي يا سيدي!

وصل السيد ليدبيتر إلى المخرج ونظر خلفه، فلاحظ نوعاً من الاضطراب وقد تجمّع البواب وثلّة صغيرة من الناس. ربما كان الرجل ثملاً وليس نائماً. تردد ثم خرج، وبذلك خسر مشاهدة الحدث المثير لهذا اليوم.

قال البواب: أظن أنك على حق يا سيدي، إنه مريض... لماذا؟ ماذا في الأمر يا سيدي؟

رفع الآخر يده وهو ينظر مدهوشاً إلى مادة لزجة حمراء، ثم هتف: دم!

صرخ البواب صرخة مكتومة، ورأى طرف كتاب ذي غلاف أصفر يظهر من تحت المقعد، فصاح بصوت مذعور: يا إلهي! إنه مجرم الحروف الأبجدية!

* * *

الفصل الخامس والعشرون

(ليس من رواية الكابتن هيستنغز)

خرج السيد جاسْت من سينما ريغال فرفع عينيه إلى السماء فوقه وتمتم قائلاً: مساء جميل، مساء جميل حقاً.

ثم مشى في الشارع وهو يبتسم في نفسه راضياً حتى وصل إلى نُزُل «البجعة السوداء» الذي يقيم فيه، فارتقى الدرَج إلى غرفته الصغيرة. كانت غرفة صغيرة فاسدة الهواء في الطابق الثاني تطل على ساحة داخلية صغيرة، وعندما دخل الغرفة تلاشت ابتسامته فجأة عندما لاحظ بقعة داكنة على طرف كمه. لمسها متردداً، كانت حمراء رطبة لزجة... بقعة دم! ثم وضع يده في جيبه فأخرج منها شيئاً، سكيناً طويلة رفيعة، وكان نصلها الحاد لزجاً أحمر اللون أيضاً.

جلس السيد جاست لوقت طويل وعيناه تدوران حول الغرفة كحيوان وقع في المصيدة، ورطّب لسانه الجاف بشفتيه مرات عديدة، ثم قال وكأنه يتجادل مع شخص، كأنه تلميذ مدرسة يدافع عن نفسه أمام مديره: إنها ليست غلطتي!

مرر لسانه بين شفتيه مرة أخرى، وتجمدت عيناه على حوض المغسلة في طرف الغرفة. بعد دقيقة قام فصَبّ الماء من إبريق قديم

داخل الحوض، ثم خلع المعطف وغسل الكم وعصره بعناية. تبّاً! لقد صار ماء الحوض أحمر قانياً!

في تلك اللحظة سمع طرقات على الباب، فوقف يحدق جامداً بلا حراك، ثم فُتح الباب وظهرت شابة بدينة وفي يدها إبريق. قالت: آه، معذرة يا سيدي، هذا الماء الحار لك يا سيدي.

عندها استطاع أن يتكلم، قال: شكراً لك، لقد غسلت يدي بالماء البارد.

لماذا قال ذلك؟ في الحال تركزت عيناها على المغسلة! قال بطريقة دفاعية: لقد... لقد جرحت يدي.

بقيت صامتة برهة قبل أن تقول: نعم يا سيدي.

ثم خرجت وأغلقت الباب، فوقف السيد جاست وكأنه تحول إلى صخرة جامدة. ثم أنصت، هل جاء أحد؟ سمع بعض الأصوات، همهمات وأصوات أقدام تصعد؟ لا، في الحقيقة هو لم يسمع شيئاً سوى دقّات قلبه.

ثم دَبّ النشاط في أوصاله فجأة، فارتدى معطفه ومشى إلى الباب على رؤوس أصابعه وفتحه. لم يسمع أي أصوات غير عادية، فنزل على الدرج ببطء، ولم يكن في المكان أحد.

وقف عند أسفل الدرج وتساءل: أي طريق يسلك الآن؟

فكر وقرر، ثم اندفع بسرعة فعبرَ الممر وخرج من الباب الذي يؤدي إلى الساحة الخلفية. هناك كان سائقان يعملان على إصلاح

سيارتيهما ويتناقشان في نتائج السباق، فأسرع السيد جاست عابراً الساحة وخرج إلى الشارع.

وصل إلى آخر المبنى ودار إلى اليمين، ثم إلى اليسار، ثم إلى اليمين مرة أخرى. هل يجازف ويذهب إلى المحطة؟ نعم، ستكون فيها حشود من الناس وقطارات كثيرة، وإذا ما حالفه الحظ فسوف تمشي الأمور بصورة طيبة. نعم، لو أن الحظ يحالفه هذا اليوم!



الفصل السادس والعشرون

(ليس من رواية الكابتن هيستنغز)

كان المفتش كروم يستمع إلى وصف السيد ليدبيتر المثير: أؤكد لك أن قلبي يكاد يتوقف عندما أفكر بهذا الأمر يا حضرة المفتش. لا بد أنه كان يجلس بجانبي طوال الفلم!

قال المفتش كروم: دعني أستوضح الأمر تماماً. لقد خرج هذا الرجل قُبَيل انتهاء الفلم ومرّ أمامك، وفي تلك اللحظة تعثّر...

قاطعه السيد ليدبيتر: تظاهر بأنه تعثر، لقد أدركت الحقيقة لاحقاً. ثم انحنى فوق المقعد الذي كان أمامي لكي يلتقط قبعته التي سقطت عن رأسه، ولا بد أنه طعن الرجل المسكين في تلك اللحظة.

- ألم تسمع شيئاً؟ صرخة أو صوت أنين مثلاً؟

لم يسمع السيد ليدبيتر شيئاً سوى صوت الممثلة العالي الأجش، لكن خياله النشط اخترع صرخة أنين مكتوم.

قبِلَ المفتش كروم تلك الصرخة على ظاهرها وطلب منه الاستمرار فقال: ثم خرج بعد ذلك.

- هل يمكنك أن تصفه؟

- كان رجلاً ضخماً وطوله متران، عملاقاً هائلاً.

- أشقر أم أسمر؟

- إنني... حسناً، لست واثقاً، لكن أظن أنه كان أصلع ذا شكل شرير.

سأل المفتش كروم: هل كان يعرج؟

- نعم، نعم، لقد ذكّرتني؛ أعتقد أنه كان يعرج.

أومأ المفتش كروم برأسه موافقاً وقدّم له الإفادة ليوقعها ثم صرفه، وبعد ابتعاده قال بلهجة متشائمة: هذا أسوأ شاهد يمكن أن يقابله المرء؛ من الواضح أنه ليست لديه أدنى فكرة عن شكل الرجل. دعنا نقابل البواب مرة ثانية.

دخل بوّاب صالة السينما ببزّته الرسمية وهيئته العسكرية ووقف بانتباه وعيناه مركزتان على الكولونيل أندرسون.

- والآن يا جيمسون، دعنا نسمع قصتك.

رفع جيمسون يده بالتحية العسكرية ثم قال: نعم يا سيدي، بعد انتهاء العرض قيل لي إن في الصالة رجلاً مريضاً، وكان يجلس في مقعد الشلنَين بوضع مائل، وكان حوله بضعة رجال آخرين. أحد الرجال الذي يقفون بجانبه وضع يده على معطف الرجل المريض، ولفت انتباهي أن يده تلوثت بالدم يا سيدي، عندها تأكدت أن الرجل كان ميتاً، مطعوناً يا سيدي، ثم لاحظت دليل القطارات تحت المقعد، فلم ألمسه وأبلغت الشرطة في الحال. أتمنى أن أكون قد تصرفت بصورة صحيحة يا سيدي.

- لقد تصرفت بصورة صحيحة جداً يا جيمسون.

- شكراً لك يا سيدي.

- هل لاحظت أحداً يغادر مقاعد الشلنين قبل انتهاء الفلم ببضع دقائق؟

- الكثيرون صنعوا ذلك يا سيدي.

- هل يمكنك أن تصفهم؟

- أخشى أني لا أستطيع يا سيدي. أحدهم كان السيد جيوفري بارفيل، وكان هناك شاب اسمه سام بيكر مع زوجته الشابة. لم ألاحظ أي شخص آخر بنحو خاص.

- شكراً لك يا جيسون، هذا كل ما نريده منك.

- نعم يا سيدي.

أدى البواب التحية وانصرف، فقال الكولونيل أندرسون: لقد حصلنا على المعلومات الطبية، فلنقابل الآن الشخص الذي اكتشف الرجل الميت.

في تلك اللحظة دخل أحد رجال الشرطة وأدى التحية قائلاً: السيد هيركيول بوارو هنا يا سيدي ومعه رجل آخر.

قطب المفتش كروم جبينه، وقال الكولونيل: حسناً، قل له أن يتفضل بالدخول.

* * *



الفصل السابع والعشرون

جريمة دونكاستر

سمعت طرف العبارة التي قالها المفتش كروم وأنا داخل في إثر بوارو مباشرة، وكان القلق واضحاً في وجهَيهما هو ورئيس الشرطة، الكولونيل أندرسون، الذي حيّانا بإيماءة من رأسه وقال: أنا سعيد بقدومك يا سيد بوارو، لقد واجهتنا المشكلة مرة أخرى.

- ارتكب مجرمنا المجنون جريمته الجديدة؟

- نعم. إنه عمل لعين وقح. تصنّع السقوط فوق رجل آخر وطعنه في ظهره.

- إذن فالجريمة نُفِّذت طعناً بالسكين هذه المرة؟

- نعم، إنه ينوّع أساليبه، ضربة على الرأس ثم شنق والآن سكّين، إنه شيطان متعدد الأساليب! ها هو التقرير الطبي إذا كنت مهتماً بالاطلاع عليه. وقد عُثر على دليل القطارات على الأرض بجوار مقعد القتيل.

سأله بوارو: هل عُرف القتيل؟

- نعم، وقد أخطأ القاتل هذه المرة، فالضحية رجل يدعى إيرلسفيلد، جورج إيرلسفيلد، ويعمل حلاقاً.

- غريب!

سأل كروم: هل نُدخل الشاهد التالي؟ إنه يرغب بالعودة إلى بيته.

- نعم، دعنا نكمل العمل.

دخل رجل في متوسط العمر، وكان متأثراً جداً وصوته يتهدج من الانفعال. قال: هذه أكثر التجارب فظاعة في حياتي. إن قلبي ضعيف يا سيدي، ضعيف جداً، أخشى أن تقتلني الصدمة.

سأله المفتش: اسمك من فضلك.

- داوْنز، روجر إيمانويل داونز.

- ما هي مهنتك؟

- إنني معلم في مدرسة هايفيلد للأولاد.

- حسناً يا سيد داونز، أرجو أن تخبرنا بما حدث بأسلوبك الخاص.

- سأخبركم باختصار أيها السادة. عند انتهاء العرض نهضت من مقعدي، وكان عن يساري مقعد فارغ، وفي المقعد الذي بعده رجل نائم... أو هكذا بد لي وقتها. لم أستطع المرور لأن ساقية كانتا ممدوتين أمامه، فطلبت منه أن يسمح لي بالمرور، ولمّا لم يتحرك كررت طلبي بصوت أعلى قليلاً، ولكنه بقي ساكناً. ثم هززته من كتفه لأوقظه فهوى جسده إلى أسفل، فعرفت عندها أنه في غير وعيه أو أنه مريض جداً، فهتفت بصوت مرتفع: هذا الرجل مريض، استدعوا البواب. ثم رفعت يدي عن كتف الرجل

فشعرت بها رطبة وكان لونها أحمر! أؤكد لكم يا سادة أن الصدمة كانت فظيعة! أخشى أن يصيبني مكروه، فأنا أعاني من ضعف في القلب منذ سنوات...

نظر الكولونيل أندرسون إلى السيد داونز بطريقة غريبة ثم قال: يمكنك أن تعتبر نفسك رجلاً محظوظاً يا سيد داونز.

- أنا محظوظ فعلاً يا سيدي، فلم يخفق قلبي خفقة واحدة.

- لم تفهم ما أقصده تماما يا سيد داونز. لقد قلتَ إنك كنت تجلس على بعد مقعدين من الرجل، أليس كذلك؟

- جلست في البداية في المقعد المجاور للرجل القتيل، ثم انتقلت لأقعد خلف مقعد فارغ فأشاهد الشاشة بوضوح.

- أنت في نفس طول وجسم الرجل القتيل تقريباً وكنت ترتدي وشاحاً صوفياً حول عنقك مثله تماماً، أليس كذلك؟

قال السيد داونز بمشقّة: لم ألاحظ!

قال الكولونيل: سأخبرك أيها الرجل بالسبب الذي اعتبرتك محظوظاً من أجله. لقد اختلط الأمر على القاتل بطريقة أو بأخرى عندما تبعك إلى الصالة فقضى على الرجل الخطأ. أراهنك على أنك كنت أنت المقصود بتلك السكين يا سيد داونز.

مع أن قلب السيد داونز صمد أمام المِحَن السابقة إلا لم يكن كذلك هذه المرة، فقد غطس في مقعده لاهثاً مُحمَرّ الوجه وهو يلحّ لاهثاً: ماء، ماء...

أحضروا له كأس ماء، وما لبث بشرته أن بدأت تعود إلى

لونها الطبيعي وقال: أنا؟ لماذا أنا؟!

قال كروم: الأمر يبدو هكذا، هذا هو التفسير الوحيد.

- تقصد أن هذا الرجل، هذا الشيطان، هذا المجنون المتعطش للدماء... كان يتبعني وينتظر الفرصة المناسبة؟

- يبدو أن هذا هو ما حصل.

- ولكن أستحلفكم بالله، لماذا أنا؟

كافح المفتش كروم لمنع نفسه من الرد بعبارة: "ولِمَ لا، ألا يبدأ اسمك بحرف الدال؟" وبدلاً من ذلك قال: أخشى أن من غير المفيد توقّع أن تكون للمجنون أسباب لما يفعله.

استيقظ السيد داونز من صدمته وراح يردد: فليرحمني الله، فليرحمني الله!

ثم نهض وقد بدا فجأة عجوزاً مرتعشاً وقال: إن كنتم لا تحتاجون إليّ بعدُ أيها السادة فسوف أعود إلى البيت، فأنا لا أشعر أنني على ما يرام.

- تستطيع الذهاب يا سيد داونز، وسأرسل معك شرطياً ليطمئن على صحتك فقط.

- آه، لا، شكراً لك، هذا ليس ضرورياً.

قال الكولونيل أندرسون بفظاظة: بل ربما كان كذلك.

تحولت عيناه جانباً ليسأل المفتش سؤالاً غير مفهوم، وأومأ المفتش برأسه بإشارة غير مفهومة أيضاً. ثم خرج السيد داونز وهو

يرتعش فقال الكولونيل أندرسون: هذا الرجل لا يدرك الخطر الذي يتعرض له. حسناً، سيكون هناك اثنان للحراسة، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، لقد وضع المفتش رايس الترتيبات اللازمة وسيُبقي البيت تحت المراقبة.

قال بوارو: هل تعتقد أن المجرم سيحاول مرة أخرى إذا اكتشف غلطته؟

قال الكولونيل أندرسون: إنه احتمال قوي، فهذا المجرم صاحب منهج، وسوف يزعجه أن لا تسير الأمور وفق البرنامج المرسوم.

أومأ بوارو برأسه موافقاً فيما قال الكولونيل أندرسون بانفعال: أتمنى لو نحصل على وصف لهذا الرجل! ما زلنا نعيش في ظلام.

قال بوارو: قد يأتي.

- أهذا ما تظنه؟ حسناً، إنه ممكن. أتساءل أحياناً عن هؤلاء الناس كلهم: أليس في رأس كل منهم عينان؟

قال بوارو: اصبر.

في تلك اللحظة دخل شرطي قائلاً: السيد بول من نُزُل «البجعة السوداء» موجود هنا ومعه فتاة يا سيدي، وهو يعتقد أنه يملك معلومات قد تساعدكم يا سيدي.

- أحضرهما بسرعة، فنحن نبحث عن أي شيء يساعدنا.

كان السيد بول رجلاً ضخماً بطيء التفكير ثقيل الحركة،

وكانت معه شابة ممتلئة الجسم ذات عينين دائريتين، وبدا واضحاً أنها في حالة من الإثارة الشديدة.

قال السيد بول بصوت بطيء رخيم: أرجو أن لا أكون متطفلاً أو أضيع وقتكم الثمين، ولكن هذه الفتاة، ماري، تعتقد أن لديها معلومات يجب أن تعرفوها.

ابتسمت ماري ابتسامة فاترة، فقال أندرسون: حسناً يا فتاتي، ما اسمك؟

- ماري يا سيدي... ماري ستراود.

- حسناً يا ماري، أخبرينا بما عندك.

التفتت ماري إلى سيدها، فقال السيد بول في محاولة لإنقاذها: إن عملها يقتضي أن تأخذ ماء حاراً إلى غرف النزلاء الذين يقيمون عندنا، وقد جاء بعضهم إلى البلدة لحضور السباق وبعضهم لأغراض تجارية فقط.

قال أندرسون بصبر نافد: نعم، نعم.

قال السيد بول: تكلمي أيتها الفتاة، أخبري السادة بقصتك، لا تخافي من شيء.

تأوهت ماري ثم بدأت بسرد روايتها بصوت لاهث: طرقت الباب ولم أتلقّ أي جواب، وما كنت لأدخل إلا بعد سماع الإذن بالدخول. ولمّا لم أسمع شيئاً فقد فتحت الباب ودخلت، وكان الرجل في الغرفة يغسل يديه...

سكتت وابتلعت ريقها وزفرت زفيراً عميقاً، فقال أندرسون:

استمري يا فتاتي.

نظرت ماري جانباً إلى سيدها، ثم دخلت في القصة مرة أخرى وكأنها أخذت أمراً منه عندما أومأ إليها برأسه ببطء: قلت له: "هذا الماء الحار لك يا سيدي، وقد طرقت الباب ولم أسمع جواباً ففتحته". قال: "لا بأس، لقد غسلت يدي بالماء البارد". وهكذا كان من الطبيعي أن أنظر إلى المغسلة. آه! فليساعدني الله يا سيدي، كانت المياه فيها حمراء قانية!

سأل الكولونيل بحدّة: حمراء؟!

تدخل السيد بول قائلاً: أخبرتني الفتاة أنه كان قد خلع معطفه وأنه كان يمسك بكمّه المبلل. أليس كذلك يا فتاة؟

- بلى يا سيدي، هذا صحيح يا سيدي. ووجهه يا سيدي، كان غريباً، بدا غريباً بدرجة مفرطة. لقد صدمني تماماً.

سألها أندرسون بحدّة: متى حدث هذا؟

- في نحو الساعة الخامسة والربع، أعتقد أن الوقت كان قريباً من ذلك.

قال أندرسون بحدّة: أي قبل أكثر من ثلاث ساعات! لماذا لم تأتوا إلينا على الفور؟

قال بول: عندما سمعنا بالجريمة الجديدة صاحت الفتاة قائلة إنها رأت الدم في المغسلة، وسألتُها ماذا كانت تقصد فأخبرتني، ولم أصدقها فصعدت إلى الغرفة ونظرت بنفسي. لم يكن في الغرفة أحد، وسألت الخدم فأخبرني أحدهم أنه رأى رجلاً يتسلل عبر

الممر، وعندما وصفه أدركت أنه الشخص المقصود. عندها اقترحت على ماري أن تذهب إلى الشرطة، ولم تحب هذه الفكرة، أقصد ماري، فأكدت لها أنني سأذهب معها.

أمسك المفتش كروم قلمه ووضع أمامه ورقة وهو يقول: صف لي هذا الرجل بسرعة قدر الإمكان.

قالت ماري: كان متوسط الحجم محدَوْدب الظهر ويضع على عينيه نظارة.

- ماذا عن ملابسه؟

- بدلة سوداء وقبّعة على رأسه.

لم تستطع أن تضيف شيئاً يذكر إلى الوصف السابق، ولم يلحّ عليها المفتش كروم. وفي الحال اشتغلت خطوط الهاتف، رغم أن أياً من المفتش ورئيس الشرطة لم يكن متفائلاً كثيراً.

عرف كروم أن الرجل لم يحمل معه حقيبة سفره عندما شوهد متسللاً خارج الفندق، فقال: لدينا فرصة هنا.

أرسل رقيباً إلى الفندق، وقد رافقه السيد بول وهو منتفخ من الفخر وماري التي كانت دامعة العينين إلى حد ما. وبعد عشر دقائق عاد الرقيب قائلاً: لقد أحضرت السجل يا سيدي، ها هو توقيع الرجل.

تحلقنا حوله، وكانت الكتابة بخط مخربَش صغير لا تسهل قراءته.

سأل رئيس الشرطة: هل هي «أ ب جاش» أو «جاس»؟

قال كروم بطريقة فيها كثير من الإيحاء: المهم أنها «أ ب ج».

سأل أندرسون: وماذا عن الأمتعة؟

حقيبة واحدة كبيرة الحجم يا سيدي، وهي مليئة بعلب من الكرتون.

- علب؟ ماذا كان فيها؟

- جوارب يا سيدي، جوارب نسائية حريرية!

التفت كروم إلى بوارو وقال: تهانينا! لقد كان حدسك صحيحاً.



الفصل الثامن والعشرون

(ليس من رواية الكابتن هيستنغز)

كان المفتش كروم في مكتبه في إدارة سكتلنديارد عندما رنّ جرس الهاتف على طاولته، فرفع السماعة وسمع على الطرف الآخر: جاكوب يتكلم يا سيدي، وقد جاءنا أحدهم بقصة أعتقد أنك تحب سماعها.

تنهد المفتش كروم، فأكثر من عشرين شخصاً يأتون بمعدل يومي زاعمين أن لديهم معلومات مهمة عن قاتل الجرائم الأبجدية، وأكثرهم يأتون بحسن نية ظانّين بصدق أن معلوماتهم ذات قيمة، وكان من واجب الرقيب جاكوب أن يعمل كغربال لأولئك الناس، فيحفظ الأمور العادية ويبلغ البقية إلى رئيسه.

قال كروم: حسناً يا جاكوب، أرسله في الحال.

بعد لحظات سُمع صوت طرقات على باب المفتش، وظهر الرقيب جاكوب ومعه شاب طويل القامة وسيم باعتدال. قال: هذا هو السيد توم هارتِغان يا سيدي، وهو يحب أن يطلعنا على معلومات قد تكون ذات صلة بقضية الجرائم الأبجدية.

نهض المفتش مسروراً وصافحه قائلاً: صباح الخير يا سيد هارتغان، اجلس من فضلك.

جلس توم هارتغان مرتبكاً ونظر بنوع من الرهبة إلى ما كان يسميه في عقله «أحد العظماء»، إلا أن مظهر المفتش أحبطه بصورة غامضة، فقد بدا شخصاً عادياً تماماً.

قال كروم: إذن فلديك شيء تريد إخبارنا به وتعتقد أن له صلة بالقضية؟

بدأ توم حديثه بعصبية: بالطبع قد لا يكون الأمر بهذه الأهمية، فهي مجرد فكرة، وأخشى أن أضيع وقتكم.

تنهد المفتش كروم مرة أخرى وفكر: كم هو طويل الوقت الذي يضيعه في طمأنة الناس! ثم قال: إننا أفضل من يحكم على ذلك، فدعنا نسمع الحقائق يا سيد هارتغان.

- حسناً، الأمر كما يلي يا سيدي: لي صديقة شابة تؤجر أمُّها غرفاً في طريق كامدن تاوْن، وقد أجّرَت غرفة بالطابق الثاني لرجل يدعى جاسْت منذ أكثر من سنة.

سأل المفتش كروم باهتمام: جاست؟!

- نعم يا سيدي، وهو رجل متوسط العمر، غامض ورقيق، ومريض قليلاً يا سيدي. يمكنك القول إنه نوع من المخلوقات التي لا تؤذي حتى ذبابة، ولم أحلم قط بأن في الأمر ما يريب لولا تلك الحادثة الغريبة.

بطريقة مرتبكة ومع بعض التكرار وصف توم تفاصيل لقائه مصادفة مع السيد جاست في محطة يوستون وحادثة سقوط تذكرة القطار، ثم قال: أنت ترى يا سيدي، كيفما نظرت إلى الحادثة

فإنها تبدو غريبة. لقد كانت ليلي (وهي صديقتي الشابة) متأكدة تماماً أنه أخبرها بنيته الذهاب إلى تشلتنهام، وهذا هو ما تقوله أمها أيضاً، فهي تتذكر بوضوح حديثه عن سفره صباح اليوم الذي سافر فيه. وبالطبع لم أهتم بالأمر كثيراً في تلك اللحظة، ثم قالت ليلي إنها تتمنى أن لا يكون هو ضحية القاتل الأبجدي المجنون لو كان ذاهباً إلى دونكاستر، ثم عبّرت عن استغرابها من المصادفة الغريبة، فقد كان السيد جاست في جيرستون عندما وقعت آخر جريمة، فسألتها وأنا أضحك إن كان قد ذهب إلى بكسهيل وقت الجريمة التي قبلها، فقالت إنها لا تعرف أين كان ولكنها تذكر أنه سافر إلى منطقة ساحلية. عندئذ قلت: سيكون غريباً لو كان هو القاتل المجنون نفسه! فقالت إن السيد جاست مسكين ولا يؤذي ذبابة.

هذا كل ما حدث في ذلك الوقت، ولم نفكر في الأمر أكثر من ذلك. وأخيراً وبطريقة ما بدأت أفكر يا سيدي، بدأت أتساءل عن هذا الرجل جاست وأفكر بأنه قد يكون معتوهاً قليلاً على الرغم من أنه يبدو غيرَ مؤذ على الإطلاق.

تنهّد توم بعمق ثم تابع حديثه، فيما أصغى المفتش كروم إليه باهتمام شديد. قال: بعد جريمة دونكاستر قرأت في الصحف أنكم تطلبون معلومات عن رجل اسمه «أ ب جاست»، فذهبت إلى ليلي وسألتها عن الحروف الأولية لاسم السيد جاست. ولم تتذكر في البداية، ولكن أمها تذكرت، قالت إن اسمه يبدأ بالحرفين «أ ب». بعد ذلك حاولنا أن نركز تفكيرنا وأن نتذكر إن كان السيد جاست غائباً عن النّزُل عند وقوع الجريمة الأولى في أندوفر. وكما تعرف يا سيدي فليس من السهل تذكّر أمور مضت عليها

عدة أشهر، ولكننا نجحنا في التثبّت أخيراً لأن السيدة ماربيري كان لها أخ وصل من كندا لزيارتها بتاريخ ٢١ حزيران (يونيو)، وقد وصل على غير موعد ولم تعرف السيدة ماربيري كيف تتدبر أمر إقامته لأن الغرف كلها كانت مشغولة، فاقترحت ليلي أن يقيم في غرفة السيد جاست الذي كان مسافراً في تلك الليلة. وقد تثبتنا من التاريخ تماماً لأن السفينة التي أقلّت الأخ المسافر وصلت إلى ميناء ساوثهامبتون في ذلك اليوم.

أنصت المفتش كروم بإمعان شديد وهو يدوّن ملاحظاته، ثم سأله: هل هذا كل ما لديك؟

- نعم، هذا كل ما لديّ يا سيدي، وأرجو أن لا تفكر أنني أهوّل الأمور.

احمَرّ وجه توم قليلاً، فقال المفتش بلطف: إطلاقاً، لقد أصبت تماماً بمجيئك إلينا. إنه ليس دليلاً قاطعاً بالطبع، فهذه التواريخ قد تكون مجرد مصادفة بالإضافة إلى تشابه الاسم أيضاً، ولكنها بداية جيدة ودافع قوي يبرر لي إجراء مقابلة مع السيد جاست هذا. هل هو في البيت الآن؟

- نعم يا سيدي.

- متى عاد؟

- مساء اليوم الذي وقعت فيه جريمة دونكاستر يا سيدي.

- وماذا يعمل منذ ذلك الوقت؟

- إنه يمضي أكثر الوقت في غرفته يا سيدي، وقد صار غريباً

جداً كما تقول السيدة ماربيري. إنه يشتري كثيراً من الصحف، يخرج في وقت مبكر فيشتري صحف الصباح ثم يخرج بعد الظهر فيشتري صحف المساء. وتقول السيدة ماربيري أيضاً إنه يتحدث مع نفسه كثيراً، وهي تعتقد أنه يزداد غرابة.

- ما هو عنوان بيت السيدة ماربيري؟

زوّده توم به فقال: شكراً لك، سأمر عليها هذا اليوم، ولا حاجة لأن أخبرك بأن تكون حريصاً في تصرفك إذا التقيت مع جاست. أرجو أن تكون راضياً تماماً لأنك تصرفت التصرف الصحيح بمجيئك إلينا، وداعاً يا سيد هارتغان.

سأل جاكوب وهو يدخل الغرفة أخرى بعد بضع دقائق: حسناً يا سيدي، ما رأيك؟ هل تظن أنه مفيد؟

قال المفتش كروم: إنه يبشر بالخير إذا كانت الوقائع كما أوضحها الشاب. لم يحالفنا الحظ مع مصنّعي الجوارب بعد، وقد حان الوقت لنمسك بشيء! أعطني ملف قضية جيرستون.

قضى بضع دقائق يبحث عمّا كان يريده ثم هتف: آه، ها هو. إنه بين الإفادات التي قُدِّمت لشرطة توركي. شاب اسمه هيل يشهد بأنه كان مغادرا سينما توركواي بالاديوم بعد انتهاء العرض عندما شاهد رجلاً غريباً يهمهم مع نفسه قائلاً: يا لها من فكرة! ربما كان لهذه الشهادة قيمة، فلعل فكرة وأسلوب الجريمة الأخيرة وُلدت في ذهن مجرمنا في ذلك الوقت. عندنا هنا اسم وعنوان هيل. إن وصفه للرجل غامض ولكنه ينطبق تماماً مع الأوصاف التي قدمتها ماري ستراود وتوم هارتغان.

أومأ برأسه متفكراً، فسأله جاكوب: هل عندك أي تعليمات يا سيدي؟

- ضع رجلين لمراقبة بيت السيدة في كامدن تاون، ولكن بشكل خفي، فلا أريد لعصفورنا أن يخاف. ينبغي أن أتكلم مع الرئيس، وبعد ذلك سيكون علينا إحضار جاست لنسأله إن كان يحبّ أن يدلي بإفادة.

* * *

التقى توم هارتغان مع ليلي ماربيري التي كانت بانتظاره على الجسر، وسألته: هل مضت الأمور على ما يرام يا توم؟

- نعم، قابلت المفتش كروم، وهو المحقق المسؤول عن القضية.

- كيف يبدو؟

- هادئاً قليلاً، ليس كفكرتي التقليدية عن رجل التحري.

- حسناً، وماذا قال؟

قدم توم لها ملخصا للمقابلة فعلقت قائلة: إذن فهم يعتقدون أنه هو القاتل؟

- إنهم يعتقدون أنه قد يكون هو. على أي حال لا بد أن يذهبوا إليه ويسألوه بعض الأسئلة.

- مسكين السيد جاست!

- لا تتسرعي بالحزن عليه يا فتاتي؛ لو كان هو القاتل

المجهول فقد ارتكب أربع جرائم قتل مروعة.

تنهدت ليلي وقالت بحزن: إنها فظيعة فعلاً.

- حسناً، سنذهب لتناول الغداء الآن. فكري فقط أننا لو كنا على صواب فأتوقع أن يظهر اسمي في الصحف.

- هل سيحصل هذا فعلاً يا توم؟

- نعم، واسمك أيضاً واسم أمك، وصورتك ستظهر في الصحف أيضاً.

ضغطت ليلي على ذراعه بابتهاج قائلة: آه، توم، كم هذا رائع!

- والآن ما رأيك بوجبة لطيفة في مطعم كورنر هاوس؟

ضغطت ليلي على ذراعه ضغطة أشد فقال: هيا بنا إذن.

قالت ليلي: انتظرني دقيقة، سأتصل بالهاتف من المحطة.

- تتصلين بمَن؟

- فتاة كنت على موعد لمقابلتها.

أسرعت تعبر الشارع، ثم عادت إليه محمرّة الوجه بعد ثلاث دقائق فتأبطت ذراعه وقالت: أخبرني أكثر عن سكتلنديارد. ألم ترَ الرجل الآخر هناك؟

- أي رجل آخر؟

- البلجيكي، الرجل الذي استلم الرسائل.

- لم يكن هناك.

- حسناً، أخبرني كل شيء بالتفصيل. ماذا حدث عندما دخلت؟ من الذي تحدثت معه وماذا قلت؟

* * *

أعاد السيد جاست سماعة الهاتف إلى مكانها بلطف، والتفت إلى حيث كانت السيدة ماربيري واقفة عند باب الغرفة والقلق ظاهر عليها بوضوح. سألته بفضول: أنت لا تتكلم كثيراً بالهاتف يا سيد جاست؟

- نعم يا سيدة ماربيري، لا أفعل ذلك كثيراً.

- هل وصلتك أخبار سيئة؟

- لا، لا. كانت المرأة ملحاحة فقط.

نظرت عيناه إلى العنوان المنشور في الصحيفة التي كان يحملها: "مواليد، زيجات، وَفَيات"، ثم قال بلا تفكير: لقد أنجبت أختي لتوها ولداً.

هو الذي لم تكن له أخت قط!

فكرت السيدة ماربيري في سرّها: "إنه لم يذكر قط أن له أختاً طوال تلك السنوات"! ثم هتفت بصوت مرتفع: آه، يا إلهي، كم هذا جميل! لقد فوجئت عندما طلبت المتصلة أن تتحدث إلى السيد جاست، في البداية ظننت أنه صوت ابنتي ليلي، كان يشبه صوتها تقريباً. حسناً يا سيد جاست، أهنئك بالمولود. هل هو أول

مولود أم أن لك أولاد أخت آخرين؟

قال السيد جاست: إنه المولود الوحيد، الوحيد الذي عندي أو يُحتمَل أن يكون عندي. يجب أن أخرج فوراً، فهم يريدون أن أحضر، وأعتقد... أعتقد بأن بإمكاني اللحاق بالقطار إذا أسرعت.

نادته السيدة ماربيري وهو يصعد الدرج: هل ستطول غيبتك يا سيد جاست؟

- لا، يومين أو ثلاثة أيام فقط.

اختفى في غرفته، وعادت السيدة ماربيري إلى المطبخ وهي تفكر بطريقة عاطفية في الطفل الصغير العزيز. ثم وخزها ضميرها وخزة مفاجئة، ففي الليلة الماضية كانوا يفتشون عن التواريخ القديمة، هي وتوم وليلي، في محاولة لتأكيد أن السيد جاست هو ذلك الوحش المرعب مرتكب الجرائم البشعة، فقط بسبب حروف اسمه الأولى وبسبب بعض المصادفات الأخرى.

فكرت في نفسها وهي هادئة البال: لا أظن أنهم يقصدون ذلك حقيقة، والآن أرجو أن يكونوا قد خجلوا من أنفسهم بسبب سوء الظن. وبطريقة غامضة (لم تستطع فهمها) لاحظت أن المولود الذي ولدته أخت السيد جاست قد أزال كل الشكوك التي ساورتها عنه سابقاً. وفكرت وهي تقرّب المكواة من خدّها لتقيس سخونتها: "أرجو ألّا تكون المسكينة قد عانت من الألم وهي تضع مولودها". ولم يلبث تفكيرها أن انتقل إلى تسلسل أحداث الولادة...

* * *

نزل السيد جاست على الدرج بهدوء وفي يده حقيبة، فنظر إلى جهاز الهاتف نظرة خاطفة، واسترجع تلك المحادثة المختصرة في عقله: هل هذا أنت يا سيد جاست؟ أعتقد أنك تحب أن تعرف أن مفتشاً من سكتلنديارد قادم لمقابلتك...

ما الذي قاله؟ لم يستطع أن يتذكره بدقّة. "شكراً لك، شكراً لك يا عزيزتي، إنه لطف كبير منك". لا بد أنها كانت كلمات قريبة من هذه. لكن لماذا اتصلت به؟ هل خمّنَت أم علمت؟ أم أرادت فقط التأكد أنه سيبقى في غرفته بانتظار زيارة المفتش؟ ولكن كيف عرفت أن المفتش قادم؟

وصوتها؟ لقد أخفت صوتها عن أمها حتى لا تعرفها، لكن يبدو وكأنها عرفت. ولكن لو أنها عرفت لما... ومع ذلك قد تكون عرفت، فالنساء غريبات جداً، يصبحن قاسيات على نحو غير متوقع ولطيفات على نحو غير متوقع. لقد شاهد ليلي ذات مرة وهي تطلق فأراً من مصيدة الفئران. إنها فتاة رحيمة، فتاة رحيمة وجميلة!

توقف بجانب مشجب الصالة المحمّل بالمظلات والمعاطف. هل... لكن صوتاً خافتاً قادماً من جهة المطبخ حمله على اتخاذ القرار: لا، لا يتوفر وقت فقد تخرج السيدة ماربيري.

فتح الباب الأمامي فخرج وأغلقه خلفه. والآن: أين؟

* * *

الفصل التاسع والعشرون

في إدارة سكتلنديارد

عُقد المؤتمر مرة أخرى، وضم هذه المرة مساعد المفوض والمفتش كروم وبوارو وأنا.

قال مساعد المفوض: كانت فكرة جيدة منك يا سيد بوارو، أعني البحث عن صفقة كبيرة لبيع الجوارب.

بسط بوارو ذراعيه وقال: كانت فكرة بسيطة، فلا يمكن أن يكون هذا الرجل وكيلاً منتظماً، فقد اعتمد على البيع المباشر بالقطعة بدلاً من الحصول على طلبات لمبيعات الجملة.

- هل اتضحت كل الأمور يا حضرة المفتش؟

قلب كروم ملفاً أمامه وقال: أظن ذلك يا سيدي. هل أعرض عليكم الموقف باختصار حتى اليوم؟

- نعم، من فضلك.

- لقد فحصت التفاصيل مع شرطة جيرستون وبيغنتون وتوركي وحصلت على قائمة بالأشخاص الذين ذهب إليهم وعرض عليهم جواربه، ولا بد من الاعتراف بأنه قام بعمله بجهد تام. أقام في فندق صغير قرب محطة تور، ورجع إلى الفندق في

العاشرة والنصف ليلة الجريمة. ربما استقل القطار الذي انطلق من جيرستون في الساعة العاشرة فوصل إلى توركي في العاشرة والثلث. بناء على أوصافه لم يشهد أحد برؤيته لا في المحطة ولا في القطار، ولكن ذلك اليوم كان موعد سباق دارتموث للقوارب وكانت القطارات العائدة من كينغزوير ممتلئة بالكامل.

التفاصيل مشابهة في بكسهيل، فقد أقام في فندق غلوب باسمه الحقيقي، وعرض جواربه في اثنَي عشر بيتاً تقريباً، بما فيها بيت السيدة برنارد ومقهى جينغركات أيضاً. ثم غادر الفندق مبكراً في المساء ورجع إلى لندن فوصلها بحدود الحادية عشرة والنصف من صباح اليوم التالي. وجرت الأمور في أندوفر أيضاً بطريقة مشابهة. أقام في فندق فيذَرْز وعرض الجوارب على السيدة فاولر جارة السيدة آشر، كما عرضها على ستة أشخاص آخرين في نفس الشارع، وقد حصلت على زوج الجوارب الذي اشترته السيدة آشر (حصلت عليه من ابنة أختها) فوجدته مطابقاً لجوارب جاست تماماً.

علق مساعد المفوض قائلاً: هذا جيد حتى الآن.

قال المفتش: بناء على المعلومات التي وصلتنا ذهبت إلى العنوان الذي زوّدَنا به السيد هارتغان فوجدت أن جاست قد غادر البيت قبل وصولي بنصف ساعة بعدما تلقى اتصالاً هاتفياً. هكذا أخبرتني صاحبة البيت، ويبدو أن هذا الأمر يحصل معه لأول مرة كما قالت.

قال مساعد المفوض: هل له شريك؟

قال بوارو: احتمال نادر، غريب أن... إلا إذا...

سكت فنظرنا إليه متسائلين، إلا أنه اكتفى بهزّ رأسه ولم يقل شيئاً، فتابع المفتش كلامه: فتّشت غرفته تفتيشاً دقيقاً فحسم هذا التفتيش كل شك، فقد وجدت رزمة من أوراق الملاحظات تشبه الأوراق التي طُبعت عليها الرسائل، وعلباً كرتونية فيها كمية كبيرة من الجوارب، ووجدت أيضاً علبة من نفس الحجم والشكل ولكنها لم تَحتوِ على جوارب، بل على ثماني نُسَخ من دليل القطارات الأبجدي.

قال مساعد المفوض: هذا دليل قوي.

قال المفتش وقد صار صوته مفعماً بنشوة الانتصار فجأة: عثرت أيضاً على شيء آخر، عثرت عليه هذا الصباح فقط يا سيدي، ولم يتوفر عندي الوقت لأكتب تقريراً عنه. لم تكن في غرفته أي علامة على وجود سكين.

قال بوارو: سيكون معتوهاً لو أعاد السكين معه!

- لا تنسَ أنه ليس انساناً عاقلاً. على أي حال هذا ما حصل: خطر ببالي أنه ربما أعادها إلى البيت، ثم أدرك خطر إخفائها في غرفته كما أشار السيد بوارو فبحث عن مكان آخر، فأيّ مكان آخر في البيت يُحتمَل أن يختار؟ لقد وصلت إلى الحل مباشرة: المشجب. لا أحد يحرّك المشجب من مكانه أبداً. وقد بذلت مجهوداً كبيراً في إزاحته عن موضعه على الجدار، وكانت هناك.

- السكين؟

- نعم، السكين نفسها، لا شك في ذلك، وكان الدم الجاف ما يزال عليها.

قال مساعد المفوض باستحسان: هذا عمل جيد يا كروم، والآن نريد شيئاً واحداً فقط.

- ما هو؟

- الرجل نفسه.

- سوف نمسك به يا سيدي، لا تخف أبداً.

كانت نبرة المفتش نبرة الواثق. وسأل مساعد المفوض: ماذا تقول يا سيد بوارو؟

استيقظ بوارو من حلمه وقال: عفواً، ماذا تقولون؟

- قلنا إن إلقاء القبض على رجلنا هذا هي مسألة وقت فقط، هل توافقنا على ذلك؟

- نعم، بلا شك.

دلت نبرته على شرود ذهنه مما جعل الآخرين ينظرون إليه متسائلين، وسأله مساعد المفوض: هل يقلقك شيء يا سيد بوارو؟

- نعم، ثمة ما يقلقني كثيراً، كثيراً جداً. لماذا؟ ما هو الدافع؟

قال مساعد المفوض وقد نفد صبره: ولكن الرجل مجنون يا عزيزي!

قال كروم وقد تدخل لإسعاف بوارو: أنا أفهم ما يقصده

السيد بوارو، وهو على حق تماماً. لا بد من وجود هاجس أكيد، وأعتقد أننا سنجد أصل المسألة في عقدة النقص الشديدة. وربما جنون العظمة أيضاً، وفي هذه الحالة من المحتمل أن يربطها مع السيد بوارو، فربما توهم أن السيد بوارو مكلف بالبحث عنه والقبض عليه.

قال مساعد المفوض: يبدو أننا نتحدث بلغة مضطربة هذه الأيام. في أيامي إذا كان الرجل مجنوناً فهو مجنون، لم نكن نبحث عن مصطلحات علمية لتخفيف أثر الجنون. أخشى أن أي طبيب عصري قد يقترح وضع رجل مثل المجرم الأبجدي هذا في دار رعاية ثم يطلقه بعد خمسة وأربعين يوماً أثبت فيها أنه شخص رائع، يطلقه لأنه صار عضوا صالحاً في المجتمع وعليه أن يتحمل مسؤولياته.

ابتسم بوارو ولم يُجب، وقال مساعد المفوض: حسناً، كما تقول يا كروم، إن اعتقاله مسألة وقت فقط. إنني أتساءل: أين هو في هذه اللحظة؟

ثم انفَضّ المؤتمر.



الفصل الثلاثون

(ليس من رواية الكابتن هيستنغز)

وقف السيد جاسْت بجانب دكان الخَضروات ونظر إلى الطريق. نعم، ها هو الكشك وفوقه لوحة كُتب عليها «كشك السيدة آشر لبيع الصحف والتبغ»، وعلى النافذة المغلقة لوحة كُتب عليها: «للإيجار»... فارغ، عديم الحياة.

- اسمح لي يا سيدي!

كانت زوجة بائع الخضروات تحاول تناول بعض حبات الليمون، فاعتذر منها وتحرك جانباً. ابتعد شيئاً فشيئاً عائداً إلى الشارع الرئيسي للبلدة. كان الوضع صعباً، صعباً جداً، فلم تبقَ معه أي نقود، ليس معه أي شيء ليأكله. لم يأكل شيئاً طوال اليوم، وهذا يجعل المرء يشعر بالهلوسة والدُّوار.

مرّ بكشك لبيع الصحف فنظر إلى العناوين: "ما يزال قاتل الحروف الهجائية طليقاً"، "مقابلات مع السيد هيركيول بوارو"... قال السيد جاست في نفسه: هيركيول بوارو؟ أتساءل إن كان يعرف...

لم يكن مناسباً أن يقف ويحدق إلى الصحف، فتابع سيره وهو يفكر: لن أستطيع الاستمرار طويلاً.

قدَمٌ أمامَ قدم، يا له من مشي غريب! قدم أمامه قدم، مضحك، سخيف جداً. ولكن الإنسان حيوان سخيف على أي حال! وقد كان هو، ألكساندر بونابارت جاست، كان مخلوقاً سخيفاً. كان دائماً... كان الناس دائماً يضحكون منه، وما كان بوسعه أن يلومهم.

إلى أين كان ذاهباً؟ لم يعرف، لقد وصل إلى النهاية، لم يعد ينظر لأي شيء باستثناء النظر إلى قدميه، قدم أمام قدم!

رفع بصره. الأضواء أمامه والحروف... إنه مركز شرطة. قال لنفسه: كم هذا مضحك!

ثم اتجه إليه ودخل، وفجأة وبينما هو داخلٌ ترنّح وسقط على الأرض.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

بوارو يوجّه أسئلة

كان يوماً صافياً من أيام شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وقد جاء الدكتور ثومبسون ورئيس المفتشين جاب لكي يُطْلعا بوارو على نتيجة تحقيق الشرطة في قضية ألكساندر بونابارت جاست. وكان بوارو قد عانى من نزلة في الشُّعَب الهوائية منعته من حضور التحقيق، ولحسن الحظ لم يصرّ على ملازمتي له.

قال جاب: لقد أحيل إلى المحاكمة.

سألت: أليس هذا غريباً، أعني أن تجري المرافعة في هذه المرحلة؟ اعتقدت دائماً أن المتهَمين يؤجّلون مرافعاتهم.

قال جاب: ذلك هو الإجراء الاعتيادي، لكن الشاب لوكاس فضّل التعجيل بالدفاع. إنه خبير، ويبدو أن الدفاع الوحيد الممكن هو الزعم بأنه مجنون.

رفع بوارو كتفيه استهجاناً وقال: لكنه لن يحصل على براءة بسبب الجنون.

قال جاب: لعل لوكاس اعتقد أن لديه فرصة، مع دفع من الدرجة الأولى بعدم وجوده في المكان عند وقوع جريمة بكسهيل،

وهذا قد يضعف القضية كلها، ولعله لا يدرك قوة قضيتنا. على أي حال فإن لوكاس يميل إلى الإبداع، إنه شاب ويريد أن يجذب أنظار العامة إليه.

التفت بوارو إلى ثومبسون وقال: ما رأيك يا دكتور؟

- رأيي بجاست؟ لا أعرف ما أقول؛ إنه يلعب دور الرجل العاقل بصورة جيدة، وهو مصاب بالصَّرْع بالطبع.

قلت: يا لها من نهاية مذهلة!

- هل كان سقوطه في مركز شرطة أندوفر بسبب نوبة صَرْع؟

- نعم، لقد كانت هذه نهاية المشهد الدرامي. يبدو أنه يوقّت أحداثه دائماً بصورة جيدة.

سألت: هل يمكن أن يرتكب جريمة دون أن يشعر ودون أن يدرك ما يفعل؟ إنكاره يكاد يدل على ذلك.

ابتسم الدكتور ثومبسون ابتسامة باهتة وقال: لا ينبغي أن تنخدع بتلك المواقف المسرحية؛ برأيي فإن جاست يعرف تماماً أنه ارتكب جرائم القتل.

قال كروم: عندما يكونون متحمسين لهذه الدرجة يفعلون ذلك في العادة.

استمر ثومبسون قائلاً: بالنسبة لسؤالك من الممكن تماماً للمريض بالصرع الخاضع لحالة من السير أثناء النوم أن يرتكب عملاً وهو غير مدرك أنه يفعله، ولكن الرأي الطبي الشائع هو أن

مثل هذا العمل يجب أن لا يتعارض مع إرادة الشخص وهو في حالة اليقظة.

مضى في مناقشة الموضوع وتوسع في التفاصيل، وبقيت أنا على قناعتي بأن جاست لا يمكن أن يكون قد ارتكب تلك الجرائم دون أن يعرف أنه ارتكبها، ولعلي كنت سأغير رأيي لولا الرسائل، فهي تنسف تلك النظرية تماماً لأنها تثبت سبق الإصرار والتخطيط المتروي للجريمة.

قال بوارو: ما زلنا لا نملك تفسيراً للرسائل.

- أهذا ما يثير اهتمامك؟

- طبعاً، لأنها كُتبت لي. لن أطمئن ولن أعتبر القضية محلولة إلا بعد أن أعرف سبب كتابة هذه الرسائل.

- يمكنني أن أفهم وجهة نظرك. هل يمكن أن الرجل واجه متاعب معك بأي طريقة في أي يوم من الأيام؟

- لا، لا أظن.

- عندي فكرة لا أعلم مدى صحتها. ربما بسبب اسمك.

- اسمي؟!

- نعم، فأنت لا تعلم كم يعاني جاست من اسمه، وكل هذا بسبب نزوة أمه. ليس اسماً واحداً بل اسمين طنّانين إلى أبعد حد: ألكساندر وبونابارت. هل تفهم المعاني التي يتضمنها هذان الاسمان؟ ألكساندر، الإسكندر فاتح الدنيا الذي لم يُهزَم قط،

وبونابارت، إمبراطور فرنسا العظيم! إنه يتوق لهزيمة عدو من نفس الدرجة، وهذا العدو هو هيركيول، هرقل الجبّار.

- إن كلماتك موحية جداً يا دكتور، وهي تقدح الأفكار.

- آه، إنه مجرد رأي. حسناً، ينبغي عليّ أن أذهب الآن.

انصرف الطبيب وبقي جاب، فسأله بوارو: هل تقلقك حجة الغياب التي قدمها الدفاع؟

اعترف جاب قائلاً: إنها تقلقني قليلاً بالفعل. في الحقيقة أنا لا أصدق هذه القصة، ولكن دحضها سيكون مشكلة لأن هذا الرجل، سترينج، عنيد جداً.

- صِفْه لي.

- إنه مهندس تعدين في الأربعين من عمره تقريباً، وهو عنيد ومغرور ومعتدّ بنفسه. أظن أنه هو الذي تقدم بشهادته دون أن يطلبه أحد، ثم أصر على شهادته وأجّل سفره إلى تشيلي ريثما تنتهي المحاكمة.

قلت: إنه واحد من أكثر الناس الذين عرفتهم في حياتي ثقةً بالنفس.

قال بوارو بتأمل: هل هو من نوع الرجال الذين لا يحبون الاعتراف بأنهم مخطئون.

- إنه يصر على روايته ولا يضايقه الضغط والإلحاح لتغييرها، وهو يُقسم أنه تعرف على جاست في فندق وايتروكس في إيستبورْن

مساء يوم الرابع والعشرين من تموز (يوليو)، كان وحيداً وأراد شخصاً يتحدث معه فوجد في جاست مستمعاً مثالياً لا يسأل ولا يقاطع! وبعد العشاء لعبا الدومينو معاً، ويظهر أن سترينج كان بارعاً في لعبة الدومينو، ولدهشته وجد أن جاست كان بارعاً جداً فيها أيضاً. إن الدومينو لعبة غريبة والناس يُفتَنون بها ويلعبونها لساعات، ويبدو أن هذا هو ما فعله سترينج وجاست. ويبدو أن جاست أراد أن ينسحب إلى النوم ولكن سترينج لم يأبَه به وأقسم عليه بالاستمرار في اللعب حتى منتصف الليل على الأقل، وهذا ما حصل فعلاً. ثم افترقا بعد منتصف الليل بعشر دقائق. فإذا كان جاست في فندق وايتروكس في إيستبورن بعد منتصف الليل بعشر دقائق صباح يوم الخامس والعشرين فإنه لا يمكن أن يقتل بتي برنارد على شاطئ بكسهيل بين منتصف الليل والساعة الواحدة صباحاً.

قال بوارو بتأمل عميق: تبدو الفكرة معقدة؛ إنها تجعل المرء يفكر بالتأكيد.

قال جاب: لقد قدمَت لصديقنا كروم شيئاً يفكر فيه.

- هل سترينج متأكد من إفادته تماماً؟

- نعم، إنه شيطان عنيد، ومن الصعب معرفة أين الخطأ. لو افترضنا أن سترينج أخطأ وأن الرجل الذي أمضى السهرة معه لم يكن جاست فلماذا يقول إن اسم الرجل هو جاست إذن؟ كما أن الخط الموجود في سجل الفندق هو خطه. لا يمكنك أن تقول إنه شريك له، فالمجانين القتلة ليس لهم شركاء. هل ماتت الفتاة

في وقت أبعد؟ كان الطبيب متأكداً تماماً من الوقت الذي قدّره. وعلى أي حال فإن خروج جاست من الفندق في إيستبورن دون أن يشاهَد وذهابه إلى بكسهيل على بعد أربعة عشر ميلاً كان سيستغرق بعض الوقت.

قال بوارو: إنها مشكلة، نعم.

- رأيي أن هذا لا يهم، فقد أمسكنا بجاست متلبساً في جريمة دونكاستر. المعطف الملوث بالدم والسكين... ليس له مهرب منهما. لا يمكنك أن تمنع المحلفين من تبرئته لو شاؤوا، ولكن ذلك يفسد قضية ضخمة. لقد ارتكب جريمة دونكاستر وارتكب جريمة جيرستون وارتكب جريمة أندوفر، ولا بد أن يكون قد ارتكب جريمة بكسهيل أيضاً، ولكني لا أعرف كيف.

هز رأسه حائراً ثم نهض قائلاً: هذه فرصتك يا سيد بوارو، فالمفتش كروم لم يجد جواباً لهذه المعضلة. استخدم خلايا دماغك الرمادية، دلّنا على الطريقة التي نُفّذت بها هذه الجريمة.

غادر جاب فقلت: ماذا عنك يا بوارو؟ هل خلايا دماغك بنفس مستوى المهمة؟

أجاب بوارو عن سؤالي بسؤال آخر: أخبرني يا هيستنغز، هل تعتبر أن القضية انتهت؟

- نعم، من الناحية العمَلية. لقد قُبض على الرجل وتوفرت معظم الأدلة. الذي بقي الآن هو مجرد شكليات فقط.

هز بوارو رأسه وقال: القضية انتهت! القضية؟ القضية هي

الرجل يا هيستنغز، وما لم نفهم الرجل فإن اللغز يبقى غامضاً. ليس نصراً أن نضعه في قفص الاتهام.

قلت: نحن نعرف الكثير عنه.

قال بوارو: بل نحن لا نعرف عنه أي شيء. نعرف أين وُلد، وأنه شارك في الحرب وجُرح جرحاً خفيفاً في رأسه فسُرِّح من الجيش بسبب الصَّرْع. نعرف أنه سكن عند السيدة ماربيريي لمدة سنتين تقريباً، وأنه كان هادئاً منكفئاً على نفسه، وأنه من الرجال الذين لا يلاحظهم أحد. نعرف أنه اخترع ونفذ خطة محكمة للقتل المنظّم. نعرف أنه ارتكب أخطاء فادحة بصورة لا تصدَّق. نعرف أنه قتل بلا شفقة وبلا رحمة، ونعرف أيضاً أنه كان لطيفاً لأنه حال دون أن نتّهم أي شخص آخر بالجرائم التي ارتكبها، مع أنه لو أراد أن يقتل دون إزعاج فكم هو سهلٌ أن يترك الآخرين يعانون من جرائمه! ألا ترى يا هيستنغز؟ إن هذا الرجل كتلة من التناقضات؟ غبي وماكر، قاس وشهم، فكيف توفق بين طبائعه المتناقضة؟

قلت: ستفهم كل شيء إذا نظرت إليه كحالة نفسية شاذة تستحق الدراسة.

- وهل كانت هذه القضية شيئاً آخر غير هذا منذ البداية؟ من اليوم الأول وأنا أتلمس طريقي في محاولة لمعرفة القاتل، وقد أدركت الآن أنني لا أعرفه أبداً يا هيستنغز! أنا تائه في عُرض البحر.

قلت: شهوة القوة؟

- قد تفسر بعض الأمور، ولكن هذا القدر من التفسير لا يرضيني؛ تبقى أمور مهمة أريد أن أعرفها: لماذا ارتكب هذه

الجرائم؟ لماذا اختار هؤلاء الأشخاص بالذات؟ لماذا أرسل لي تلك الرسائل؟

قلت: بسبب ترتيب الحروف الأبجدية.

سألني: هل كانت بتي برنارد -مثلاً- الشخص الوحيد في بكسهيل الذي يبدأ اسمه بحرف الباء؟ عندي فكرة هنا، لا بد أن تكون صحيحة، يجب أن تكون صحيحة، ولكن إذا كان كذلك...

صمت برهة طويلة ولم أحب أن أقاطعه، والظاهر أنني غفوت قليلاً، فقد انتبهت فجأة وهو يقول متورداً: عزيزي هستينغز، يا ملهمي وروحي الحارسة الطيبة!

ارتبكت تماماً من احترامه المفاجئ، وأصرّ بوارو قائلاً: نعم، هذا صحيح، أنت دائماً تلهمني وتساعدني وتجلب لي الحظ.

سألته: وكيف ألهمتك هذه المرة؟

- عندما رحت أسأل نفسي أسئلة معينة تذكرت ملاحظة سمعتها منك، ملاحظة واضحة بصورة مطلقة. ألم أخبرك ذات مرة أن لديك نزعة لتوضيح الأمور الواضحة؟ أنت تساعدني على ملاحظة الأمور الواضحة التي أهملها أحياناً.

- وما هي ملاحظتي اللامعة؟

- إنها تجعل كل شيء واضحاً بصفاء الكرستال! لقد رأيت الإجابات على جميع أسئلتي: سبب قتل السيدة آشر (الذي لمحته منذ فترة طويلة في الحقيقة) وسبب قتل السير مايكل وسبب جريمة دونكاستر، وأخيراً وهو الأمر الأكثر تشويقاً وأهمية، سبب إرسال

تلك الرسائل إلى هيركيول بوارو!

سألته: هل لك أن تشرح لي من فضلك؟

- ليس الآن. أحتاج أولاً لبعض المعلومات الأخرى، وهذه يمكنني الحصول عليها من كتيبتنا الخاصة. وبعد ذلك، بعد الحصول على الأجوبة، سأذهب وأقابل السيد جاست، أخيراً سنقف وجهاً لوجه، الخصمان «أ ب ج» وهيركيول بوارو.

سألته: وبعدها؟

- بعدها؟ سنتحدث! تأكد يا هيستنغز: لا شيء أخطر من الكلام! إن الكلام -كما أخبرني صديق فرنسي حكيم ذات يوم- هو الاختراع الذي يمنع الناس من التفكير، وهو أيضاً وسيلة ناجحة لاكتشاف الأشياء التي يرغب المرء في إخفائها. إن الإنسان لا يستطيع مقاومة الفرصة التي يوفرها الكلام للكشف عن دخيلة نفسه يا هيستنغز، الإفصاح عن شخصيته.

- وماذا تتوقع من جاست أن يخبرك؟

ابتسم بوراو قائلاً: كذبة، وعن طريق هذه الكذبة سأعرف الحقيقة.

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

أمسِكْ ثعلباً وضعه في صندوق

انهمك بوارو خلال الأيام القليلة التالية في شغل طويل. كان يغيب غيبات غامضة طويلة ويتحدث قليلاً جداً، وعندما يختلي بنفسه ينهمك في التفكير. وكان يرفض باستمرار إشباع فضولي الطبيعي فيما يتعلق بالذكاء الذي أظهرته وكان مصدر إلهام له. ولم يَدْعُني لمصاحبته في مهماته الغامضة، وهو أمر ساءني إلى حد ما.

مع نهاية الأسبوع أعلن عن عزمه زيارة بكسهيل والمناطق المجاورة واقترح عليّ أن أرافقه، ولا حاجة لأقول إنني قبلت دعوته بابتهاج. ثم اكتشفت أن الدعوة لم تقتصر عليّ وحدي، فقد كان أعضاء كتيبتنا الخاصة مدعوين أيضاً، وفي نهاية اليوم كوّنت فكرة عن اتجاه أفكار بوارو.

زار أولاً السيدة برنارد وحصل منها على وصف دقيق عن زيارة السيد جاست والوقت الذي جاءها فيه وماذا قال لها بالضبط. ثم ذهب إلى الفندق الذي أقام فيه جاست وحصل على وصف دقيق لمغادرته وحركاته، وحسبما رأيت لم تكشف أسئلته عن حقائق جديدة، ولكنه بدا راضياً تماماً.

بعد ذلك ذهب إلى الشاطئ، إلى المكان الذي اكتُشفت فيه

جثة بتي برنارد، وهناك راح يمشي في دوائر لبعض الوقت وهو يفحص الموقع باهتمام، وقد رأيت أهمية صغيرة لهذا العمل لأن المَدّ كان يغطي المكان مرتين في اليوم. ثم مشى من الشاطئ إلى أقرب نقطة يمكن أن تقف فيها سيارة، ومن هناك ذهب مرة أخرى إلى المكان الذي تقف فيه حافلات إيستبورن المغادرة إلى بكسهيل.

وأخيراً أخذَنا جميعاً إلى مقهى جينغركات لتناول الشاي، وقد جامل النادلة بأسلوب لطيف معلقاً على لطفها وظَرْفها اللذين لا يتوفران في الفتيات الإنكليزيات عادة، فضحكت ميلي هغلي طويلاً وقالت إنها تعرف تملّق الرجال الفرنسيين. ولم يزعج بوارو نفسه في تصحيح خطئها عن جنسيته، إلا أنه رمقها بنظره بطريقة أجفلتني.

قال بوارو: هكذا انتهيت من عملي في بكسهيل، والآن سأذهب إلى إيستبورن لأجري تحقيقاً صغيراً هناك، ولا حاجة لأن ترافقوني كلكم، ولكن لنعد إلى الفندق أولاً لنتناول الشاي، فشاي كارلتون هذا رديء جداً.

* * *

عندما اجتمعنا حول الشاي قال فرانكلين بفضول: ربما استطعنا تخمين ما تريد الوصول إليه. أنت ذاهب لدحض حجة الغياب التي تشبّث بها الدفاع في المحكمة، أليس كذلك؟ ولكني لا أفهم سبب سرورك، فأنت لم تحصل على أي حقيقة جديدة.

- نعم، هذا صحيح.

- إذن لماذا هذا التفاؤل؟

- اصبر، علينا أن نمنح التفاصيل الوقت الكافي حتى تنتظم معاً.

- على أي حال فأنت تبدو مسروراً من نفسك تماماً.

- لا شيء حتى الآن يناقض فكرتي الصغيرة، هذا هو السبب. حسناً، لقد أخبرني صديقي هيستنغز ذات مرة أنه لعب وهو صبي لعبة اسمها «الحقيقة»، وفيها يُسأل كل واحد ثلاثة أسئلة يطالَب بالإجابة عن اثنين منها على الأقل بصدق، ويمكنه أهمال السؤال الثالث. ومن الطبيعي أن تكون الأسئلة من النوع الأحمق، وقبل البدء يُطلب من كل واحد أن يقسم على قول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

قالت ميغان: حسناً؟

- أريد أن ألعب تلك اللعبة الآن، وليس من الضروري أن تكون الأسئلة ثلاثة، سؤال واحد يكفي، سؤال واحد لكل واحد منكم.

قال فرانكلين وقد نفد صبره: بالطبع سنجيب عن أي سؤال.

- هل تقسمون جميعاً على قول الحقيقة؟

كان جادّاً تماماً ممّا جعل الآخرين جادّين أيضاً، وأقسموا جميعاً كما أمرهم. ثم قال بوارو بعزيمة: جيد، دعونا نبدأ.

قالت ثورا غري: أنا مستعدة.

- آه، السيدات أولاً؟ ولكننا لن نتبع الآداب الاجتماعية هذه المرة؛ سوف نبدأ بشخص آخر.

التفت إلى فرانكلين وسأله: ماذا كان رأيك بالقبعات التي ارتدتها السيدات في ميدان السباق في أسكوت هذه السنة؟

حدق فرانكلين إليه قائلاً: أهذه مزحة؟

- بالتأكيد لا.

- هل هذا هو سؤالك حقيقة؟

- نعم.

بدأ فرانكلين بالضحك ثم قال: حسناً يا سيد بوارو، أنا لم أذهب إلى أسكوت، ولكن حسب ما كنت أراهُنّ في السيارات الذاهبة إلى أسكوت فإن قبعاتهن كانت أسخف من القبعات المعتادة.

- هل كانت حمقاء؟

- حمقاء تماماً.

ابتسم بوارو، ثم التفت إلى دونالد فريزر وسأله: متى أخذت إجازتك هذه السنة؟

جاء الدور على فريزر لكي يحدق مستغرباً، وسأل: إجازتي؟ أول أسبوعين من شهر آب (أغسطس).

ارتعش وجهه فجأة، وتصوّرت أن السؤال ذكّره بالفتاة التي أحبها، ولم أشعر أن بوارو اهتم كثيراً بالجواب، فقد التفت فوراً إلى ثورا غري، ولاحظت الاختلاف البسيط في صوته، فقد كان سؤاله حاداً واضحاً.

- يا آنسة، لو أن الليدي جيركل توفيت فهل كنت ستتزوجين السير مايكل لو عرض عليك الزواج؟

جفلت الفتاة من السؤال ثم قالت غاضبة: كيف تجرؤ على سؤالي مثل هذا السؤال؟ إنها... إنها إهانة!

- ربما، ولكنك أقسمت على قول الحقيقة. نعم أم لا؟

- لقد كان السير مايكل لطيفاً على نحو رائع وعاملني كابنة له تقريباً، هذا هو شعوري تجاهه، مجرد مودّة وامتنان.

- أرجو عفوك، ولكن هذا الجواب ليس «نعم» أو «لا» يا آنسة.

ترددت ثم قالت: الجواب بالطبع هو «لا».

- شكراً لك يا آنسة.

التفت إلى ميغان، وكان وجه الفتاة شاحباً جداً وتتنفس بصعوبة وكأنها تستجمع قواها استعداداً لمحنة قاسية، وخرج صوت بوارو كأنه صوت ضربة الجلاد: ماذا تأمُلين أن تكون نتيجة تحقيقاتي يا آنسة؟ هل تريدينني أن أكشف الحقيقة؟

رفعت رأسها بفخر، وكنت متأكداً تماماً من جوابها، فأنا أعرف أن ميغان تتعصّب للحقيقة، إلا أنني ذُهلت بإجابتها الواضحة القاطعة: لا.

جفلنا جميعاً من المفاجأة، ونظر بوارو إليها بإمعان ثم قال بتقدير شديد: آنسة ميغان، ربما لا تريدين الحقيقة، ولكنك تقولينها بصدق وشجاعة.

ثم التفت إلى ماري دراور وقال بلطف: أخبريني يا صغيرتي، هل لك صديق شاب؟

بدت ماري خائفة وخجلة وقالت: آه سيد بوارو، إنني، إنني... حسناً، لست متأكدة.

ابتسم وقال: هذا جيد يا صغيرتي.

بعد ذلك نظر حوله وكأنه يبحث عني، ثم قال: هيا يا هيستنغز، علينا أن نذهب إلى إيستبورن.

* * *

كانت السيارة في انتظارنا، وخلال دقائق كنا نتجه على طول الطريق الساحلي إلى إيستبورن.

قلت: هل سأجني أي فائدة من سؤالك أي شيء يا بوارو؟

- ليس في هذه اللحظة. استنتجْ بنفسك ما أفعله.

عدت إلى الصمت، ودندن بوارو (الذي كان مسروراً من نفسه) بلحن قصير. وعندما مررنا في طريقنا بقلعة بيفنسي اقترح أن نتوقف ونلقي نظرة عليها، وفيما كنا عائدين إلى السيارة توقفنا لحظة لمراقبة حلقة من الصغار خمّنت من لباسهم أنهم مجموعة كشفية، وكانوا ينشدون بصوت عالي النغمة ذلك المقطع من نشيد الأطفال:

أمسِكْ ثعلباً وضعه في صندوق
لا تسمح له أبداً بمغادرة الصندوق؟

كرر بوارو اللازمة: "أمسِكْ ثعلباً وضعه في صندوق".

صار وجهه متجهماً مهموماً ثم سألني: هل تصيدون الثعالب هنا يا هيستنغز؟

- لا أظن أنهم يصيدون الثعالب في هذه المنطقة.

- قصدت في إنكلترا بصورة عامة. إنها رياضة غريبة، الانتظار في مكان خفي، ثم يسمعون صوت الثعالب... أليس كذلك؟ وبعدها تبدأ المطاردة عبر الخنادق والحقول، ويهرب الثعلب أو يرجع أحياناً إلى الوراء، ولكن الكلاب تلاحقه فتمسك به في النهاية ويموت بسرعة بطريقة مخيفة.

- يبدو الأمر قاسياً، ولكن في الحقيقة...

- هل يستمتع الثعلب بالمطاردة؟ حسناً، قد تظن أن ما سأقوله سخيف يا صديقي، لكنني أرى أن الموت السريع أفضل من المصير الذي يردده أولئك الأطفال، أنْ يُغلَق عليه في صندوق إلى الأبد! لا، هذا لا يفيد.

هز رأسه، ثم قال بعدما تغيرت نبرته: غداً سأزور هذا الرجل جاست.

ثم وجه حديثه إلى السائق قائلاً: عُدْ إلى لندن.

صحت مدهوشاً: ألن تذهب إلى إيستبورن؟!

قال ببرود: وما الحاجة؟ لقد عرفت كل ما أريد.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

ألكساندر بونابارت جاسْت

لم أحضر لقاء بوارو مع ذلك الرجل الغريب، ألكساندر بونابارت جاست، فبسبب علاقته بالشرطة والظروف الغريبة التي أحاطت بالقضية لم يجد بوارو صعوبة في الحصول على موافقة وزارة الداخلية للقائه، ولكن الموافقة لم تشملني. وعلى أي حال كان من الضروري -حسب وجهة نظر بوارو- أن يجري تلك المقابلة بصورة خاصة تماماً، الرجلان وجهاً لوجه. وفي وقت لاحق قدم لي شرحاً مفصلاً عمّا جرى بينهما، فدوّنته وكأنني كنت حاضراً.

كان السيد جاست منقبضاً وقد صارت انحناءة ظهره أكثر وضوحاً، وكانت أصابع يده تقبض على معطفه بطريقة غامضة. ولم يتكلم بوارو لبعض الوقت، بل جلس ينظر إلى الرجل الذي جلس مقابله حتى هدأ الجو. لا بد أنها كانت لحظة مثيرة، أعني هذا اللقاء بين الخصمين، ولو كنت مكان بوارو لشعرت بالنشوة المثيرة، أما هو فكان رجلاً واقعياً، ويبدو أنه شغل نفسه بإحداث أثر معين في الرجل الذي يقابله.

أخيراً سأله بلطف: هل تعرفني؟

هز جاست رأسه نافياً: لا، لا أظن أنني أعرفك. هل أنت من مكتب محاميّ السيد مينارد؟

كانت نبرته مؤدبة ولكنها لا تثير الاهتمام، وبدا وكأنه منشغل بفكرة داخلية.

قال صديقي: أنا هيركيول بوارو.

قالها بلطف شديد وراقب تأثيرها عليه، فرفع السيد جاست رأسه قليلاً وسأل باهتمام مفاجئ: آه، أهو أنت؟

نظر إلى بوارو ملياً، فقابله بوارو بنظرة مشابهة وأومأ إليه بلطف مرة أو مرتين، قال: نعم، أنا الرجل الذي كتبت إليه الرسائل.

في الحال انقطع الاتصال! خفض السيد جاست بصره وتكلم بانفعال واضطراب قائلاً: لم أكتب إليك أبداً، أنا لم أكتب تلك الرسائل. لقد أكدت ذلك مراراً وتكراراً.

قال بوارو: إذا لم تكتبها أنت فمن الذي كتبها؟

- عدو! لا بد أن لي عدواً، فهم كلهم ضدي. الشرطة، كل واحد، جميعهم ضدي... إنها مؤامرة ضخمة!

لم يُجبه بوارو، فقال مؤكداً: كل واحد كان ضدي دائماً.

- حتى عندما كنت طفلاً؟

غرق السيد جاست في التفكير ثم قال: لا، لا، ليس في ذلك الوقت. كانت أمي تحبني كثيراً، ولكنها كانت طموحة، طموحة جداً، وهذا هو السبب الذي جعلها تسميني بهذه الأسماء

السخيفة. كانت لديها فكرة سخيفة بأنني سأكون شخصية مرموقة في العالم، وكانت تلح عليّ دائماً لفرض نفسي وتكلمني عن قوة الإرادة وتقول إن كل واحد في الدنيا هو سيّد مصيره. قالت إنني أستطيع أن أفعل أي شيء!

صمت قليلاً ثم تابع: ولكنها كانت مخطئة تماماً بالطبع، فقد فهمتُ نفسي بسرعة. لم أكن من النوع الذي ينجح في حياته، كنت أرتكب الحماقات دائماً وأجعل من نفسي أضحوكة، وكنت رعديداً أخاف الناس. لقد أمضيت أوقاتاً سيّئة في المدرسة. اكتشف الأولاد اسمي وبدؤوا بالسخرية مني بسببه. لقد كنت سيئاً في المدرسة، في الدروس والواجبات والألعاب... في كل شيء!

هز رأسه ثم قال: ثم ماتت أمي، وكنت سأخيب أملها في كل حال. حتى عندما صرت طالباً في الكلية التجارية كنت غبياً، وقد استغرق مني تعلّم الطباعة والاختزال وقتاً أطول من أي وقت أمضاه أي طالب آخر. ولكني لا أشعر أنني غبي رغم ذلك... أرجو أن تفهم قصدي.

ألقى عليه نظرة استغاثة، فقال بوارو: أعرف ماذا تقصد، استمر لو سمحت.

كنت أشعر مجرد شعور أن كل الناس يعتقدون أنني غبي. إنه شعور محبط جداً، ثم رافقني الشعور نفسه عندما بدأت بالعمل بعد انتهاء الدراسة في الكلية.

حثّه بوارو قائلاً: وهل استمر الشعور نفسه فيما بعد أثناء الحرب؟

أشرق وجه السيد جاست فجأة وقال: لقد استمتعت بالحرب، وكان استمتاعي بسبب ما عانيته منها! لأول مرة في حياتي شعرت أنني رجل كأي رجل آخر، كنا جميعاً في نفس الخطر وكنت مفيداً كأي واحد آخر.

ثم بهتت ابتسامته وهو يقول: ثم أُصبت بذلك الجرح في رأسي، جرح خفيف، ولكنهم سرّحوني بسببه. بعد ذلك صارت تمرّ بي أوقات لا أكون فيها متأكداً ممّا أفعله، وقد وقعت على الأرض عدة مرات، ولكن ما كان ينبغي لهم أن يسرّحوني لهذا السبب. لم يكن ذلك عدلاً.

سأله بوارو: ثم ماذا حدث؟

- لم أتصرف تصرفاً سيئاً بعد الحرب. حصلت على وظيفة كاتب وكانت ذات دخل جيد، ولكنه كان أقل من راتبي في الجيش. ولم أنجح في عملي جيداً فكانت الترقيات تتجاوزني، لم أحصل على أي ترقية. ثم ازداد الأمر صعوبة... كان صعباً جداً، ولا سيما عندما كنت أسقط فجأة. وفي الحقيقة فقد كنت عاجزاً عن التوفيق بين روحي وجسدي، وعندها حصلت على عرض جيد لبيع الجوارب براتب وعمولة.

قال بوارو بلطف: هل تعرف أن الشركة التي تقول إنها عرضت عليك الوظيفة تنكر أنها فعلت ذلك؟

دُهش السيد جاست تماماً، وسكت برهة ثم قال: هذا يثبت تورطهم في المؤامرة؛ لا بد أنهم مشتركون في المؤامرة! أنا أملك الدليل المكتوب، الدليل الخطي. لقد احتفظت برسائلهم التي

كانوا يرسلون فيها التعليمات: الأماكن التي عليّ الذهاب إليها والناس الذين عليّ مقابلتهم لعرض البضاعة عليهم.

- لكنه ليس دليلاً خطياً بالضبط، فهي رسائل مطبوعة.

- النتيجة نفسها، فمن الطبيعي لشركة كبيرة تبيع بالجملة أن تكون رسائلها مطبوعة.

- ألا تعرف أن آلة الطباعة يمكن أن تُعْرف يا سيد جاست؟ لقد طُبعت جميع هذه الرسائل بآلة طباعة واحدة.

- وماذا في ذلك؟

- هذه الآلة هي آلتك، الآلة التي وُجدت في غرفتك.

- لقد أرسلَتها لي الشركة في بداية عملي معها.

- نعم، ولكنك تسلمت الرسائل لاحقاً، لذلك تبدو وكأنك طبعتها بنفسك ثم أرسلتها إلى عنوانك بالبريد. صحيح؟

- لا، لا؛ هذا كله جزء من المؤامرة ضدي! ثم ألا يمكن أن يطبعوا رسائلهم بآلة طباعة من نفس النوع؟

- نفس النوع نعم، ولكن ليس نفس الآلة فعلاً.

ردد السيد جاست بعناد: إنها مؤامرة!

- وماذا عن نُسَخ دليل القطارات الأبجدي التي عُثر عليه في خزانتك؟

- لا أعرف عنها أي شيء، كنت أظن أنها جوارب.

- ولماذا وضعت علامة عند اسم السيدة آشر في أول قائمة بالأشخاص الموجودين في أندوفر؟

- لأنني قررت أن أبدأ معها، لا بد أن يبدأ المرء من مكان ما.

- نعم، هذا صحيح؛ لا بد للمرء أن يبدأ من مكان ما.

- لا أقصد هذا... لا أقصد ما تعنيه.

- كيف تعرف ماذا كنت أعني؟

ارتعش السيد جاست طويلاً ثم قال: لم أفعلها، أنا بريء تماماً. انظر إلى الجريمة الثانية، تلك التي وقعت في بكسهيل. لقد كنت ألعب الدومينو في إيستبورن، عليك أن تعترف بهذه الحقيقة.

عبّر صوته عن فرحة النصر، فقال بوارو بصوت ناعم متأمل: نعم، ولكن أليس من السهل أن يخطئ المرء بتاريخ يوم واحد؟ ولو كنت عنيداً واثقاً كالسيد سترينج فسوف تتمسك بإفادتك ولن تعترف بالخطأ أبداً، إنه من هذا النوع من الرجال. أما سجلّ الفندق فيسهل تسجيل تاريخ غير صحيح عند التوقيع فيه، وقد لا يلاحظ الخطأ أحدٌ في وقته.

- كنت ألعب الدومينو في ذلك المساء.

- أظن أنك ماهر في لعب الدومينو؟

غضب السيد جاست من تلك العبارة وقال: حسناً، أعتقد أنني كما قلت.

- أليست لعبة تشغل التفكير وتحتاج للكثير من المهارة؟

- بلى، فيها مناورة، الكثير من المناورة. كنا نلعبها كثيراً في استراحة الغداء في العمل، وكانت ستدهشك الطريقة التي يتقارب فيها الغرباء الذين يلعبونها.

ضحك ضحكة خافتة ثم أضاف: أتذكّر رجلاً (لم أنسَه قط بسبب كلمة قالها) كنا نتحدث ونحن نشرب قهوتنا ثم بدأنا بلعب الدومينو، وقد شعرت بعد عشرين دقيقة أنني كنت أعرفه طوال حياتي.

سأله بوارو: وماذا قال لك؟

اكفهرّ وجه السيد جاست وقال: لقد أصابني بصدمة، صدمة كبيرة. قال إن مصيري مكتوب في كفّي، وقد أراني كفَّيه والخطوط التي توضح أنه سينجو من الغرق مرتين في وقت متقارب، وقال إنه نجا من الغرق مرتين في وقت متقارب فعلاً. ثم نظر إلى كفَّي وأخبرني بأشياء مذهلة؛ أخبرني أنني سأكون واحداً من أكثر الناس شهرة في إنكلترا قبل أن أموت وأن البلد كلها ستتحدث عني، ولكنه قال...

سكت السيد جاست وتلعثم.

- ماذا قال؟

حملت نظرة بوارو سحراً هادئاً، فنظر السيد جاست إليه كالأرنب المسحور وقال: قال إن وفاتي قد تكون وفاة عنيفة! ثم ضحك وقال: "يبدو تقريباً وكأنك ستموت على مشنقة"! ثم ضحك وقال إنه كان يمزح فحسب.

صمت فجأة وبدأ يقلّب بصره من مكان لآخر وهتف: رأسي!

إنني أتألم كثيراً، هذا الصداع يكون شديداً أحياناً، وتمرّ بي أوقات لا أعرف فيها ما حولي، لا أعرف...

مال بوارو عليه وتكلم بهدوء شديد ولكن بثقة كبيرة، قال: ولكنك تعرف فعلاً أنك ارتكبت جرائم القتل تلك، أليس كذلك؟

رفع السيد جاسْت عينيه، وكانت فيهما نظرة بسيطة ومباشرة تماماً. توقف عن المقاومة وبدا في حالة اطمئنان على نحو غريب، قال: نعم، أعرف.

- ولكني على حق عندما أقول إنك لا تعرف سبب ارتكابها، أليس كذلك؟

قال السيد جاست: صحيح، لا أعرف.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

بوارو يشرح كل شيء

جلسنا في حالة انتباه شديد نصغي لتفسير بوارو النهائي عن القضية.

قال: لقد أقلقني منذ البداية عدم وضوح الدافع في هذه القضية. وبالأمس قال لي هيستنغز إن القضية انتهت، فأجبته بأن القضية هي الرجل! إن اللغز لم يكن لغز جرائم القتل، وإنما هو لغز القاتل المجهول. لماذا ارتكب القاتل هذه الجرائم؟ لماذا اختارني خصماً له؟ ليس جواباً مقنعاً أن الرجل يعاني من اضطراب عقلي، فمن المجازفة افتراض أنه يصنع أشياء مجنونة فقط لأنه مجنون. إن المجنون منطقي في تصرفاته كالرجل العاقل، إلا أنه اقتنع بوجهة نظر غريبة ومنحرفة. إن الذي كان ضرورياً في هذه القضية هو تصور عقل مقتنع بأن ارتكاب أربع جرائم أو أكثر والإعلان عنها مسبقاً برسائل يرسلها إلى هيركيول بوارو هو عمل منطقي عقلاني. إن صديقي هيستنغز يعرف أنني كنت منزعجاً ومرتبكاً من أول لحظة استلمت فيها الرسالة الأولى، وقد شعرت على الفور أن فيها شيئاً غير طبيعي.

قال فرانكلين ببرود: وكنتَ على حق تماماً.

- نعم، ولكني ارتكبت خطأ فاحشاً منذ البداية. لقد سمحت لشعوري، شعوري القوي بشأن الرسالة، أن يبقى مجرد انطباع، تعاملت معه وكأنه مجرد حدس. على أن العقل المتزن الواعي لا يعترف بشيء اسمه حدس أو تخمين مُلهَم. بالطبع يمكنك أن تخمّن، ولكن التخمين سيكون صواباً أو خطأً، فإن كان صحيحاً سميناه حدساً، وإن كان خطأ فأنت في العادة لا تتكلم عنه مرة أخرى! ولكن الذي يسمى حدساً ليس سوى انطباع مستند إلى تجربة أو استنتاج منطقي. فمثلاً عندما يشعر الخبير أن في صورة أو قطعة من الأثاث أو توقيع على شيك شيئاً مُريباً غير طبيعي فإنه في الحقيقة يستمد هذا الشعور من مجموعة إشارات ومعلومات كثيرة، رغم أنه قد لا يفكر فيها بالتفصيل، فخبرته تُغْنيه عن ذلك، وهو يكتفي بالمحصلة النهائية، الانطباع الأكيد بشيء ما غير طبيعي.

حسناً، أعترف بأنني لم أنظر إلى الرسالة الأولى تلك كما يجب. لقد سببت لي فقط قلقاً كبيراً، أما زملائي في الشرطة فقد اعتبروها مجرد خدعة. أنا شخصياً أخذت الأمر بصورة جدية؛ اقتنعت بأن جريمة ستقع في أندوفر كما جاء في الرسالة، ثم وقعت الجريمة فعلاً كما تعرفون. في ذلك الوقت لم أملك أي وسيلة لمعرفة الشخص الذي نفّذ الجريمة، لم يكن بوسعي صنع شيء سوى محاولة فهم أي نوع من الأشخاص هو. وكانت عندي مؤشرات: الرسالة والضحية وأسلوب الجريمة، ثم كان عليّ أن أكتشف الدافع إلى الجريمة والدافع إلى الرسالة.

قال فرانكلين: لعله حب الشهرة.

أضافت ثورا غري: قد يكون السبب هو عقدة النقص.

- بالطبع كان ذلك هو الخط الواضح الذي نستطيع متابعته. ولكن لماذا أنا؟ لماذا هيركيول بوارو؟ كان بوسعه الحصول على شهرة أكبر بإرسال الرسائل إلى شرطة سكتلنديارد، وشهرة أكبر وأكبر بإرسالها إلى الصحف. قد لا تنشر الصحف رسالته الأولى، ولكن بعد وقوع الجريمة الأولى ثم الثانية فإن القاتل سيضمن أقصى درجات الدعاية التي يمكن للصحافة أن تقدمها. إذن لماذا هيركيول بوارو؟ هل صنع ذلك لسبب شخصي؟ ثم وصلت الرسالة الثانية وتبعها مقتل بتي برنارد في بكسهيل، وعندها تأكد الأمر الذي شككت فيه من قبل: سوف تستمر جرائم القتل حسب التسلسل الأبجدي. ولكن الحقيقة التي بدت حاسمة في أعين معظم الناس تركت السؤال نفسه في عقلي كما هو: لماذا ارتكب القاتل هذه الجرائم؟

تململت ميغان برنارد في مقعدها وقالت: ألا يمكن أن يكون قد فعلها من باب شهوة القتل؟

التفت بوارو إليها قائلاً: أنت على حق يا آنسة، الرغبة في القتل أمر معروف، ولكنها لا تناسب وقائع القضية. إن المجنون المهووس بالقتل يرغب عادة بقتل أكبر عدد ممكن من الضحايا، إنها رغبة ملحّة متكررة، ومثل هذا القاتل يهتم بإخفاء آثاره وليس بإعلانها. عندما نفكر في الضحايا الأربعة الذين اختارهم (أو بثلاثة منهم على الأقل) فإننا ندرك أنه كان قادراً على التخلص منهم دون أن يلفت الأنظار إليه ويثير حوله الشبهات. فلماذا أراد القاتل جذب الانتباه إليه؟ ولماذا ترك نسخة من دليل القطارات فوق كل جثة؟ هل صنع ذلك بسبب دافع قهري لا يقاوَم؟ هل كانت لديه عقدة

تتعلق بالقطارات؟ في تلك المرحلة لم أجد أي طريقة لمعرفة ما يدور في ذهن القاتل. بالتأكيد لا يمكن أن تكون شهامة، فهو لن يخشى تحميل مسؤولية الجريمة لشخص بريء. وعلى الرغم من أنني لم أعثر على جواب للسؤال الأساسي إلا أنني شعرت فعلاً أنني عرفت عن القاتل بعض الأشياء.

سأل فريزر: أشياء مثل ماذا؟

- أولاً كان عقله مرتباً، كانت جرائمه مُجَدْوَلة حسب التسلسل الأبجدي، وكان واضحاً أن هذا التسلسل مهم بالنسبة له. ومن ناحية أخرى لم يكن له ذوق خاص في اختيار الضحايا، فالسيدة آشر وبتي برنارد والسير مايكل كانوا مختلفين تماماً، وقد رأيت هذا أمراً غريباً تماماً، فالقاتل الذي يقتل دون تمييز قد يفعل ذلك للتخلص من شخص يزعجه أو يقف في طريقه، ولكن التسلسل الأبجدي بيّن أن هذا العنصر لم يكن معتبَراً هنا. المصادفة وحدها كانت وراء اختيار الضحايا وفق الحروف الأبجدية كما بدا لي.

وقد سمحت لنفسي باستنتاج بسيط: إن قاتلنا يفكر بالقطارات، وهذا التفكير شائع بين الذكور أكثر من الإناث، فالصبيان يحبّون القطارات أكثر من الفتيات الصغيرات، كما أنها يمكن أن تكون أيضاً علامة على عقل متخلف.

ثم أعطتني جريمة قتل بتي برنارد والأسلوب الذي تمت به مؤشرات أخرى، فقد كانت لطريقة قتلها دلالة مهمة (واعذرني يا سيد فريزر) لأنها خُنقت بحزامها، وعندما عرفت شخصيتها

تشكلت في ذهني صورة معينة. كانت فتاة لَعوباً وتحب لفت انتباه الرجال الوسيمين، فهل استغل المجرم طبيعتها تلك للإيقاع بها؟ تصورتُ المشهد على الشاطئ كالتالي: أظهر الرجل إعجابه بحزامها وطلب منها أن يفحصه عن قرب، فناولته إياه، ثم لَفّه حول عنقها وكأنه يمزح بمحاولة خنقها، ولعلها ضحكت مع المزاح، ثم شد الحزام حتى أخمد أنفاسها!

ارتعب دونالد فريزر وشحب وجهه تماماً وهو يقول: أرجوك يا سيد بوارو... أرجوك!

أشار بوارو بيده وقال: معذرة، لقد انتهيت، لن أقول المزيد. ننتقل الآن إلى الجريمة التي بعدها، جريمة قتل السير مايكل جيركل. يعود القاتل هنا إلى أسلوبه الذي اتبعه في الجريمة الأولى، ضربة على الرأس. وهنا تبدو عقدة الحروف الأبجدية نفسها مرة أخرى، ولكن حقيقة واحدة بقيت تقلقني قليلاً، فلكي يكون القاتل منسجماً مع مبدئه كان عليه أن يختار المدن بتسلسل واضح.

كانت أندوفر هي الموقع رقم ١٥٥ في تسلسل الأسماء التي تبدأ بحرف الألف، لذلك توقعت أن تقع الجريمة الثانية في المدينة رقم ١٥٥ بحرف الباء، أو رقم ١٥٦ مثلاً، وفي هذه الحالة ستكون الجريمة الثالثة في المدينة رقم ١٥٧ في حرف الجيم. ولكني اكتشفت أن اختياره للمدن كان عشوائياً تماماً.

قلت: ربما ارتبطت ملاحظتك الأخيرة هذه بتحيّزك الصارم للدقة والترتيب يا بوارو، فأنت نفسك نظامي مرتب بطريقة تكاد

تكون مرضاً فيك.

- لا، إنه ليس مرضاً. يا لها من فكرة! ولكني أعترف بأنني ربما بالغت في هذه النقطة. حسناً، أنتقل إلى الجريمة الثالثة، وهنا لم أحصل على أي فائدة ذات شأن، لم نكن محظوظين ولم يكن بوسعنا الاستعداد لها لأن الرسالة وصلت متأخرة. ولكن عندما وصلت الرسالة الرابعة التي تحمل نبأ جريمة حرف الدال استطعنا إنشاء نظام دفاعي وبدا أن مجرمنا المهووس لم يعد له أمل بالإفلات. في تلك المرحلة وصلتُ إلى دليل الجوارب، واتضح أن ظهور شخص يبيع الجوارب في مسرح كل جريمة أو قريباً منه لم يكن مجرد مصادفة، إذن فلا بد أن يكون بائع الجوارب هو القاتل... على أن الوصف الذي قدمته لي الآنسة غري لم ينطبق تماماً مع الصورة التي رسمتها في ذهني للرجل الذي خنق بتي برنارد.

والآن سأقفز إلى المراحل التالية بسرعة. ارتُكبت جريمة رابعة، قُتل رجل يدعى جورج إيرلسفيلد، وافترضنا أن القاتل أخطأ وأن المقصود كان رجلاً يدعى داونز، وكان بنفس الجسم تقريباً ويجلس قربه في صالة السينما. وهنا وأخيراً لعب الحظ ضد القاتل بدلاً من أن يلعب لصالحه، فقد عُرف وطورد ثم اعتُقل أخيراً. وكما قال هيستنغز: انتهت القضية!

هذه هي التفاصيل التي تهم العامة. الرجل في السجن الآن وسوف يذهب قريباً إلى منصة الإعدام ولن تقع جرائم قتل أخرى. ولكن ماذا عني أنا؟ أنا لم أعرف، لم أعرف السبب. كما بقيَت أيضاً حقيقة واحدة محيرة، فإن جاست يملك دليل غياب يثبت أنه

يكن موجوداً في موقع الجريمة في الليلة التي وقعت فيها جريمة بكسهيل.

قال فرانكلين: هذا الأمر يقلقني تماماً.

- نعم، وهو يقلقني أنا أيضاً، فقد رأيت حجة دفعه بالغياب حقيقية، ولكنها لا يمكن أن تكون حقيقية إلا إذا... والآن نأتي إلى افتراضَين مثيرَين للاهتمام تماماً. افترضوا يا أصدقائي أن جاست ارتكب ثلاث جرائم، «أ» و«ج» و«د»، ولكنه لم يرتكب جريمة «ب».

أسكت بوارو ميغان برنارد بنظرة صارمة قائلاً: اهدئي يا آنسة، أنا أسعى إلى الحقيقة، لقد تخلصت من الكذبات. أقول افترضوا أنه لم يرتكب الجريمة الثانية، وتذكروا أنها وقعت في الساعات الأولى من يوم الخامس والعشرين، اليوم الذي وصل فيه لارتكاب جريمته. افترضوا أن شخصاً سبقه ونفذ الجريمة، فماذا سيفعل في هذه الحالة؟ هل يرتكب جريمة أخرى أم يكتفي بقبول تلك الجريمة كهدية؟

قالت ميغان: يا لها من فكرة غريبة يا سيد بوارو! لا بد أن الجرائم كلها من صنع الشخص نفسه.

لم يلتفت لها بوارو ومضى في كلامه: ميّزة هذه الفرضية أنها تفسر حقيقة واحدة، التعارض بين شخصية ألكساندر بونابارت جاست (الذي لم ينجح قط في أي علاقة مع أية فتاة) وشخصية قاتل بتي بارنادر. ومن المعروف في تاريخ الجريمة أن بعض القتلة يخططون لجرائمهم ثم يستفيدون من قيام أشخاص آخرين

بارتكابها. جاك السفاح لم يرتكب كل الجرائم التي اتُّهم بها على سبيل المثال.

حسناً، ولكني واجهت صعوبة واضحة، فحتى ذلك الحين لم تكن تفاصيل الجرائم التي ارتكبها القاتل الأبجدي مكشوفة للعامة، وقد تركت جريمة أندوفر اهتماماً باهتاً فقط ولم تُشر الصحف إلى دليل القطارات المفتوح، ومن ثم فأياً كان الذي قتل بتي برنارد فلا بد أنه كان يعرف الحقائق التي كان يعرفها أشخاص قليلون فقط، أنا والشرطة وبعض أقارب وجيران السيدة آشر. وقد قادني البحث في هذا الافتراض إلى طريق مغلق.

بدت الوجوه التي كانت تنظر إليه مشدوهة وحائرة، وقال دونالد فريزر متأملاً: على أي حال فإن الشرطة بشر.

سكت ونظر إلى بوارو متسائلاً، فهزّ بوارو رأسه بلطف وقال: المسألة أبسط من ذلك، فلدينا افتراض آخر كما قلت قبل قليل. افترضوا أن جاست لم يكن مسؤولاً عن قتل بتي برنارد، افترضوا أن شخصاً آخر قتلها. هل يمكن أن يكون هذا الشخص الآخر مسؤولاً عن ارتكاب جرائم القتل الأخرى أيضاً؟

صاح فرانكلين قائلاً: ولكن هذا لا معنى له.

- فعلاً؟ عندئذ فعلتُ ما كان عليّ أن أفعله منذ البداية؛ نظرت إلى الرسائل التي استلمتها من وجهة نظر مختلفة تماماً. لقد شعرت من يوم استلامها بأن فيها شيئاً غير طبيعي، تماماً كما يعرف خبير الصور أن صورة ما ليست أصلية. افترضت بلا تفكير أن الشيء غير الطبيعي فيها هو أن مجنوناً كتبها، ثم رجعت إليها أخيراً

وفحصتها مرة أخرى، وهذه المرة وصلت إلى نتيجة مختلفة تماماً. اكتشفت أن الشيء غير الطبيعي فيها هو أن الذي كتبها رجل عاقل.

صحت: ماذا؟!

- نعم، هذا هو الأمر بالضبط. لقد ظهرت كأنها رسائل رجل مجنون، رجل مهووس بالقتل، ولكنها لم تكن من هذا النوع في الحقيقة.

قال فرانكلين مرة أخرى: هذا لا معنى له.

استمر بوارو قائلاً: وعندما أعدت التفكير بهدف كتابة تلك الرسائل أدركت أنها لتركيز الانتباه على الكاتب، لجذب الانتباه إلى الجرائم! لم يكن الهدف واضحاً من أول نظرة، ثم عرفت. كانت من أجل تركيز الانتباه على عدة جرائم، على سلسلة جرائم. ألم يكتب شكسبير ذات يوم: «لا يمكنك أن ترى شجرة في غابة كثيفة».

لم أصحّح لبوارو الاقتباس لأنني انشغلت بمحاولة معرفة مغزاه، وخطرت ببالي فكرة غامضة.

واستمر بوارو في حديثه: متى تتضاءل فرصة ملاحظة دبوس بعينه؟ الجواب: عندما يكون مخلوطاً بغيره من الدبابيس في العلبة. تتضاءل فرصة ملاحظة جريمة ما؟ عندما تختلط بغيرها في سلسلة من الجرائم المتصلة!

أدركت أنني أتعامل مع قاتل ذكي جداً وداهية ومتهور وجريء ومقامر متمكن. إنه ليس السيد جاست قطعاً، السيد جاست لا

يمكنه أبداً أن يكون من هذا النوع ولن يرتكب هذه الجرائم. لا، عليّ أن أبحث عن رجل من نوع مختلف تماماً، رجل بمزاج صبياني، رجل جذاب للنساء، رجل قاسي القلب يستخفّ بالحياة الإنسانية، وكان بالضرورة شخصا بارزاً على الأقل في واحدة من تلك الجرائم.

فكّروا: عندما يُقتل رجل أو امرأة، ما هي الأسئلة التي يطرحها الشرطة؟ الفرصة المواتية؛ أين كان كل شخص وقت ارتكاب الجريمة؟ الدافع الكافي؛ مَن استفاد من موت الضحية؟ إذا كان الدافع والفرصة واضحَين تماماً فماذا سيفعل القاتل الذي يهم بارتكاب الجريمة؟ قد يلفّق دليل غياب عن موقع الجريمة وقت ارتكابها، وهذا يعني التلاعب بالوقت بطريقة ما، أليس كذلك؟ ولكنه عمل محفوف بالمخاطر وليس مضمون النجاح. لا، لقد فكر مجرمنا بطريقة أروع؛ اختلاق مجرم مهووس بالقتل!

بقي عليّ فقط استعراض الجرائم المختلفة وتحديد الجاني المحتمَل. جريمة أندوفر؟ أكثر المشتبَهين في تلك الجريمة هو زوج السيدة آشر، لكنني لم أستطع أن أتصوره قادراً على اختراع وتنفيذ مثل هذا المخطط المحكم، ولا حتى استطعت تصوره وهو يخطط جريمة متعمَّدة. جريمة بكسهيل؟ كان دونالد فريزر متهَماً محتمَلاً، فهو يملك العقل والمقدرة والتفكير المنظم، لكن الدافع الوحيد الذي قد يدفعه لقتل خطيبته هو الغيرة، والغيرة لا تقتضي سبق الإصرار، كما أنني علمت أيضاً أنه أخذ إجازته في وقت مبكر من شهر آب مما جعل علاقته بالجريمة الثالثة غير محتمَلة.

نأتي الآن إلى الجريمة الثالثة، جريمة جيرستون، وفي الحال

نرى دافعاً واضحاً أوضح من الشمس. لقد كان السير مايكل ثرياً جداً، فمن الذي سيرث أمواله؟ زوجته التي كانت على فراش الموت ستستفيد من المال فترة حياتها القصيرة الباقية، وبعد ذلك سيذهب المال كله إلى أخيه فرانكلين.

التفت بوارو ببطء إلى أن تقابلت عيناه مع عينَي فرانكلين ثم قال: عندها تأكدت تماماً، تأكدت أن الرجل الغامض الذي عرفته بعقلي منذ وقت طويل هو نفسه الشخص الذي عرفته أثناء التحقيق في تلك الجريمة، تأكدت أن فرانكلين جيركل والقاتل الأبجدي المجهول ليسا سوى شخص واحد! الأسفار والمغامرات الجريئة، الرجل الجذّاب الذي يستطيع خداع فتاة في مقهى، العقل المنظم الذي أعدّ قائمة هنا ذات مرة، وأخيراً العقل الصبياني الذي أشارت الليدي جيركل إليه، وقد ظهر بوضوح عندما أخبرني ذات مرة أنه كرر قراءة رواية نِسْبت الشهيرة «أولاد القطار»... عندها لم يعد عندي أي شك في أن القاتل الأبجدي، الرجل الذي كتب الرسائل وارتكب الجرائم، هو فرانكلين جيركل.

انفجر فرانكلين ضاحكاً فجأة وقال: إنك بارع جداً! وماذا عن صديقنا جاست؟ لقد قُبض عليه متلبساً بالجريمة. ماذا عن الدم الذي كان على كُمّ معطفه؟ والسكين التي أخفاها في مسكنه؟ ربما أنكر أنه ارتكب الجرائم...

قاطعه بوارو: أنت مخطئ تماماً، فهو يعترف بأنه ارتكبها كلها.

بدا فرانكلين مدهوشاً حقيقةً وسأل بذهول: ماذا تقول؟!

قال بوارو بهدوء: نعم، بمجرد أن تحدثت مع جاست أدركت أنه يعتقد أنه مذنب.

قال فرانكلين: وحتى هذا الاعتراف لم يُرضِ السيد بوارو؟

- نعم، لأنني حالما رأيته أدركت أنه لا يمكن أن يكون مذنباً. إنه لا يملك الأعصاب ولا الجرأة، ولا حتى العقل للتخطيط اللازم لهذه الجرائم. لقد أدركتُ الشخصية المزدوجة للقاتل، ثم أدركت سببها أخيراً، فقد اشترك في القضية شخصان مختلفان: القاتل الحقيقي، وهو شخص ماكر داهية جريء. والقاتل المزيف، وهو ذو تفكير ضعيف وشخصية هَشّة وسريع التأثر بالآخرين.

نعم، يتأثر بالآخرين بسهولة، وهذه هي الصفة التي تشكل لغز السيد جاست! لم يكفِك أن تدبر هذه الخطة وتجعلها سلسلة من الجرائم لكي تبعد الأنظار عن جريمة معينة يا سيد جيركل، كان عليك أن تتستر وراء قناع. أعتقد أن الفكرة خطرت ببالك أول مرة عندما التقيت مصادفة في مكان ما بهذا الشخص الغريب بأسمائه الطنانة، ولعلك كنت تقلّب في ذهنك عدة خطط لقتل أخيك في ذلك الوقت.

- حقاً؟ لماذا؟

- لأنك كنت قلقاً على المستقبل، فأنت تحب الترحال ولم تجمع في حياتك سوى القليل من المال، ويبدو لي أنك كنت شديد الغيرة من ثروة أخيك وترغب في الحصول عليها.

لعلك لم تدرك يا سيد جيركل، ولكنك تصرفت بطريقة ضرّتك وأفادتني عندما عرضت عليّ الرسالة التي أرسلها لك

أخوك. لقد لمست فيها بوضوح شديد مشاعره وتفكيره بالآنسة ثورا غري. ربما كانت نظرته إليها نظرة أبوية (أو أنه فضّل التفكير فيها هكذا) ولكن الخطر كان كبيراً، ففي حالة وفاة زوجة أخيك وبسبب وحدته قد يتحول إلى هذه الفتاة الجميلة للحصول على العطف والراحة، وقد ينتهي به الأمر -كما يحصل غالباً مع الرجال الكبار بالسن- إلى الزواج بها. ويبدو لي أن خوفك زاد بعد تعرفك بالآنسة غري، فقد حكمتَ بأنها من الفتيات اللاتي يبحثن عن المادة، ولم يكن عندك شك بأنها ستنال فرصتها لتصبح الليدي جيركل. وقد كان أخوك رجلاً قوياً وفي كامل صحته، وكان يمكن أن ينجب أطفالاً فتتلاشى فرصتك في وراثة ثروته.

أعود فأقول: بعدما قلّبت في ذهنك عدة خطط أعطاك لقاؤك مع السيد جاست فكرة معينة. أسماؤه الطنانة وكلامه عن صداعه وعن نوبات الصرع التي تنتابه وعن شخصيته الانعزالية المبهمة... كل ذلك وافق تصورك للأداة التي أردتَها، وربما خطرت ببالك عندها خطة الحروف الأبجدية، الحروف الأولى من اسم جاست مع اسم أخيك الذي يبدأ بحرف الجيم واسم القرية التي يقيم فيها... حتى إنك ذهبت بعيداً في التلميح لجاست عن نهايته المحتمَلة، رغم أنك لم تكن واثقاً أن خطتك ستثمر النتائج التي نتجت عنها.

كانت ترتيباتك ممتازة. كتبت باسم جاست طلباً لإرسال كمية كبيرة من الجوارب إلى عنوانه، ثم أرسلت بنفسك عدة نسخ من دليل القطارات في علب مماثلة لعلب الجوارب، وأرسلت له رسالة مطبوعة أوحيت له فيها أنها من الشركة وتعرض عليه فيها راتباً جيداً وعمولة. لقد وضعت خططك بصورة متقنة فطبعت بشكل

استباقي كل الرسائل التي أرسلتها له بعد ذلك على التعاقب، ثم أهديته آلة الطباعة التي طبعت بها الرسائل.

كان عليك أن تبحث عن ضحيتين يبدأ اسم كل منهما بالحرف المناسب، «أ» و«ب»، ويعيشان في بلدتين يبدأ اسماهما بهذين الحرفين. اخترت أندوفر أولاً، وقادك استطلاعك التمهيدي فيها إلى اختيار دكان السيدة آشر مسرحاً للجريمة الأولى. كان اسمها مكتوباً بوضوح فوق الباب، وقد وجدت بمراقبتها أنها كانت تجلس وحيدة في دكانها بحيث لا يحتاج قتلها إلا إلى أعصاب وجرأة وحظ معقول.

ثم اخترت البلدة الثانية، وأردت أن تنوع أساليبك خوفاً من تحذير السيدات اللاتي يجلسن وحيدات في المتاجر، ولعلك ترددت على بعض المقاهي هناك وأنت تضحك وتمزح مع الفتيات حتى تكتشف واحدة منهنّ يبدأ اسمها بالحرف المطلوب، وقد وجدت في بتي برنارد الفتاةَ التي كنت تبحث عنها. ويبدو أنها خرجت معك مرة أو مرتين وأخبرتها أنك متزوج وأن اللقاء بها يجب أن يكون في مكان منعزل بعيد.

وهكذا اكتملت خططك الأولية وبدأت العمل. أرسلت قائمة أندوفر إلى جاست وكلّفته بالذهاب إليها في يوم معين، وأرسلت إليّ أول رسالة موقعة بالأحرف الأبجدية «أ ب ج». وفي اليوم المحدد ذهبتَ إلى أندوفر وقتلت السيدة آشر دون أن يعترضك أي عائق يخرب خططك. لقد تم إنجاز جريمة القتل الأولى بنجاح. بالنسبة للجريمة الثانية أخذت إجراء احتياطياً وبكرت قليلاً لتتجنب استنفار الشرطة. أنا متأكد أنك قتلت بتي برنارد قبل منتصف الليل

من ذلك اليوم.

نأتي الآن إلى الجريمة الثالثة، وهي الجريمة المهمة، الجريمة الحقيقية من وجهة نظرك. هنا يعود الفضل كله إلى هيستنغز الذي قدّم ملاحظة بسيطة واضحة لم ينتبه إليها أحد. لقد شك أن الرسالة الثالثة تأخرت بسبب العنوان الذي طُبع على الظرف خطأ بصورة متعمَّدة... وقد كان على حق.

في تلك الحقيقة البسيطة تكمن الإجابة على السؤال الذي حيّرني طويلاً: لماذا أُرسلت الرسائل إلى هيركيول بوارو وليس إلى الشرطة؟ لقد فكرت أولاً بسبب شخصي لا أعرفه، ولكن لم يكن الأمر كذلك، إطلاقاً! لقد أرسلتَ الرسائل إليّ لأن جوهر خطتك كان أن تتأخر إحدى الرسائل، وهي ستتأخر عندما تُرسَل إلى عنوان خطأ فيتأخر تسليمها، ولو أرسلت رسائلك إلى إدارة التحقيقات الجنائية في سكتلنديارد فلن تضلّ طريقها ولن تتأخر في الوصول. وقد طبعت العنوان على الظرف بطريقة ذكية جداً: وايتهافن بدلاً من وايتهاوس! وبذلك ستبدو زلة طبيعية تماماً. كان هيستنغز الوحيد الذي لم يتجاهل ذكاءك وكان الأمر واضحاً في ذهنه. بالطبع كان المقصود هو أن تضلّ الرسالة طريقها لكي يبدأ الشرطة بتعقب المجرم بعد الانتهاء من ارتكاب الجريمة بأمان، وقد أعطتك عادة أخيك في المشي المسائي الفرصة التي تريدها.

لقد أنجزت مهمتك بقتل أخيك ولم تكن لديك رغبة بارتكاب أي جريمة أخرى، ولكنْ لو توقفَت الجرائم دون سبب فقد يشك شخص ما في الحقيقة. لقد خيب قناعُك الذي تستّرتَ وراءه أملَك، فقد لعبَت طبيعة السيد جاست دورَها لتجعله الرجل

المهمَل الذي لا يلاحظه أحد، وبذلك فقدتَ أحد عوامل القوة في خطتك، فلم تَرد في شهادات الشهود التي انتظرتها المشاهدةُ القطعية للرجل نفسه في مواقع جرائم القتل الثلاث، ثم زاد ضيقك لأن السيد جاست لم يُذكر حتى في زيارته لبيت أخيك، فقد خرج الأمر من ذاكرة الآنسة غري تماماً.

لذلك قررتَ ضرورة تنفيذ جريمة أخرى، وهذه المرة لا بد أن يكون الأثر واضحاً تماماً. اخترت دونكاستر لتكون مسرحاً للعمليات، وكانت خطتك بسيطة جداً: أنت بنفسك ستكون في مكان الجريمة بصورة طبيعية، والسيد جاست ستكلفه شركته بالذهاب إلى دونكاستر. كانت خطتك أن تتبعه حيث يذهب إلى أن تحين الفرصة المناسبة، وقد حدث كل شيء بصورة جيدة. ذهب السيد جاست إلى السينما، وكان ذلك هو البساطة في أكمل صورها. جلست أنت على مسافة بضعة مقاعد بعيداً عنه، وعندما نهض لكي يغادر نهضت معه، ثم تظاهرت بأنك تعثرت وانحنيت فوق رجل نائم في الصف الذي كان أمامك فطعنته وألقيت دليل القطارات تحت مقعده، ثم تظاهرت بالاصطدام بالسيد جاست عند الباب المظلم فمسحت السكين بكمّه ثم أسقطتها في جيبه.

لم تزعج نفسك باختيار شخص يبدأ اسمه بحرف الدال، فأي واحد سيفي بالغرض. وقد افترضت (بصورة صحيحة) أن ذلك سيُعتبَر خطأً، وكان من المؤكد تقريباً أن يوجد في الصالة شخص يبدأ اسمه بالحرف المطلوب، وسوف يُفترض أنه كان هو الضحية المقصودة.

والآن يا أصدقائي: دعونا نفكر بالمسألة من وجهة نظر القاتل

المزيف، من وجهة نظر السيد جاست. لم يسمع بجريمة أندوفر في وقتها ولم تَعنِ له أي شيء. أما جريمة بكسهيل فقد صُدم وفوجئ بها لأنه كان هناك في ذلك الوقت. ثم تأتي جريمة جيرستون والعناوين العريضة في الصحف، وعندما يقرأ التفاصيل سيدرك أنه كان في أندوفر عندما وقعت الجريمة فيها، وأنه كان قريباً من بكسهيل عندما وقت جريمتها أيضاً. ثلاث جرائم كان موجوداً في المكان الذي وقعت كل واحدة منها فيه. في الغالب يذهل الأشخاص الذين يعانون من الصرع عندما لا يستطيعون تذكر ما فعلوه، وتذكروا أن جاست كان عصبياً ويتأثر بالآخرين بسهولة عجيبة.

ثم تلقى أمراً بالذهاب إلى دونكاستر. دونكاستر! لقد نشرت الجرائد خبر الرسالة الرابعة وهو يعلم أن جريمة «أ ب ج» التالية ستقع في دونكاستر! لا بد أنه شعر بأن ذلك قدره، ولعله فقد أعصابه وتخيل أن صاحبة البيت تنظر إليه بارتياب فأخبرها أنه ذاهب إلى تشلتهام. ثم ذهب إلى دونكاستر لأن هذا واجبه، وفي المساء ذهب إلى دار السينما، ومن المحتمل أن يكون النعاس قد غلبه لبعض الوقت.

تصوروا مشاعره عندما يكتشف أثناء عودته إلى فندقه الدم على كُمّ معطفه ويعثر على سكين ملطخة بالدم في جيبه! سوف تتحول كل هواجسه الغامضة إلى حقيقة. هو نفسه القاتل! سيتذكر الصداع الذي يداهمه وضعف ذاكرته. إنه متأكد تماماً من الحقيقة: إنه هو، ألكساندر بونابارت جاست، القاتل المجنون.

بعد ذلك صار سلوكه مثل الحيوان الذي وقع في الشرَك.

أسرع بالعودة إلى مسكنه في لندن، فهو سيكون آمناً هناك. كانوا يعتقدون أنه كان في تشلتنهام، وكانت السكين ما تزال معه (وبالطبع كان ذلك عملاً غبياً تماماً) فخبّأها خلف علاقة الملابس. ثم وصله تحذير في أحد الأيام بأن الشرطة في أثره. إنها النهاية، فهم يعرفون إذن! عندها تحرك الحيوان الأسير حركته الأخيرة. لا أعرف لماذا ذهب إلى أندوفر. لعلها كانت رغبة مرَضية لكي يذهب وينظر إلى المكان الذي وقعت فيه الجريمة، الجريمة التي ارتكبها رغم أنه لا يستطيع أن يتذكر شيئاً عنها. لم يعد عنده مال، إنه مرهق، وقادته قدماه طوعاً إلى مركز الشرطة.

ولكن الحيوان يقاتل إذا حُشر في زاوية. اعتقد السيد جاست أنه ارتكب تلك الجرائم، ولكنه تمسك بقوة ببراءته، وتمسك يائساً أيضاً بذلك الدليل على عدم وجوده في مكان الجريمة الثانية وقت وقوعها. على الأقل لن يكون ممكناً اتهامه بتلك الجريمة. وكما قلت: عندما رأيته عرفت في الحال أنه لم يكن القاتل وأن اسمي لا يعني له شيئاً، وعرفت أيضاً أنه يعتقد أنه القاتل. وبعد أن اعترف بالجرم الذي لم يرتكبه عرفت أكثر من أي وقت مضى أن نظريتي كانت صحيحة.

قال فرانكلين جيركل: يا لها من نظرية سخيفة!

هز بوارو رأسه وهو يقول: لا يا سيد جيركل؛ لقد كنتَ آمناً لفترة طويلة لم يشكّ فيك خلالها أحد، ولكن عندما بدأ الشك فيك كان من السهل الحصول على براهين.

- براهين؟!

- نعم، لقد عثرنا على العصا التي استخدمتَها في جريمتَي أندوفر وجيرستون في خزانة في بيت أخيك، كانت عصا عادية وقد استُبدلَتْ برأسها الخشبي صَبّةٌ من الرصاص المُذاب. وقد نجح شخصان بالتعرف على صورتك من بين ستّ صور مختلفة، حيث شاهداك تغادر دار السينما في الوقت الذي كان يفترض أن تكون فيه في ميدان السباق في دونكاستر. كما أن ميلي هغلي تعرفت عليك في بكسهيل بالأمس، وكذلك فعلت فتاة في فندق سكارلت رانر، وهو المكان الذي اصطحبت بتي برنارد إليه لتناول العشاء مساء يوم الجريمة. وأخيراً (وهو الأكثر سوءاً بالنسبة لك) لقد غفلت عن اتخاذ احتياط أساسي جداً، فتركت بصمة إصبع من أصابعك على آلة الطباعة التي أرسلتها إلى جاست، ولو كنت بريئاً كما تزعم لما وُجدت بصمات أصابعك على الآلة أبداً.

بقي فرانكلين صامتاً برهة طويلة ثم قال: لقد ربحت يا سيد بوارو، ولكنها كانت تستحق المحاولة!

وبحركة سريعة لا تصدَّق أخرج مسدساً من جيبه ورفعه صوب رأسه، فصرخت وجفلت بصورة لاإرادية في انتظار سماع دويّ الطلقة، ولكنْ لم يُسمَع أي دويّ بعد الضغط على الزناد.

نظر فرانكلين إلى المسدس وهو مذهول وشتم، فقال بوارو: لا يا سيد جيركل. لعلك لاحظت أنني أحضرت خادماً جديداً اليوم، وهو صديق قديم لي ونشّال خبير. لقد أخرج مسدسك من جيبك وفرّغه من الرصاص ثم أعاده لجيبك دون أن تشعر.

صاح فرانكلين وقد احمَرّ وجهه غضباً: يا لك من أجنبي

وقح مغرور!

- حسناً، هذا هو شعورك. ولكن لا يا سيد جيركل، لن يكون موتك سهلاً. لقد أخبرتَ السيد جاست أنك نجوت من الغرق المحقق مرتين. هل تعرف ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أنك وُلدت لموت آخر.

- أنت...

خانته الكلمات، وشحب وجهه وهو يشدّ قبضتيه متوعداً. في تلك اللحظة دخل رجلان من سكتلنديارد، وكان كروم أحدَهما، تقدم ونطق صيغته المقدسة: أحذّرك من أن أي شيء تقوله قد يُستخدم دليلاً ضدك...

قال بوارو: لقد قال ما فيه الكفاية!

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

خاتمة

تنهدت ميغان برنارد بعمق ثم قالت: يا إلهي! لا أصدق، هل هذا صحيح؟

قال بوارو: نعم يا آنسة، وقد انتهى الكابوس.

نظرَت إليه وقد ازداد شحوبها، والتفت بوارو إلى فريزر قائلاً: لقد عاشت الآنسة ميغان في خوف دائم من أن تكون أنت من ارتكب الجريمة الثانية.

قال دونالد فريزر بهدوء: أنا نفسي خشيت في وقت من الأوقات أن يكون الأمر كذلك.

سأله بوارو: بسبب حلمك؟

ثم اقترب من الشاب وخفض صوته كأنما يحدّثه بسرّ خطير: إن لحلمك تفسيراً طبيعياً جداً، فقد رأيت صورة إحدى الأختين تتلاشى من ذاكرتك وأختها الأخرى تأخذ مكانها، الآنسة ميغان تحتل مكان أختها في قلبك، ولكن عقلك الباطن لم يحتمل التفكير بأنك غير مخلص للفتاة الميتة، لذلك جاهدت لكبت الفكرة، لقتلها! هذا هو تفسير الحلم.

نظر فريزر إلى ميغان، فقال بوارو بلطف: لا تخشَ من النسيان، فهي لم تكن تستحق أن تتذكرها، أما الآنسة ميغان فأمثالها نادرات؛ إن قلبها عظيم.

أضاءت عينا دونالد فريزر وقال: أعتقد أنك على حق.

ثم تحلّقنا جميعاً حول بوارو لنوجّه إليه أسئلة وليشرح لنا هذه النقطة أو تلك، وسألته: تلك الأسئلة التي وجهتها لكل واحد يا بوارو، هل كان لها أي معنى؟

- بعضها كان مجرد مزاح، ولكني عرفت شيئاً واحداً أردت أن أعرفه، هو أن فرانكلين كان في لندن عندما أُرسلت الرسالة الأولى. كما أنني أردت أيضاً ملاحظة وجهه عندما طرحت سؤالي على الآنسة ثورا. كان متيقظاً جداً ورأيت المكر والغضب في عينيه.

قالت ثورا غري: إنك لم ترحم مشاعري!

قال بوارو ببرود: لا أعتقد أنك أجبت عن سؤالي جواباً صادقاً يا آنسة، والآن خاب أملك الثاني، فالسيد فرانكلين جيركل لن يرث ثروة أخيه.

رفعت رأسها بغضب وقالت: هل ترى أي حاجة لبقائي هنا وإهانتي؟

أجابها: "لا، أبداً"... ثم فتح لها الباب بأدب.

قلت بعد انصرافها متأملاً: لقد حسمت بصمة الإصبع تلك الأمرَ يا بوارو، فقد انهار تماماً عندما أخبرته بها.

قال: "نعم، إن بصمات الأصابع مفيدة". ثم أضاف متأملاً:

لقد قلتُ ذلك لإرضائك يا صديقي.

صحت: ولكن ألم يكن الأمر كذلك يا بوراو؟

قال: إطلاقاً يا صديقي.

* * *

يجب أن أذكر زيارة السيد ألكساندر بونابارت جاست لنا بعد بضعة أيام، فبعد أن صافح بوارو بحرارة وحاول شكره بصورة غير متماسكة وغير ناجحة استجمع قوّته وقال: هل تعرف أن إحدى الصحف عرضت عليّ مئة جنيه مقابل قصة حياتي؟ لا أعرف ماذا أقول لهم.

قال بوارو: أنا لن أقبل مئة جنيه! كن صلباً، اطلب خمسمئة جنيه ولا تربط نفسك بصحيفة واحدة.

- هل تعتقد فعلاً أنني...

قال بوارو مبتسماً: يجب أن تعرف أنك رجل مشهور، بل أنت في الواقع أكثر الناس شهرة في إنكلترا هذه الأيام.

عدّل السيد جاست جلسته وامتلأ وجهه بالسرور، ثم قال: أعتقد أنك على حق؛ أنا مشهور! في جميع الصحف؟ سأعمل بنصيحتك يا سيد بوارو، سيكون المال مفيداً، مفيداً جداً. سأستمتع بإجازة طويلة، وأريد أيضاً أن أقدم لليلي ماربيري (وهي فتاة عزيزة عليّ، عزيزة عليّ فعلاً يا سيد بوارو) سأقدم لها هدية جميلة بمناسبة زواجها.

ربّت بوارو على كتفه مشجعاً وقال: أنت على حق، متّع

نفسك، وأريد أن أقترح عليك اقتراحاً صغيراً: ما رأيك أن تزور طبيب عيون؟ من المحتمل أن يكون صداعك بسبب النظارات، أظن أنك بحاجة إلى نظارة جديدة.

- هل تعتقد أن هذا هو السبب طوال الوقت؟

- نعم، أظنه كذلك.

صافحه السيد جاست بحرارة قائلاً: أنت رجل عظيم جداً يا سيد بوارو.

وكعادة بوارو لم يأنف من المديح، حتى إنه لم ينجح في التظاهر بالتواضع!

وعندما خرج السيد جاست يتبختر بغرور ابتسم صديقي الكبير في وجهي وهو يقول: وهكذا فقد ذهبنا للصيد مرة أخرى يا صديقي هيستنغز، ألم نفعل؟

* * *

-تمَّت-

روايات أغاثا كريستي
حسب ترتيب الصدور

العناوين العربية في هذه القائمة هي الروايات التي نشرناها في «الأجيال» والعناوين الأجنبية للروايات التي لم ننشرها بعد (وسوف ننشرها تباعاً خلال ثلاث سنوات بإذن الله)

(١) قضيّة ستايْلز الغامضة (١٩٢٠)
(٢) The Secret Adversary (١٩٢٢)
(٣) جريمة في ملعب الغولف (١٩٢٣)
(٤) Poirot Investigates (١٩٢٤)
(٥) ذو البدلة البنّية (١٩٢٤)
(٦) The Secret of Chimneys (١٩٢٥)
(٧) مقتل روجر أكرويْد (١٩٢٦)
(٨) الأربعة الكبار (١٩٢٧)
(٩) The Mystery of the Blue Train (١٩٢٨)
(١٠) The Seven Dials Mystery (١٩٢٩)
(١١) شركاء في الجريمة (١٩٢٩)
(١٢) The Mysterious Mr Quin (١٩٣٠)
(١٣) جريمة في القرية (١٩٣٠)
(١٤) لغز سيتافورد (١٩٣١)

(١٥) خطر في البيت الأخير (١٩٣٢)

(١٦) ثلاثة عشر لغزاً (١٩٣٢)

(١٧) موت اللورد إدْجوير (١٩٣٣)

(١٨) كلب الموت (١٩٣٣)

(١٩) جريمة في قطار الشرق (١٩٣٤)

(٢٠) The Listerdale Mystery (١٩٣٤)

(٢١) لماذا لم يسألوا إيفانز؟ (١٩٣٤)

(٢٢) تحريات باركر بايْن (١٩٣٤)

(٢٣) مأساة من ثلاثة فصول (١٩٣٤)

(٢٤) موت وسط الغيوم (١٩٣٥)

(٢٥) الجرائم الأبجدية (١٩٣٦)

(٢٦) Murder in Mesopotamia (١٩٣٦)

(٢٧) أوراق على الطاولة (١٩٣٦)

(٢٨) Murder in the Mews (١٩٣٧)

(٢٩) Dumb Witness (١٩٣٧)

(٣٠) موت فوق النيل (١٩٣٧)

(٣١) Appointment with Death (١٩٣٨)

(٣٢) جريمة عيد الميلاد (١٩٣٨)

(٣٣) Murder is Easy (١٩٣٩)

(٣٤) ثُمّ لم يبقَ أحد (١٩٣٩)

(٣٥) السَّرْو الحزين (١٩٤٠)

(٣٦) إبزيم الحذاء (١٩٤٠)

(٣٧) Evil Under the Sun (١٩٤١)

(٣٨) N or M? (١٩٤١)

(٣٩) جثة في المكتبة (١٩٤٢)

(٤٠) Five Little Pigs (١٩٤٢)

(٤١) الإصبع المتحرك (١٩٤٢)

(٤٢) Towards Zero (١٩٤٤)

(٤٣) في النهاية يأتي الموت (١٩٤٤)

(٤٤) Sparkling Cyanide (١٩٤٥)

(٤٥) The Hollow (١٩٤٦)

(٤٦) The Labours of Hercules (١٩٤٧)

(٤٧) ركوب التيّار (١٩٤٨)

(٤٨) البيت الأعوج (١٩٤٩)

(٤٩) A Murder Is Announced (١٩٥٠)

(٥٠) لقاء في بغداد (١٩٥١)

(٥١) موت السيدة ماغنْتي (١٩٥٢)

(٥٢) خداع المَرايا (١٩٥٢)

(٥٣) After the Funeral (١٩٥٣)

(٥٤) جيبٌ مَليء بالحبوب (١٩٥٣)

(٥٥) Destination Unknown (١٩٥٤)

(٥٦) Hickory Dickory Dock (١٩٥٥)

(٥٧) مبنى الرجل الميّت (١٩٥٦)

(٥٨) قطار ٤,٥٠ من بادنْغتون (١٩٥٧)

(٥٩) محنة البريء (١٩٥٨)

(٦٠) Cat Among the Pigeons (١٩٥٩)

(٦١) مغامرة كعكة العيد (١٩٦٠)

(٦٢) الحصان الأشْهَب (١٩٦١)

(٦٣) شرخ في المرآة (١٩٦٢)

(٦٤) الساعات (١٩٦٣)

(٦٥) A Caribbean Mystery (١٩٦٤)

(٦٦) في فندق بيرترام (١٩٦٥)

(٦٧) الفتاة الثالثة (١٩٦٦)

(٦٨) ليل لا ينتهي (١٩٦٧)

(٦٩) By the Pricking of My Thumbs (١٩٦٨)

(٧٠) Halloween Party (١٩٦٩)

(٧١) مسافر إلى فرانكفورت (١٩٧٠)

(٧٢) انتقام العدالة (١٩٧١)

(٧٣) ذاكرة الأفيال (١٩٧٢)

(٧٤) Postern of Fate (١٩٧٣)

(٧٥) قضايا بوارو المبكّرة (١٩٧٤)

(٧٦) الستارة (١٩٧٥)

(٧٧) الجريمة النائمة (١٩٧٦)

(٧٨) القضايا الأخيرة للآنسة ماربل (١٩٧٩)

(٧٩) Problem at Pollensa Bay (١٩٩١)

(٨٠) While the Light Lasts (١٩٩٧)